قطوف دانية

من

سور قرآنية

تأليف

الشيخ الأخضر الدهمة

الجزء الأول

(تفسير السور التالية : الفاتحة ، يس ، الحجرات ، الحشر)

الإعداد للطباعة والتنسيق الفني

د. عبد القادر جعفر

Abdelkader.dja@gmail.com

تصميم الغلاف

عبد الهادي عبد القادر جعفر

جميع الحقوق محفوظة

1431 هـ / 2010 م

طباعة

مطبعة مداد iMID

شارع الشهيد طالبي أحمد / غرداية / الجزائر
حي البطحاء (مقابل المستشفى) ، متليلي / ولاية غرداية / الجزائر
محمول: 0772868874 فاكس: 029822868
Email: Sobhihocine@yahoo.fr

الإيداع القانوني رقم: **2010-2392** ردمك: **978-9947-0-2939-8**

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

مُقَدِّمَة

مقدمة دروس التفسير

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، و نستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد، فمن ضمن الدروس التي كنت و مازلت أتطوع بها، منذ بداية الثمانينيات، ببعض مساجد متليلي و غارداية، خصوصا قبل صلاة الجمعة، وأحيانا بعد صلاة الصبح، دروسٌ في تفسير القرآن الكريم. وقد أتممت فيها — بتوفيق الله تعالى - سورتي الفاتحة والبقرة، ثم عمدت إلى آيات من سورتي آل عمران والنساء، توخيتها لمقتضيات العصر الذي يظلنا. ثم انتقلت بعدها إلى سور معينة هي سورة يس والحجرات والحشر وجميع قصار المفصل، لأساعد جمهور المصلين على فهم ما يردِّدون بألسنتهم في كل يوم، لأنه من غِير المستساغ أن يكرر الإنسان ألفاظاً بلسانه، لا يفقه لها معنى بفؤاده.

وكنت- قبلاً- اكتفي بمذكرات وجيزة أدِّون عليها العناصر الرئيسية في الموضوع لأتوسع فيها عند الإلقاء، ولكن بعض الأساتذة من أبنائي الروحيين ألحوا علي في تلخيص هذه الدروس على قراطيس لتكون تفسيراً يانعاً ميسراً يساعد القارئ على التصور الصحيح الواضح لمعاني الآيات، فأجبتهم إلى ذلك.

و بما أن أحوالي -الخاصة و العامة- لم تسمح لي بالرجوع إلى كل ما مضى من دروس فقد اقتصرت -في إجابتهم- على الدروس التي كنت بصددها حينذاك، وما بعده.

و قد أحمدت هذا الاقتراح الذي حول عملي إلى صدقة جارية إن شاء الله سوف تنتفع بها الأجيال اللاحقة، كما ينتفع بها الجيل الحاضر فجزى الله أصحابه عني و عن كل مستفيد أحسن الجزاء، إنه سميع مجيب.

و منهجي في التفسير أن أتلو الآيات التي أقصد إليها تلاوة متأنية أحاول بها اقتناص المعاني القريبة التناول، و تحديد الآيات التي تستوجب الاستعانة ببعض كبار المفسرين و محققيهم وعند اختلافهم أقارن بين أقوالهم محكماً النقل الصحيح، و العقل الحصيف، والذوق السليم، فأستمسك بما يشهد له هذا التحكيم، وأرفض ما سواه، ثم أرتب المعاني و فق ما أراه حرياً بولوجها إلى أذهان المستمعين أو القراء في يسر وانسجام ثم أتوكل على الله في تسجيلها وإلقائها ونجاحها، مراعياً في الإلقاء تباين المستويات بحيث لا ينزعج المثقف بضياع وقته ولا الأمي بعسر فهمه، أما هذا التفسير المكتوب فهو موجه إلى ذوي الثقافة العامة ممن يمكنهم متابعة البحث والتحقيق، ومسايرة التحرير والتدقيق، في مباني الكلام ومعانيه، و هو لا يختلف عن التفسير المسموع من حيث المنهجية إنما

يختلف عنه من حيث الاختصار، والمستوى اللغوي المرفع، وتذييل كل سورة بما رأيته جديراً بلفت النظر إليه من معانيها أو مراميها أو أحكامها أو عظاتها.

وقد راعيت فيه أن يكون مُعيناً للمدرس المبتدئ الذي يريد الاقتصاد في الوقت و في التحضير بحيث يكفيه إن شاء الله إن أراد الاكتفاء.

وقد تجنبت فيه التوسع فيما لا أراه مفيداً للقارئ من أفكار ثانوية، أو روايات متعددة بينها توسعت توسعاً - قد يلفت النظر - فيما فيه تثقيف للعقل، أو انديا ح لدائرة الفهم، أو مادة لاستنباط العبر، بما له صلة بالآيات المفسرة.

و أرى من المناسب أن أطرح سؤالين بين يدي هذا العمل المتواضع قد يثيرهما في النفس الموضوع المتناول، هما: ما هي طبيعة هذا القرآن الكريم الذي هو إمامنا ومصدر تشريعنا؟ وهل هو في حاجة إلى تفسير؟

أما الإجابة عن السؤال الأول فنجدها في القرآن نفسه، حيث يقول الله ﷻ في سورة آل عمران:﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ الآية 138، ويقول في سورة المائدة:﴿ قد جاءكم من الله نور، وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ الآيتان 15-16، ويقول في سورة الجاثية: ﴿هذا بصائر للناس، وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ الآية 20، فهو بيان لجميع الناس، يبين لهم المنهج الذي يجب سلوكه لضمان سعادتهم، وإنما يهتدي به، ويتعظ بآياته المتقون منهم

الذين يهمهم أن يحفظوا أنفسهم مما يضرها في معاشها ومعادها؛ وهو نور روحاني، وكتاب واضح الدلالات، يوفق الله به الذين اتبعوا مراضيه واجتنبوا مساخطه وتحرَّوا طرق النجاة و السلامة من كل مخيف، وهو يخرجهم من ظلمات الكفر والشك والجهل إلى نور الإيمان واليقين و المعرفة، وهو بصائر تبصر به العقول حقائق الأشياء المعنوية كما تبصر العيون الحقائق الحسية.

و الذي أكرمه الله بالوحي من عنده يصف القرآن المنزل عليه بقوله: "كتاب الله تبارك و تعالى، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله[1] ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. هو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم و هو الصراط المستقيم، و هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلَق على كثرة الرد[2] ولا تنقضي عجائبه، و هو الذي لم تنته الجن – إذ سمعته – أن قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾ من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، و من دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم". رواه الترمذي.

---

1 – يقال: قصم الشيء: إذا كسره حتى انفصل بعضه عن بعضه، و المراد ب(قصمه الله): أهلكه.

2 – خلق الثوب و الجلد يخلق: بلي، و الرد: التردد، و المراد أن القرآن لا يمل و لو تكررت قراءته.

و أما الحاجة إلى تفسيره فقد اقتضاها بعدُنا من اللغة العربية الفصحى التي أنزل بها، وعجزنا عن فهم أسرارها؛ في تراكيبها و أساليبها وحقائقها وأنماط مجازها. ودليل ذلك أن العرب الأولين المعاصرين لنزوله، الناجية ألسنتهم من كل عُجمة كانوا يتأثرون به أيما تأثر، و يتذوقونه أيما تذوق، حتى إن بلغاءهم وقفوا مدهوشين، أمام بلاغته مبهورين بفصاحته! سواء في ذلك مؤمنهم ومعاندهم، حتى إن بعض شعرائهم هجروا قول الشعر و لسان حالهم أو مقالهم يلفظ: (و هل ترك القرآن قولاً لقائل؟).

و لم تتراء الحاجة إلى تفسير كلام الله إلا بعد قصور العنصر العربي عن استيعابه فهماً و بياناً، ودخول العناصر الأعجمية في دين الله أفواجاً، وعجزهم عن فهم القرآن لا يحتاج إلى برهان! لذلك اندفع العلماء المخلصون المقتدرون في هذه الأمة إلى خدمة الإسلام و المسلمين بتقريب معاني القرآن إلى الأذهان، وتجلية مقاصده إلى كل راغب في العرفان، فأثريت المكتبة الإسلامية بعشرات التفاسير من مطولات ومختصرات، ومازالت تثرى في كل عصر إن شاء الله بما يلائم أهله ويماشي تطوره...

و قد تبيّن -الآن- لكل ذي حجر[1] - حين وازن بين ما كان عليه سلفنا الصالح القريب من هداية القرآن، وما عليه خلفنا البعيد عن تلك الهداية -أن لا قيمة لو جودنا، ولا سبيل إلى التفضي من قيود الذلة والمهانة التي طبعت حياتنا،

1 - الحجر (بكسر الحاء) : العقل.

والتخلُّص من أثقال التخلف الشامل الذي عطل مسيرتنا إلا بالرجوع إلى كتاب الله نتقنه تلاوة و فهماً وتدبراً واتعاظاً ونتخذه إماماً لنا في كل ميدان من ميادين الحياة المتنوعة. ونعمت الكلمة كلمة الإمام مالك -رحمه الله- "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

و من الحقائق الواضحة في الأذهان وضوح الشمس في رائعة النهار ما تحمله الآية الكريمة ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ الرعد الآية 11، فليعتبر بذلك أولو الأبصار.

و أرى لزاماً على أن أنصح أبنائي الذين منَّ الله عليهم بحُبِّ المطالعة، والشوق إلى المعرفة- وهي منَّة عظيمة- أن يزاوجوا بين قراءة الأبصار، و قراءة البصائر حتى لا يسيئوا إلى أنفسهم باقتناء ما لا يستحق الاقتناء، و لا إلى دينهم بتصورات عنه تأباها شريعتنا الغراء، و لا إلى إخوانهم بتلقينهم أفكاراً عوجاء.

واكتفي ببعض الأمثلة من تفسيرات بعض قصار المفصل لأن ما دُسَّ في سائر السور من خرافات و إسرائليات وتفاهات عن حسن نية أو سوئها من الكثرة بحيث لا يسعه صدر هذه المقدمة الوجيزة .

من ذلك ما جاء في قصة أصحاب الفيل؛ من أنَّ نفيلاً بن حبيب أقبل على الفيل و أخذ أذنه فقال له ابرك محمود، و ارجع راشداً من حيث أتيت فانك في بلد الله الحرام! ثم أرسل أذنه فبرك... و لا يتردد عاقل في أن الفيل إنما برك بإذن الله

لا بأمر نفيل. و الذي حبس الفيل عن الاقتراب من مكة المكرمة هو الذي حبس ناقة الرسول ﷺ عن دخول مكة أيضاً عام صلح الحديبية حين قال الناس " خلأت القصواء". فقال رسول الله ﷺ : (ما خلأت القصواء، و ما كان لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل). فحابس الناقة و حابس الفيل واحد، وهو الله ﷻ لا شك في ذلك! و لكنَّها النُّقول التي يعوزها النظر الفاحص ليحكم بنسبتها إلى المفسرين رحمهم الله، أو إلى الوضّاعين الذين يروِّجون هذه الأقاويل في ثنايا كتب التفسير.

و من ذلك ما جاء في تفسير سورة قريش عند قوله تعالى: ﴿وآمنهم من خوف﴾، فقد فسر تأمين الله لقريش من الخوف بتأمين الله إياهم من خوف وقوع الخلافة الإسلامية في غيرهم من القبائل أو الأمم مع أن التاريخ الماضي والواقع المشاهد يناديان بتحولها عنهم إلى غيرهم، ولو آمنهم الله ﷻ من هذا الخوف المزعوم لما وقع ما وقع الآن لأن الله القادر على كل شيء لا يتخلف وعده، و قس على هذه الآراء الممجوجة ما يصادفك أيها القارئ الكريم- أثناء مطالعاتك في الكتب التي أقحم فيها الغثّ وسط السمين، سواء أكانت كتب التفسير أم غيرها.

وعلى سبيل التجاوب مع رغبات بعض المعلمين والأساتذة الذين كانوا يشرفونني بالحضور إلى دروسي الشفوية أو بقراءة كتبي المؤلفة، ثم يصارحونني بأنهم قد استحسنوا وانتفعوا باستعمال بعض قواعد النحو لتوضيح المعاني،

وتطويعها للتصور السليم. فقد لبيت ما رغبوا فيه -باختصار دائما- دون أن يخرجني ذلك من اعتبار القرآن الكريم كتاب هداية لا كتاب علوم مختلفة.

وعصما لمن لم يسبق له استظهار القرآن الكريم أن يخطئ في قراءته تعمدت رسم الآيات المستشهد بها على وفق ما انتهى إليه علم قواعد الإملاء في العصور الحديثة، وهو ما أفتى بجوازه جمع من أهل العلم في كتابة غير المصحف الشريف.

وقد سجل الدكتور وهبه الزحيلي فتوى بهذا الشأن لبعض علماء الأزهر في كتابه: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج1 ص 25، ونصها:

"وقد رأت لجنة الفتوى بالأزهر وغيرها من علماء العصر الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف احتياطاً لبقاء القرآن على أصله لفظًا وكتابة، وحفاظا على طريقة كتابته في العصور الإسلامية السابقة دون أن ينقل عن أحد من أئمة الاجتهاد تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولاً. ولمعرفة القراءة المقبولة والمردودة فلا يفتح فيه باب الاستحسان الذي يعرض القرآن للتغيير والتحريف أو للتلاعب به أو العبث بآياته من ناحية الكتابة. لكن لا مانع في رأي جماهير العلماء من كتابة القرآن بطرق الإملاء الحديثة في مجال الدرس والتعليم، أو عند الاستشهاد بآيات أو أكثر في بعض المؤلفات الحديثة، أو في كتب وزارة التربية والتعليم، أو أثناء عرضه على شاشة التلفاز" . انتهى

و أخيراً أمضي في هذا السبيل متوكلاً على الله، معتقداً أنَّ كل صواب من الله وهو يستحق الثناء عليه، وأنَّ كلَّ خطأ من نفسي و من الشيطان واستغفر الله منـه، وأرجو التنبيه إليه من المقتدرين عليه.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم؛ إنه سميع مجيب.

كتبه الفقير إلى ربه: الأخضر الدهمة

مدينة متليلي / الجزائر

غرة ربيع الأول 1431هـ

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

هي مكية، عدد آياتها سبع، عدد كلماتها خمس وعشرون، ولها أكثر من عشرين اسما أشهرها :

الفاتحة و فاتحة الكتاب ؛لأن الكتاب الكريم قد افتتح بها.

وأم القرآن و أم الكتاب ؛ لأنَّ معاني القرآن كلها مندرجة فيها ، فهي الأصل.

والحمد ؛ لأنها ابتدئت بحمد الله تعالى.

والسبع المثاني ؛ لأنها اشتملت على سبع آيات تثنى وتكرر في كل صلاة.

أهميتها: وتتضح أهمِّية هذه السورة في عدم صحة أية صلاة بدونها و في تكرارها في كل ركعة، قال ﷺ : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب). أخرجه

الجماعة إلا الموطأ. وقال ﷺ : (كل صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج [1]).
رواه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي.

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل؛

يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدني عبدي.

يقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الرب: أثنى علي عبدي.

يقول العبد: مالك يوم الدين، يقول الله: مجدني عبدي.

يقول العبد: إياك نعبد، وإياك نستعين،. يقول الله عز وجل : هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل)). حديث قدسي رواه مسلم عن أبي هريرة.

وواضح من سياق الكلام أن (الصلاة) في الحديث القدسي أريد بها قراءة الفاتحة فيها، لما بين الصلاة والقراءة من تلازم.

1- يقال في اللغة العربية : خدِج الشيء، خداجاً :نقص، وأخدج صلاته أو أمره : لم يتقنه.

البسملة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هل هي آية من سورة الفاتحة ؟ في ذلك خلاف بين العلماء، فمنهم من يرى أنها آية منها كالإمام الشافعي –رحمه الله–، ومنهم من يرى أنها ليست آية منها كالإمام مالك –رحمه الله– وأدلة الفريقين مبسوطة في المطولات لا يحتملها هذا التفسير المختصر.

والكل مجمعون على أنها من القرآن، فهي جزء من الآية الثلاثين من سورة النمل ﴿...**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علي واتوني مسلمين**﴾ الآيتان 30-31.

والكل أيضا مجمعون على أن الفاتحة تشتمل على سبع آيات، غير أن من يرى كونها آية منها يعدها الآية الأولى، و الآية السابعة تبتدئ بقوله تعالى:﴿...**صراط الذين أنعمت عليهم** ... إلى: **ولا الضالين**﴾ ، أما الذي لا يعدها آية فالآية الأولى عنده هي ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ ، وقوله تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ آية مستقلة، وقوله تعالى : ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ هي الآية السابعة.

ولما كان من عادة العرب أنهم ينحتون من ألفاظ الجملة التي يكثر تداولها اسما يدل عليها باختصار فقد نحتوا من (**بسم الله**) لفظ البسملة ليدل على الجملة

بكاملها،كما نحتوا من(سبحان الله) السبحلة، ومن (حي على الصلاة) الحيعلة، ومن (لا حول ولا قوة إلا بالله) الحوقلة، ومن (الحمد لله) الحمدلة، ومن (لا إله إلا الله) الهيللة. الخ...

ويروى أن النبي ﷺ كان قبل نزولها يبتدئ أعماله بقوله (باسمك اللهم)، فلما نزل قوله تعالى في سورة الإسراء :﴿**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن**﴾ الآية 110، صار يبتدئ أعماله بقوله (بسم الله الرحمن) فلما نزلت البسملة التي في سورة النمل تحول إليها وأمر أصحابه بها.

والباء في (بسم الله) للملابسة، ومثلها الباء في قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ **وشجرة تخرج من طور سيناء تَنبت بالدهن وصبغ للآكلين** ﴾الآية 20، وفي سورة البقرة ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم**﴾ الآية 206.

وفي قول العرب (بالرِّفاء والبنين)[1].

والاسم: اللفظ الدال على ذات من الذوات أو معنى من المعاني.

و(الله) عَلَم على الخالق الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، المستحق وحده للعبادة ﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السموات والأرض.والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون، قل أفغير الله تأمروني**

1- الرفاء: الالتئام والوفاق، وهي من تماني الجاهلية عند الزواج، وقد أبدلها الرسول ﷺ بتهنئة إسلامية هي : (بارك الله لكما، وبارك عليكما، وجمع بينكما في خير) رواه الترمذي.

أعبد أيها الجاهلون، ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد، وكن من الشاكرين﴾ سورة الزمر 62-66.

والفرق بين مدلول (الله) و (الإله) أن (الله) يدل على المعبود بحق وأن (الإله) يدلُّ على كل معبود سواء أَبِحَق عُبد أم بباطل، وشواهد ذلك قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿**أرآيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا**﴾ الآية 43، و قوله في سورة الأنبياء: ﴿**أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحن الله رب العرش عما يصفون** ﴾ الآية 22.

ومتعلق الجار والمجرور (بسم الله) محذوف، يقدر فعلا أو اسما بحسب العمل الذي يريده المُبسمل، كقولك: أقرأ بسم الله، أو أصعد بسم الله، أو قراءتي بسم الله، أو صعودي بسم الله الخ...

والسر في حذف المتعلَّق أن تكون (بسم الله) صالحة لابتداء كل فعل وكل قول.

و تكرارها المطلق في الأذكار غير مشروع، بخلاف الحمدلة والسبحلة ونحوهما لعدم الدليل الشرعي على ذلك ولحاجة البسملة إلى مُتعلَّق.

و من أحكام البسملة أنه يفتتح بها الأمر ذو البال لا غيره، للحديث المشهور الآتي ذكره، وهي واجبة عند الذبح والصيد، ومندوبة عند الشروع في

بعض العبادات كالوضوء والعادات كالأكل والشرب ونحوهما، والضابط في ذلك أنها تشرع في كل أمر محمود يقره الشرع ويبيحه، وتكره فيما يكره، وتحرم فيما يحرم شرعاً.

﴿ الرحمن الرحيم ﴾

وصفان دالان على اتصاف الله تعالى بالرحمة الواسعة الشاملة، والرحمة – بالنسبة للإنسان – رقة يجدها في قلبه تدفعه إلى الإحسان إلى من سبب له هذا الانفعال، وهي في حق الله صفة تليق بجلاله و كماله، ومن آثارها: اللطف بعباده، وإغداق نعمه عليهم.

والفرق في المعنى بين الصفتين يحتمل وجوها:

من هذه الوجوه : أن الصفة الأولى : تدل على الرحمة العظيمة الشاملة، وأن الصفة الثانية : تدل على دوام الرحمة وعدم انقطاعها.

ومنها : أن الأولى تدل على عظائم الرحمة، وأن الثانية تدل على دقائقها.

ومنها : أن الأولى تدل على اتصافه تعالى بها، وأن الثانية تدل على إيصالها لمستحقيها.

وهل يسمى بهذين الاسمين غير الله تعالى؟

أما اسم (الرحمن) فهو مختص بالله تعالى لا يسمى به غيره، وأما اسم (الرحيم) فيصح أن يوصف به غيره وقد وصف الله نبيه محمدا ﷺ بصفة الرحيم في سورة التوبة: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنِتّم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾الآية 128.

والبسملة تشتمل على قاعدتين من قواعد التصور الإسلامي :

القاعدة الأولى : أن الله ﷻ هو الوحيد الذي يستمد منه المسلم توفيقه إلى الصواب،وإعانته على الأعمال ومباركتها وقد تظاهرت النصوص الشرعية على ذلك. منها قوله تعالى في سورة العلق : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ الآية1،وفي سورة الحج: ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صواف...**﴾ الآية 36، وفي سورة هود :﴿ **وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرسيها...**﴾ الآية 41 **الخ...**

ومنها قوله ﷺ (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ (باسم الله الرحمن الرحيم) فهو أبتر. وفي رواية :أقطع. وفي رواية :أجذم[1] .الخ...) رواه ابن ماجه.

وهذه القاعدة تناقض ما كانت عليه الجاهلية الأولى من قولهم : باسم هبل، أو اللات، أو العزى؛ كما تناقض ما عليه بعض سفهاء المسلمين الآن من قولهم :

1 – الأبتر: الحيوان المقطوع الذنب. والأقطع: مقطوع اليد. و الأجذم: المقطوع اليد أو الأنامل والمراد هنا أنه ناقص البركة.

-باللسان الدارج- « نو الحرث بلا جميل على ربي » استغناء منهم عن الاستعانة بالله، وكقولهم : (بلا...[1] تفعل هذا الشيء).إلى آخر الحماقات الجاهلية، والظاهر أن هذه من ألفاظ الردة، والعياذ بالله.

القاعدة الثانية : أن علاقة الخالق بمخلوقاته علاقة رحمة، وليست علاقة غلظة وقسوة، وذلك ما يوجب حبه وتعظيمه والتفاني في طاعته ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم و الله غفور رحيم.قل أطيعوا الله والرسول،فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ سورة آل عمران 32.

وإذا كانت الرحمة من صفات الله ﷻ فما أجدر المسلمين أن يتصفوا بها فيكونوا رحماء فيما بينهم، ليظهروا على الصورة التي رسمها الله لهم في سورة الفتح: ﴿**محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم..**﴾ الآية 29.

1- والمقصود من هذا الشيء ما يتلفظ به بعض الحمقى من قولهم والعياذ بالله ((بلا ربك تفعل هذا الشيء).

﴿الحمد لله﴾

(الحمد) : مصدر حمده يحمده: إذا أثنى عليه وذكره بخير، والعبد حامد،والمعبود محمود.

فالحمد :الثناء بالجميل على فعل الجميل، ونقيضه الذم، يقال ذمه - يذمه فهو ذام، وذاك مذموم.

وكل من أسدى إليك نعمة استحق منك أن تحمده عليها، وفي مقدمة أولئك الأبوان والأساتذة ثم بقية المحسنين،

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((**من لم يحمد الناس لم يحمد الله**)) وفي رواية ((**من لا يشكر الناس لم يشكر الله**)) رواه الترمذي.

وهؤلاء المحسنون إنما ينعمون عليك بما أنعم الله به عليهم أيها الإنسان، فالله ﷻ هو المصدر الوحيد لكل النعم، كما جاء في سورة النحل:﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون**﴾ الآية53.

ومن ثم فإن حمدنا للمحسنين إنما هو بالنظر إلى أن الإحسان أجراه الله على أيديهم فحسب.

أما الحمد الحقيقي الكامل فيجب التوجه به إلى خالق هذه النعم التي غمر بها الإنسان: ﴿**إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ سورة الذاريات 58، وهذا ما تفيده (الـ) الجنسية في كلمة (الحمد) وما تفيده لام الاستحقاق في كلمة (لله).

أخبرنا الله ﷻ باستحقاقه التام للحمد بواسطة هذه الجملة الاسمية الدالة على الدوام كما جاء في سورة القصص: ﴿ **وله الحمد في الأولى والآخرة**﴾الآية70، وفي سورة الشورى: ﴿ **وهو الولي الحميد** ﴾الآية 28، وفي الوقت نفسه عَلَّمنا كيف نحمده كلما ذكرنا أنعمه، فكأنه قال لنا قولوا:الحمد لله.

ومما يدل على مكانة الحمد عند الله أنه افتتح به هذه السورة،وعدداً من السور هي:

- الأنعام: ﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور..**﴾.

- الكهف: ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجا ...**﴾

- سبأ: ﴿ **الحمد لله الذي له ما في السموات و ما في الأرض، وله الحمد في الآخرة...**﴾

- فاطر: ﴿ **الحمد لله فاطر السموات و الأرض...**﴾.

ومن أجل هذه القيمة العظيمة (للحمد) عند الله سبحانه، نصحنا رسول الله ﷺ بقوله: ((كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع))، وفي رواية أخرى : ((كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم)) رواه البيهقي في السنن،

وذلك لأن حمد الله عنوان شكر النعمة والاعتراف بها، والكف عنه عنوان جحودها وكفرانها.

وإذا كان شكر النعمة يستوجب المزيد منها فإن كفرانها يستلزم سلبها قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿**وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾ **الآية**7.

جاء في رواية عن ابن عباس ﷺ أنه قال "**الحمد لله كلمة كل شاكر**" رواه ابن أبي حاتم. ويبدو لنا صدق هذه المقولة حين نستعرض بعض آيات القرآن الكريم في موضوع شكر النعمة.

جاء في شأن نوح عليه السلام :﴿ **فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين** ﴾ سورة المؤمنون 28.

وفي شأن إبراهيم عليه السلام ﴿ **الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربي لسميع الدعاء** ﴾ سورة إبراهيم 39.

وفي شأن داود وسليمان عليهما السلام ﴿...**وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ سورة النمل 15.

وفي شأن محمد عليه السلام ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا**...﴾ سورة الإسراء111، ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره** ﴾ سورة النصر.

وفي شأن المؤمنين المتقين ﴿ **التائبون العابدون الحامدون...**﴾ سورة التوبة 112.

وفي شأن أهل الجنة ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا...**﴾ سورة الأعراف الآية 34، ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. إن ربنا لغفور شكور**﴾ سورة فاطر 34، ﴿**وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ سورة يونس 10.

ماذا نستنتج من كل ذلك؟

نستنتج أن حمد الله أولا وآخراً هو قاعدة أصيلة من قواعد التصور الإسلامي، وعلى عكس ذلك التصور الجاهلي الذي أطلعنا القرآن الكريم على بعض نماذجه في الأفراد والجماعات، قال تعالى – حكاية للمحاورة التي دارت بين قارون وناصحيه: ﴿ **...إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ – فيما آتاك الله – الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، و لا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال: إنما أوتيته على علم عندي** ﴾ سورة القصص الآيات 76 – 78.

وقال الله تعالى – ضمن الحوار الواقع بين فرعون وموسى عليه السلام: ﴿ **... قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾ سورة الشعراء 29.

وقال تعالى في شأن عاد: ﴿ **فأما عاد فاستكبروا في الأرض، وقالوا من أشد منا قوة؟**﴾... سورة فصلت 15.

وقال تعالى في شأن المشركين العرب ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن، قالوا وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ و زادهم نفورا** ﴾ سورة الفرقان 60.

وكيف نحمد الله ؟

نحمده بقلوبنا بأن نعترف له وحده بأنعمه علينا، ونحمده بألسنتنا بلفظ «الحمد لله» ولا مندوحة عن حضور القلب حين الذكر باللسان حتى لا نتشبه بمن يقول الله فيهم ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم.**﴾ سورة الأنبياء 3.

وللحمد فضل عظيم وردت به أحاديث كثيرة منها : ما أخرجه أحمد والنسائي والحاكم و صححه، والبخاري في الأدب المفرد عن الأسود قال : قلت يا رسول الله :**ألا أنشدك محامد حمدتُ بها ربي تبارك وتعالى**؟ قال: ((أما إن ربك يحب الحمد))، ومنها : ما أخرجه ابن ماجة والبيهقي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ))، و قال المهدي ابن جعفر المنصور: أقل ما يجب للمنعم ألا يُتقوَّى بنعمته على معصيته.

﴿ رب العالمين ﴾

الربُّ : المالك المتصرف في الأشياء بالإصلاح والتربية يقال :ربه يربه ربا فهو راب وذاك مربوب وربيب، وفي المؤنث ربة أو مربوبة وربيبة، كما يقال: رباه يربيه تربية فهو مُربٍّ وذاك مُربىً.

ولفظ (رب) إذا نكر أو أضيف يطلق على الله وغيره.

ومن أمثلة التنكير قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ ...**بلدة طيبة، ورب غفور**﴾ الآية 15 ،والمراد بالرب هنا الله ﷻ.

وقوله تعالى في سورة يوسف حكاية لما قاله يوسف عليه السلام للفتيين اللذين دخلا معه السجن: ﴿ **ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟**﴾ **الآية**39، وواضح هنا أن الأرباب المذكورين غير الله ﷻ وقال الشاعر :

أَربٌّ يبول الثعلبان برأسه؟ لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

ومن أمثلة الإضافة قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ **وهو رب العرش العظيم**﴾ **الآية** 129، وبديهي أن المراد بالرب هنا هو الله ﷻ وقوله تعالى في سورة يوسف حكاية لما قاله يوسف عليه السلام لرسول عزيز مصر إليه : ﴿**ارجع إلى ربك فاسأله...**﴾**الآية** 50، وواضح هنا أن المقصود بالرب غير الله وهو عزيز مصر.

أما إذا كان لفظ (الرب) معرفا بـ (الـ) فـلا يطلـق إلا عـلى الله ﷻ، جـاء في صحيح مسلم قوله ﷺ:((...أما الركوع فعظموا فيه الرب ...))

﴿**العالمين**﴾: جمع مذكر سالم مفرده : عالم، وهو كل صنف من مخلوقـات الله يقال :عالم الإنس، عالم الملائكة، عالم الجن، عـالم الحيـوان، عـالم النبـات ...الـخ، وجاءت هذه التسمية من حيث إنها أعلام على وجود خالقها.

وفي وصفه تعالى -بأنه رب العالمين -رد على الفلاسـفة الـذين يزعمـون أن الله أوجد هذا الكون، ثم لم يعد يهتم به، لأنه أرقى من أن يفكر فـيما دونـه قـال الله تعالى: ﴿ **وما كنا عن الخلق غافلين** ﴾ سـورة المؤمنـون 17. وفيهـا أيضـا رد عـلى الذين يتخذون أربابا من البشر، قال تعالى:﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا مـن دون الله والمسيح بن مريم....**﴾ سورة التوبة 31.

وربوبية الله لجميع الخلائق قاعدة أخـرى مـن قواعـد التصـور الإسـلامي، وتوحيد الله في ربوبيته يعني توحيده في الخلـق و الـرزق والملـك والحكـم والنفـع والضر والإحياء والإماتـة،ومن الشرـك اعتقـاد أن لله شريكـاً في هـذه الصـفات، ويستلزم توحيد الله في ربوبيته توحيده في ألوهيته أي إفراده بالعبادة.

﴿ الرحمن الرحيم ﴾

يقال في هذين الوصفين ما قيـل فـيهما في تفسـير البسـملة. والحكمـة التـي تتراءى من إلحاق وصف الرحمة بوصف الربوبية أن تربية الناس، والسـير بهـم إلى

الكمال الجثماني، والكمال الروحاني، قد تكون بالإعنات والتكليف بما هو شاق جدا، فأفاد أن هذه التربية موسومة بالرحمة التامة الشاملة الدائمة، وكما أن كلمة (الرب) المعرفة بـ(الـ) لا يسمى بها غير الله فكذلك كلمة (الرحمن)، والرحمة من الصفات المحبوبة إلى الله ﷻ، ولذلك جاء وصفه بها في غير ما آية من القرآن الكريم، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة، ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم** ﴾ الآية 54، وفي سورة غافر : ﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وقهم عذاب الجحيم...** ﴾ الآية 7، وفي سورة المؤمنون :﴿ **وقل رب اغفر و ارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ الآية 118.

ومن هم القريبون من رحمة الله، المستحقون لها على الدوام ؟

إنهم الذين أخبر الله عنهم في سورة الأعراف حيث يقول : ﴿ **إن رحمت الله قريب من المحسنين** ﴾ الآية 56، وهم الذين أحسنوا في اعتقاداتهم وعباداتهم، وتعاملهم مع غيرهم.

أين تظهر رحمة الله بمخلوقاته ؟

أ- تظهر في العناية الفائقة بمخلوقاته في مراحل تكوينهم الأول: ﴿ **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك، لا إله إلا هو، فأنى تصرفون ؟** ﴾ سورة الزمر 6.

ب – وفي النعم المتواترة عليهم: ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات و ما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة** ﴾ سورة لقمان 20، و قال تعالى ﴿ **و ما بكم من نعمة فمن الله**﴾ سورة النحل 53.

ج – في الهداية السماوية للإنسان ﴿ **وما أرسلنك إلا رحمة للعالمين** ﴾ سورة الأنبياء 107.

﴿ مـلك يوم الـدين﴾

وفي قراءة ﴿**مالك**﴾ وكلتا هما قرأ بها النبي ﷺ،والفرق بينهما أن «الملك» من له السلطة على الناس، وتدبير شؤونهم، وقد تزاد فيه الياء فيقال(مليك) ﴿...**في مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ سورة القمر 55.

والمالك هو الحائز للشيء المختص به.

والملك الحقيقي – بمعنييه – إنما هو لله ﷻ، وإذا أسند إلى الناس فعلى سبيل المجاز وهو مباح، قال الله تعالى –في سورة البقرة: ﴿ **إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا**﴾ الآية 247، وفي سورة النمل: ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها...**﴾ **الآية** 34، وفي سورة يس: ﴿...**فهم لها مالكون**﴾ الآية71، ويشهد للقراءة الأولى قوله تعالى في سورة الناس :﴿ **ملك الناس** ﴾ وفي سورة الحشر: ﴿...**الملك القدوس**﴾ ويشهد للقراءة الثانية قوله تعالى في سورة آل عمران :﴿**قل اللهم مالك الملك...** ﴾الآية 26.

﴿ يــوم الــديــن ﴾

يوم الدِّين، معروف وهو اليوم الآخر ولا يعلـم مبـدأه إلا الله، ضرورة أنـه هو الذي يأذن بقيامه قال تعالى : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيـان مرسـيها؟ قـل إنـما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السموّات و الأرض، لا تـأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها. قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر النـاس لا يعلمون**﴾ سورة الأعراف 187.

ولا نهاية لليوم الآخر ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نـار جهنم خالدين فيها...**﴾ سورة البينة.

وكما جاء في الحديث الشريف بشأن النداء الذي يوجـه إلى أهـل الجنـة وإلى أهل النار بعد استقرار كل في مثواه المهيأ له ((... يا أهل الجنـة خلـود فـلا مـوت، ويا أهل النار خلود فلا موت)) رواه البخاري ومسلم والترمـذي وأحمـد، نسـأل الله تعالى أن يجعلنا من الخالدين في الجنة، وأن ينجينا من عذاب النار بمنِّه وفضله.

والمراد بالدين هنا الحساب و الجزاء على الأعـمال، فيـوم الـدين معنـاه يـوم الحساب و الجزاء.

وقد جاء التعبير بمادة الدين أو ما اشتق منها مرادا بها الحساب و الجزاء في غير سورة الفاتحة، كقوله تعالى في سورة النور﴿**يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق**﴾، الآية 25.

وفي سورة الصافات ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمدينون؟** ﴾ الآية53.

وقال ﷺ : (الكيِّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت...) رواه الترمذي وابن ماجه.

ولم تخصيص ملكه - تعالى - بيوم الدين مع أنه الملك والمالك في الدنيا والآخرة؟والجواب أنه لا ملك يظهر لغيره في ذلك اليوم بخلاف الدنيا، قال الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم...**﴾ الآية94.

وفي الآية رد على منكري البعث وما بعده من حساب فجزاء ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاما و رفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا...؟**﴾ سورة الإسراء 49.

الإيمان بيوم الدين من العقائد الإسلامية الراسخة وثمرة الإيمان به الاستعداد له بالعمل الصالح.

جاء في الأثر : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، فقيل ما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال : (الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل حلوله).

ما علاقة هذه الآية بالآية التي قبلها ؟

وصف الله تعالى نفسه بالرحمة قد يغتر به بعض الناس فينهمكون فيما حرمه الله عليهم، ويفرطون فيما أمرهم به، اتكالاً على رحمته الواسعة، فحذرهم بأن هنالك يوماً تحاسب فيه كل نفس بما كسبت، وتلقى جزاءها إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، وذلك هو أسلوب الترغيب و الترهيب الذي يستعمله القرآن لتربية النفوس والوصول بها إلى ما قدر لها من الكمال الإنساني، حتى إذا لم يجد مع الإنسان هذا الأسلوب انقطعت حجته غدا أمام علام الغيوب.

ومن أمثلة هذا الأسلوب في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الحِجر: ﴿**نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم**﴾الآية 50. وفي سورة الأعراف:﴿ **إن ربك لسريع العقاب،وإنه لغفور رحيم**﴾ الآية165، وفي سورة الزلزلة: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾.

- وما علاقة هذه الصفات الثلاث (ربوبية الله للعالمين، ورحمته بهم ، وملكه في يوم الدين) بحمده وشكره؟

و الجواب أن هذه الصفات تكشف لنا عن أسباب استحقاقه ﷻ للحمد، وأن من لم يفقهها لم يحمده حق حمده كما هو المطلوب.

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾

إيا : ضمير منفصل، يفسر المراد منه الحرف الذي يأتي بعده، (ياء المتكلم – كاف المخاطب – هاء الغائب).

نعبد : فعل مضارع لـ عبد، يقال :عبد الله، يعبده، والأمر منه : اعبد، فالمؤمن عابد، والله معبود، وله مصدران : العبادة و العبودية، وبين الصيغتين فرق في المعنى :

فالعبادة هي : غاية التذلل والخضوع مع تمام المحبة في مقابل غاية الإفضال والإحسان، و **العبودية** دونها؛ فهي إظهار التذلل و الخضوع وكفى، ولهذا يمكن أن تنسب إلى غير الله؛ فيقال: عبدُ فلان ، عبدُ الدنيا الخ...

وعبادة الله وحده هي المطلوب الأول من الإنسان، ضرورة أنه خلق من أجلها، كما قال تعالى في سورة الذاريات: **﴿ وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون﴾ الآية** 56، ولذا كانت المطالبة بها على سبيل الحصر في غير ما آية، ومنها هذه الآية التي نحن بصددها، ومنها قوله تعالى في سورة الإسراء : **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، و بالوالدين إحسانا ﴾** الآية 23، وقوله تعالى في سورة البينة: **﴿ و ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء...﴾** الآية 5، و لهذا كانت المطالبة بها على سبيل الدوام.

قال الله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ :﴿ **واعبـد ربـك حتـى يأتيـك اليقـين** ﴾ سـورة الحجر 99.

والتعبير بـ "**إياك**" هكذا على سبيل الحصر يعني التبرؤ التام من الشرك والمشركين، والانخراط في زمرة الموحدين.

أركان العبـــادة

للعبادة أركان ثلاثة :

1. الإيمان وهو شرط في وجودها و صحتها.
2. الإخلاص .
3. موافقة الشرع، وهما شرطان في صحتها وقبولها قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ **...فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ الآية 105، فلا يعبد إلا الله، ولا يعبد الله إلا بما شرعه لعباده.

بعض مظاهر الشرك

من مظاهره :

أ - **عبادة الشيطان** : قال تعالى في سورة يس :﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان** ﴾الآية 60، وذلك باتباع ما يزينه للناس من سوء الأعمال والأقوال وباطل الاعتقاد.

ب - **عبادة الهوى** : وهو ما تميل إليه النفس مما يخالف الشرع، وهو أخطر معبود في الوقت الحاضر قال تعالى: ﴿ **أفرآيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم...**﴾ سورة الجاثية 22.

ج - **عبادة الملائكة والجن** : قال تعالى:﴿ **ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة : أهولاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ سورة سبأ 41.

د - **عبادة الشمس و القمر**: قال تعالى حكاية لقول الهدهد: ﴿ **إني وجدت امرأة تملكهم... وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** ﴾ سورة النمل 23-24، ﴿ **ومن آياته اليل و النهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن، إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ سورة فصلت 36.

هـ - **عبادة النار** ، كالمجوس.

و - ومنهم من **يعبد البقر** كالهندوس. ومن **يعبد الحجر** كالعرب في جاهليتهم.

علمنا الله ﷻ أن نعبده وحده ولم يذكر لنا ما نعبده به، والحكمة في ذلك قصد التعميم، بحيث تشمل العبارة كل ما تعبدنا به الله من أفعال وأقوال فنؤديها

(كالصلاة و الحج و الأمانة والصدق) ...الخ، ومن تروك فنجتنبها كترك الخمر والميسر والرياء والظلم...الخ.

﴿ نستعين ﴾

نستعين: مضارع استعان، و الأمر منه استعن، ومصدره الاستعانة.

فالعبد مستعين بالله، والله مستعان به، قال الله تعالى في سورة يوسف حكاية لقول يعقوب عليه السلام: ﴿ **والله المستعان على ما تصفون** ﴾ **الآية** 18، والسين والتاء في " نستعين" للطلب، أي نطلب منك العون على إتمام العمل الذي نعجز عن الاستقلال به، فالاستعانة إنما تكون بعد الشروع في العمل.

كيف نوفق بين حصر الاستعانة في الله عز وجل (بواسطة أسلوب الحصر، وهو تقديم المفعول به على فعله) وبين دعوة الله إيانا للتعاون فيما بيننا؟ قال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ سورة العقود (المائدة) 3.

الاستعانة المحصورة في الله تعالى هي الاستعانة به فيما يعجز عنه البشر كالفلاح يحرث أرضه، ويزرعها، ويتعهدها بالسقي و الرعاية، ثم يستعين بالله على إنباتها نباتا حسنا، وحفظها من الآفات الضارة، وكالمجاهدين يعدون العدد للقاء العدو ثم يستعينون بالله في الثبات في المعترك، وتحصيل النصر...

واستعانة المؤمن بالله تعني تبرؤه من حوله وقوته الذاتية؛ فهو يقر بعجزه عن التحول من حال إلى حال، وبعدم قدرته على شيء إلا بإقدار الله إياه على ذلك.

علَّمنا الله ﷻ أن نستعين به وحده، ولكنه لم يعين لنا الأشياء التي نستعين به عليها، والمفهوم من ذلك قصد التعميم بحيث يشمل كل أمر يقتضي الاستعانة.

- وما الحكمة في استعمال ضمير الجماعة في (نعبد ونستعين) مع أن العابد والمستعين قد يكون واحدا؟

هي الإشعار بوَحدة الموحدين، ولتكون عبادة الواحد مدرجة في عبادة الآخرين عسى أن تقبل، وللترغيب في الانضمام إلى الجماعة، كما قال رسول الله ﷺ : (**عليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**) رواه أبو داود والنسائي.

ولم كرر لفظ ((إياك)) في الجملتين؟ للإشعار بأن كلا منهما مقصود بذاته.

الربط بين هذه الآية و الآيات التي قبلها:

هو أن تأمل المؤمن في الصفات الإلهية السابقة (ربوبيته للعالمين -رحمته الواسعة بهم- التصرف المطلق له وحده في يوم الدين) يثير قلبه إلى استحضار الله أمامه فيتوجه إليه، وهذا هو مقام الإحسان الذي أخبر النبي ﷺ به جبريل بعد أن

سأله عنه -فيما سأل-(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.

هذا الاستحضار ثم التوجه إلى مخاطبته تعالى هو السر من وراء استعمال الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين**﴾، كما هو معروف في علم البلاغة.

والقرآن الكريم مليء بهذا الفن الجميل الذي ينشط الذهن، وينبهه إلى بعض المقاصد المهمة، كالالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى (وهو عكس ما في هذه الآية): ﴿ **...حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف** ﴾ سورة يونس 22.

ومن الغيبة إلى التكلم في قوله تعالى : ﴿ **والذي أنزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا...**﴾ سورة الزخرف 10.

وإذا تصورنا أن هذه الآية الكريمة هي خلاصة الإسلام فلن نخطئ الصواب، وقد قال علماؤنا ﷺ: إن سر الإسلام يتجلى في القرآن الكريم، وسر القرآن الكريم يرتكز في فاتحته، وسر الفاتحة يتلخص في هذه الآية الكريمة ﴿**إياك نعبد، وإياك نستعين**﴾.

ويتضح لنا معنى ما يقوله العلماء حين نعلم أن العبادة هي الخضوع لله في أوامره و نواهيه، وأن الاستعانة به تعني التعبير عن احتياجنا إليه، والتوكل عليه في كل شأن من شئون الحياة، وهذا ما جاء به الإسلامَ مفصلاً في القرآن الكريم، ومبيناً على لسان الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام.

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

اهد : فعل يدل على طلب الهداية جاء في صيغة الأمر، وعلى سبيل التأدب مع الله ﷻ يعربه النحاة : فعل دعاء وهو مبني على حذف الآخر الذي هو الياء لأن مضارعه يهدي بإثباتها. و **مصدره** : الهداية.

والهداية : الدلالة -بلطف- على ما يوصل إلى المقصود؛ فمن قبلها فقد اهتدى ومن أعرض عنها فقد ضل سواء السبيل **﴿ ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾** سورة الإسراء 15.

تنبيه: ويجب التنبيه هنا إلى اللحن الذي يقع فيه بعض الناس وهو فتح همزة (اهد) فينقلب المعنى من طلب الهداية الذي يدل عليه أمر الثلاثي (هدى - يهدي - اهد) إلى طلب الهدية الذي يدل عليه أمر الرباعي (أهدى - يهدي - أهد)، وفقهاؤنا يقررون أن اللحن الذي يغير المعنى مبطل للصلاة.

والفعل (هدى) يتعدى إلى مفعولين مباشرة كما هو هنا، (نا) مفعول أول و(الصراط) مفعول ثان. ومثله قوله تعالى في سورة البلد **﴿ وهديناه النجدين﴾**

الآية 10، وقد يتعدى إلى المفعول الثاني بواسطة (إلى) أو (اللام) : كقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ ...**فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ الآية 23، وكقوله في سورة الأعراف: ﴿... **الحمد لله الذي هدانا لهذا** ﴾الآية 42، وقد يحذف المفعول الأول للعلم به، كقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾ الآية 49، تقديره : تهدي الناس، كما يحذف المفعول الثاني للعلم به أيضا كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾ الآية 56، أي : إلى الإسلام أو الإيمان، وقد يحذف المفعولان معا كقوله تعالى في سورة الضحى: ﴿**ووجدك ضالا فهدى** ﴾ الآية 7، أي هداك إلى الإسلام.

الصراط : الطريق، و**المستقيم**: ضد المعوج، والطريق المستقيم هو أقصر-طريق يضمن الوصول إلى المطلوب.

و ما المراد بالصراط المستقيم ؟

استعير هذا اللفظ للدلالة على الإسلام الشامل للعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق كما قال تعالى:﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ سورة البقرة 206، ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه**﴾ سورة الأنعام 153، ﴿..**وأن اعبدوني؛ هذا صراط مستقيم...**﴾ سورة يس 61.

كيف يطلب المؤمن الهداية من ربه في كل وقت وهو متصف بها ؟ إنه يطلب هداية خاصة، ولتوضيح الجواب، هنالك أنواع خمسة من الهداية :

1 – هداية الوجدان الطبيعي، والإلهام الفطري : وهي المفهومة من قوله تعالى ﴿...**قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى**﴾ سورة طه 49، ﴿**والذي قدر فهدى**﴾ سورة الأعلى3.

2 – هداية الحواس والمشاعر :وهي المفهومة من قوله تعالى: ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ سورة النحل 78.

3 – هداية العقل : وهي المفهومة من قوله تعالى:﴿ **إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** ﴾ سورة الزخرف2، و قوله تعالى في سورة الرعد:﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ الآية 21.

4 – هداية الدين : وهي المفهومة من قوله تعالى :﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ...﴾ سورة الشورى 49.

5 – هداية التوفيق إلى الخير، والتثبيت عليه : وهي المقصودة هنا والله أعلم؛ ومثلها في قوله تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾ سورة العنكبوت 69، وفي قوله: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ سورة يونس 9، فالعبد محتاج إلى ربه في كل وقت أن يثبته على طريق

الحق حتى لا يزيغ به هواه فيكون كالذين ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾سورة الصف 5.

ومما يجدر الانتباه إليه أن من أكبر نعم الله على الإنسان هداية الوجدان والحواس والعقل والدين، فمن استجاب واهتدى استحق النعمة الكبرى، وهي هداية التوفيق فنجح وفاز في الدارين، ومن أعرض رغم ذلك حُرم هداية التوفيق واستحق الخذلان وطمس البصيرة، عياذا بالله.

وصدق الله في قوله:﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** ﴾ سورة النمل 24، و في قوله تعالى: ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، و لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث...**﴾ سورة الأعراف 176.

ومما يستحسن ذكره في هذا المقام ما رواه النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ضرب الله مثلاً صراطا مستقيما، وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا [1] و داع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا

1- لا تعوجوا: لا تميلوا عنه.

تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه؛ فالصراط: الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم)) رواه أحمد والنسائي.

علَّمنا الله – ﷻ – أن نطلب منه الهداية بعد أن علمنا أن نثني عليه ونستعين به وحده لأن الهداية هي أهم شيء يطلبه الإنسان من خالقه أن يعينه على بلوغه.

ولعل الحكمة في ذلك أن أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله[1] قبل أن يسأله حاجته؛ لأن ذلك أدعى لتحقيق الحاجة، فمن أجل ذلك أرشدنا الله تعالى إلى أن نثني عليه أولا، وإلى أن نخلص له عبادتنا ونخصه باستعانتنا إياه ثانيا، ثم إلى أن ندعوه ثالثا، وقد اقتفى السائلون هذا الأدب الإلهي منذ القدم؛ فهم يقدمون الثناء على الله ﷻ قبل دعائهم إياه كما يختمون الدعاء بالثناء عليه أيضا تشبها بأهل الجنة الذين أخبرنا الله عنهم بقوله: ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام،وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ سورة يونس 10.

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾

صراط : بدل من **(الصراط)** قبله.

1 – الشائع أن الهمزة في مثل هذه الكلمة تكتب فوق الواو ، و لعل الأصوب أن تكتب فوق النبرة عملا بالقاعدة.

وما فائدة البدل ؟ هي الزيادة في مـدح الصرـاط مـن طريـق التفصـيل بعـد الإجمال.

أنعمت عليهم : يقال أنعم الله على فلان بكذا : أحسن إليه بـه، فالإنعـام : إيصال الخير إلى العقلاء ، فلا يقال -مثلا- أنعم على فرسه أو حماره...

ومن هم الذين أنعم الله عليهم ؟

هم المذكورون في سورة النساء عند قوله تعالى:﴿ **ومـن يطـع الله والرسـول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشـهداء والصـالحين، وحسن أولئك رفيقا** ﴾ الآية 69.

وبم أنعم الله عليهم؟ بهدايتهم إلى الحق، وتثبيتهم عليه، وتشرـيفهم بـدعوة الناس إليه، ثم برضاه عنهم.

وما الحكمة في ذكرهم لنا ؟

هي أن نـقتدي بهم، ونتأسى بسيرتهم كما قال تعالى في حق نبينـا محمـد ﷺ في سورة الأنعام:﴿...**أولئك الذين هدى الله، فبهداهم اقتـده** ﴾الآيـة90، وكـما قـال تعالى في حقنا -معشر المؤمنين- في سورة الممتحنة:﴿**قد كانت لكـم إسـوة حسـنة في إبراهيم والذين معه؛ إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبـدون مـن دون الله كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بـالله وحـده...**﴾

الآية4، وفي سورة الأحزاب:﴿ **لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ الآية21.

ولم دعانا الله ﷻ إلى الاقتداء بهم ؟

ذلك لنعمل مثل ما عملوا، فنستحق مثل ما استحقوا.

ودليل ذلك في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿**سلام على نوح في العلمين.إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ الآيتان 79-80.

ويقول أيضا: ﴿ **سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين** ﴾ الآيتان109و110.

و يقول أيضا: ﴿...**سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾ الآيتان 120و121.

و يقول أيضا: ﴿**سلام على آل ياسين.إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ الآيتان 130و 131.

ولم أمَرَنا الله ﷻ بالاقتداء بمن سبقونا وشرائعُهم غير شريعتنا ؟

كل الشرائع متفقة في الأصول كالإيمان بالله واليوم الآخر، والتوجه إليه وحده بالعبادة، ونبذ الشرك والمشركين، وفعل الخير وترك الشر، والخلاف إنما هو في بعض الفروع فما اتفق منها مع شريعتنا فهو شرع لنا وفق القاعدة الأصولية : « **شرع مَن قَبلنا هو شرع لنا ما لم يخالف شرعنا** »، قال تعالى في سورة الشورى:

﴿شرع لكم من الدِّين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه، كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب﴾ الآية 13، وقال تعالى في سورة العقود: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا...﴾ الآية 48.

﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

غير : بدل من الاسم الموصول المجرور (الذين).

المغضوب :اسم مفعول مشتق من غضب عليهم أي وقع عليهم الغضب من الله، والغضب: ثوران في النفس قد يدفع إلى الانتقام، وإذا وصف الله به فمعناه- عند السلف- غضب يليق بجلاله، وعند الخلف يؤوَّل بالانتقام.

الضالين :اسم فاعل مشتق من "ضل".

ومادة الضلال قد وردت في القرآن الكريم بمعان مختلفة : منها : غيبة شيء في شيء، كقوله تعالى في سورة السجدة :﴿ وقالوا أئذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد؟﴾ الآية 10.

وكقول العرب : ضل الماء في اللبن.

ومنها : النسيان، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿...أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى...﴾ الآية 282.

ومنها: **الحيرة**، كقوله تعالى في سورة الضحى: ﴿**ووجدك ضالا فهدى**﴾ الآية: 7.

ومنها: **الخطأ**، كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿**قال فعلتها إذا وأنا من الضالين**﴾ الآية 20، وفي سورة يوسف حكاية لما قاله أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿**تالله إنك لفي ضلالك القديم**﴾ الآية 95، وفي سورة طه ﴿**..لا يضل ربي ولا ينسى**﴾ الآية 52.

ومنها: **العدول** عن الطريق المستقيم، وهذا هو المراد هنا.

والمعنى: نسألك يا الله أن ترشدنا إلى السير في المنهاج الذي سار فيه الذين تفضلت عليهم بالهداية إلى الحق، لا الذين باءوا بالغضب منك ولا الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح المؤدي إليك.

من هم المغضوب عليهم؟

فسَّرهم النبي ﷺ باليهود، لقول الله تعالى فيهم في سورة المائدة: ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله؟ من لعنه الله، وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وعَبدَ الطاغوت، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل**﴾ الآية 60.

ومن هم الضالون ؟

فسرهم النبي ﷺ بالنصارى، لقول الله -تعالى- فيهم:﴿**ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل**﴾ سورة المائدة 77.

ولماذا غضب الله على اليهود ؟

لأنهم عرفوا الحق، و لم يعملوا به، ومن شاركهم في هذا الوصف ناله نصيب مما نالهم، دليل ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعد له عذابا عظيما ﴾ الآية 93، و"من" تفيد العموم، فالآية عامة.

ولماذا حكم الله على النصارى بالضلال ؟

لأن وجه الصواب غاب عنهم، فهم كالذين يهيمون على وجوههم لا يعرفون المسالك المؤدية إلى المطلوب، وكل من بنى أموره على غير علم صحيح حكم عليه بالضلال، قال -تعالى- في سورة الممتحنة:...﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ الآية 1.

والخلاصة: أن المغضوب عليهم فقدوا العمل بما علموا، وأن الضالين فقدوا العلم الصحيح المبني على الوحي الموصل إلى الله، وإن بلغوا في العلوم الدنيوية شأوا بعيدا، ولذلك كان المغضوب عليهم أشد مقتا من الضالين.

وما فائدة ذكر المغضوب عليهم والضالين بعد ذكر الذين أنعم الله عليهم ؟ ذلك من أجل التربية بالرجاء والخوف، ومن الأسباب الضامنة لسعادة الإنسان الأبدية -إن شاء الله- أن يعيش بين الرجاء في رحمة الله، والخوف من عذابه.

ولم جيء بـ (لا) النافية قبل كلمة ((الضالين))؟ إنه لتأكيد النفي المفهوم من (غير) وذلك ليتأكد الفرق بين الطائفتين، ومن أراد أن يستوعب الأسباب التي استوجبت غضب الله على بني إسرائيل، وأن يدرك موجبات الحكم على النصارى بالضلال، فليتدبر ما جاء في القرآن الكريم عن أهل الكتاب من يهود ونصارى، وعلى سبيل التمثيل والاختصار أذكر -في حق اليهود- نقض مواثيقهم مع الله ﷻ، وقتلهم بعض الأنبياء، وتلكؤهم في تنفيذ الأوامر الإلهية، وقولهم البهتان عن عيسى وأمه، وعزمهم على قتله، وإنكارهم لنبوة محمد ﷺ، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه ....الخ.

وأذكر في حق النصارى اعتقادهم التثليث، و ادعاءهم أبوة الله لعيسى عليه السلام، و إنكارهم لنبوة محمد عليه السلام...الخ.

ومما يجب التنبه له في هذا المقام، أنه قد حدث في المسلمين ما تنبأ به رسول الله ﷺ بقوله: (لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه) رواه الحاكم في مستدركه، فهناك الابتداع في الدين الذي يعنيه ﷺ بقوله: (**كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**) رواه مسلم وأبو داود.

وهناك التهرب من الواجب، والتحايل على الوقوع في المحرم، وهناك التقليد الأعمى للأجانب المخالفين لعقيدتنا في أنماط سلوكهم، وهناك التنازع على ما لا يستحق التنازع من أغراض الدنيا، مما أدى بهم إلى الضياع على كثرتهم، وقد تحقق فيهم ما أخبر به الرسولﷺ :(ستداعى[1] عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل،وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا، وكراهيَة الموت). رواه أبوداود وأحمد.

وهكذا تبين أن الفاتحة هي بحق أم الكتاب بما اشتملت عليه من كليات القرآن الكريم: من عقيدة صحيحة، و عبادة خالصة، ومنهاج متميز، وسلوك مرضي، وبيان لأحوال طوائف البشر من مؤمنين ومغضوب عليهم وضالين، فاستحقت بهذا أن تفرض قراءتها في كل صلاة، وأن يسترقى بها.

---

1 : ستداعى: أصلها ستتداعى (بتاءين) حذفت إحداهما للتخفيف.

التـأمـين

التأمين: مصدر أَمَّنَ - يؤمِّن إذا قال: آمـين بعـد الـدعاء وينطـق بالمـد عـلى وزن: فاعيل، ويصح قصره فيقال أمين، على وزن فعيـل، وهـو اسـم فعـل معنـاه طلب الإجابة أي استجب يا رب.

ولفظ آمين ليس من الفاتحة، ولا من القرآن الكريم قطعا، ولذلك لم يكتب في المصحف الإمام وهو المصحف العثماني.

ويسنُّ الإتيان به بعد قراءة الفاتحة، كما يسن بعد أي دعاء، وينبغي أن يكـون مفصولا عن آخر الفاتحة بسكتة ليتميز ما هو قرآن مما ليس منه.

وهو ليس اسما مـن أسـماء الله - كـما يدعيـه بعـض النـاس-لأن أسـماء الله توقيفية ولم يرد في ذلك نص من الشارع، وقواعد العربية تأبى ذلك، لأنه لـو كـان اسما لبنـي عـلى الضـم كـما هـو شـأن المنـادى إذا كـان مفـردا علـما؛ و هـو مـن خصوصيات هذه الأمة؛ فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله أعطى أمتـي ثلاثـا لم تعط أحدا قبلهم: السلام، وهو تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكـة، وآمـين، إلا ما كان من موسى وهارون) رواه الترمذي في نوادر الأصول.

و ورد أن جبريل عليه السلام أقرأ النبي ﷺ فاتحة الكتاب فلـما قـال: ولا الضـالين، قال له : قل آمين، وجاء عن النبي ﷺ قوله: (ما حسـدتكم اليهـود عـلى شـيئ مـا حسدتكم على آمين، فأكثروا منها) رواه ابن ماجه.

وهل تقال في أثناء الصلاة بعد قراءة الفاتحة؟ نعم.

- أما الفذ فيقولها سرا في الصلاة السرية، وجهرا في الصلاة الجهرية (على الراجح من أقوال العلماء).

- وأما الإمام فيقولها سرا فيما أسر فيه، واختلف الأئمة فيما جهر فيه، فذهب بعضهم إلى أنه يجهر بها استنادا إلى ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه كان إذا تلا: ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ قال: آمين، حتى يسمع من يليه من الصف الأول فيرتج بها المسجد، (سنن أبي داو ود وابن ماجه)، وإلى ما ثبت عن أبي هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه). وذهب بعض العلماء إلى أن الإمام يُسر بها، أو لا يطالب بها أصلا، استنادا إلى ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال:(إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم لْيؤمكم أحدكم، فإذا كَبر فكبروا، وإذا قال:غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا آمين، يجبكم الله).

وأما المأموم فيأتي بها سرا فيما أسر به إمامه، واختلفت المذاهب فيما جهر به الإمام، فالشافعية والحنابلة وبعض المالكية يرون أن يأتي بها المأموم جهرا، ودليلهم حديث أبي هريرة المتقدم (...فيرتج بها المسجد...) والحنفية وبعض المالكية يرون أن يأتي بها المأموم سرا، ودليلهم أن (آمين) مرتبطة بالدعاء، والدعاء

يطلب فيه الإسرار حتى لا يخالطه الرياء والله ﷻ يقول: ﴿**ادعوا ربكم تضرعا وخفية**﴾ سورة الأعراف الآية 55 ، وهو استدلال ضعيف من حيث إن الرياء، مستبعد تماما في الجهر بكلمة آمين، على أن الدعاء الجماعي لا يتصور فيه الرياء، وكلمة آمين تابعة له.

ولندع الإمام أبا عبد الله القرطبي -وهو مالكي المذهب- يرد قول القائلين باستحباب الإسرار بـ (آمين) في تفسيره الكبير: الجامع لأحكام القرآن. ج.1 ص.130 . قال -**رحمه الله**-:" إنَّ إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء، وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر، وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره، وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء، والتأمين في آخرها، فإذا كان الدعاء مما يسن الجهر به فالتأمين على الدعاء تابع له، وجار مجراه، وهذا بيّن". انتهى.

وليس في الآية دليل للقائلين بإسرار (آمين)، لأن التضرع في حقيقته إظهار التذلل بهيأة خاصة، وأظهر ما يكون بهيأة الجهر، وبما أن التضرع ذكر في مقابلة الخفية، فمعنى الآية: ادعوا ربكم جهرا و سرا،وها نحن-معشر المسلمين- ندعو ربنا بدعاء آخر الفاتحة جهرا في بعض الصلوات، وسرا في بعضها الآخر، فلم لا يكون التأمين تابعا للدعاء في السر و الجهر؟

يقول المحقق الكبير الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره -التحرير والتنوير - ج.8.ص.171. (...ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء، لأن الجهر

من هيأة التضرع وأنه تذلل جهري، وقد فسر في هذه الآية وفي قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ تدعونه تضرعا وخفية﴾ الآية 63، بالجهر بالدعاء. وهو الذي نختاره لأنه أنسب بمقابلته بالخفية...) انتهى.

و الواجب على المسلم الاقتداء بالنبي ﷺ فيما ثبت عنه، لأن العبادات توقيفية فيُسر بالدعاء والذكر فيما أسر فيه ويجهر فيما جهر فيه. وقد قال رسول الله ﷺ: (صلُّوا كما رأيتموني أصلي) رواه البخاري.

سورة يس

مُقَدِّمَة

الحمد لمن خلق الأرض والسماوات العلى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد: فإن أولى كتابٍ بالفهم والتفهُّم والتَّفهيم هو كتاب الله الهادي إلى الحق و إلى طريق مستقيم، العاصم من الضلال المبين ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء 9]، أي إن كتاب الله هذا يرشد المتمسكين به إلى الطريق التي هي أصوب في كل مجال من مجالات الحياة الدينية والدنيوية.

وبالعمل وفقه، ووفق سنة من أنزل عليه كانت الأمة الإسلامية خير الأمم، وستظل على هذه الخيرية إن شاء الله مادامت محافظة على شروطها؛ من أمر بمعروف، ونهي عن منكر نابعين من إيمان خالص ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران 110].

وبما أن هذه الأمة –بعد قرونها الزاهرة– أصيبت إصابات بالغة في مكونات شخصيتها المتميزة من لغة وعقيدة وشريعة نتيجة لاحتلال الأعداء أوطانها، واستيلاء عوامل الانحطاط على عقول أبنائها أمست على حرف من شريعة ربها التي شرفها بحملها، وكان من لطف الله بها أن هيأ لها في كل فترة من فترات تاريخها علماء أجلاّء لا يخشون في الله لومة لائم يدأبون في اجتذابها إلى ما صلح به

أولها كما قال الإمام مالك –رضي الله عنه– (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها).

ومعلوم أن أولها إنما صلح باستمساكه الواعي بكتاب الله تعالى وبسنة رسوله ﷺ وما احتوياه من توجيه قيِّم، وتشريع سديد، ووعظ بليغ، وتثقيف رشيد.

و بدهي أن التأثر بما يسمع ويقرأ لا يحصل إلا بفهم ما يقال ويكتب واستكناه ما يُقدَّم ويُعرض.

من أجل ذلك انبرى علماء كل عصر إلى كتاب الله –تعالى– يفسرونه للناس، وإلى سنة نبيه ﷺ يشرحونها لهم، وينشرون حقائق الإسلام نافين عنها ما طرأ عليها من زيف وتحريف وتخريف.

ومن هؤلاء المفسرين من أطنب في البحث والاستقصاء حتى جاوز الحد المعقول، ومنهم من التزم القصد المقبول، منهم من أمدَّ الله في عمره حتى أتم تفسيره كله، ومنهم من عاجله الموت فترك بعضه، ومنهم من اقتصر على سُوَر أوآيات منه، والله المسئول أن يجازي كلا منهم بما هو أهله.

وأخيرا أضرع إلى الله عز وجل أن يجعل النفع بهذا الكتاب في ميزان حسناتي ضمن صالح أعمالي، إنه قريب مجيب.

سورة يس

سميت بهذا الاسم لتصديرها بذينك الحرفين: الياء والسين، وهي مكية. وعدد آياتها اثنتان وثمانون.

فضلهـا:

مما ورد في فضلها ما رواه الحافظ البزار عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي).

وما رواه الترمذي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يـس).

وما رواه الإمام أحمد عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: (اقرءوها على موتاكم).

قال الإمام أحمد –رحمه الله– : كان المشيخة: يقولون إذا قرئت على الميت خفَّف الله عنه بها.

تنبيـه:

قال العلماء: ليس المراد بالموتى في الحديث الشريف الذين خرجت أرواحهم من أجسادهم، وإنما هم الذين أشرفوا على الموت، لعل الله –تعالى– يخفف عنهم شدة النزع ببركاتها (وهو ما يفهم من كلام الإمام أحمد السابق)

ولعلهم -أيضا- يتعظون بها يسمعون فيها من آيات تتحدث عن البعث والنشور والجنة والنار فيستغفرون الله -تعالى- ويرجون ثوابه ويتعوذون به من عقوبته.

أحكام فقهيــة:

يسأل بعض المسلمين عن حكم قراءة يـس أو القرآن كله على الميت في مقابل أجرة؟ وقد أفتى الفقهاء بأن ذلك حرام إذ ينبني عليه بيع كلام الله بثمن بخس، ومن ثمّ لا ينتفع الميت بقراءته.

أما قراءة القرآن بإخلاص والدعاء بعدها للميت فقد أفتوا بانتفاعه بها لأن التوسل إلى الله بالقرآن الكريم من التوسلات الشرعية التي يتحقق بها المراد إن شاء الله. والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (2) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (3) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (4)﴾.

التفســيـر:

حينما نستعرض القرآن الكريم نرى بعـض سوره قد افتتحت بحروف هجائية مقطعة، منها ما هو مفتتح بحرف واحد مثل: ص -ق - ن، ومنها ما هو مفتتح بحرفين مثل: يس، حم، طس، ومنها ما هو مفتتح بثلاثة مثل: الم، الر،

طسم، ومنها ما هو مفتتح بأربعة مثل: المر – المص – ومنها ما هو مفتتح بخمسة مثل: كهيعص–حم عسق.

وعدد الحروف التي افتتحت بها تلك السور أربعة عشر وهي نصف الحروف الهجائية الثمانية والعشرين التي تتكون منها اللغة العربية.

ولا شك أن ذكرها في أوائل السور يرمز إلى حكمة، وما هي تلك الحكمة؟

اختلف علماؤنا إزاءها، فعلماء السلف يرون أن الله–تعالى– قد استأثر بعلمها، ومن ثم قالوا: الله أعلم بمراده منها.

وعلماء الخلف يرون أن لا بأس بالاجتهاد في استكناه تلك الحكمة، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وأنا –هنا– أكتفي بما رجحه العلماء المحققون وهو ما تطمئن إليه النفس، وتتلقاه بالقبول مع تفويض العلم بسرها إلى منزِّلها.

قالوا: إنها تنبيه إلى إعجاز القرآن، من حيث إن كلام العرب مؤلف من الحروف الهجائية التي يعرفونها والقرآن الكريم نزل بلغتهم المركبة من تلك الحروف ومع ذلك تحداهم الله –عز وجل– أن يأتوا بمثله في نظمه وأسلوبه ومعانيه فعجزوا عن ذلك كل العجز مع أنهم بلغوا يومئذ منتهى الفصاحة والبلاغة وإنا لنقرأ في سورة الإسراء تحديهم بمثله:﴿ **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ 88.

وفي سورة هود تحديهم بعشر سور مثله مفتريات: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.الآيتان 13-14.

وفي سورة البقرة تحديهم بسورة واحدة من مثله: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الآيتان: 23-24.

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

الواو: واو القسم. و القرآن مقسم به.

وقد أقسم الله به تنبيها على فضله، وشرف قدره.

والحكيم: يحتمل أن يكون بمعنى المحكم يعني المتقن الذي لا نظير له في إبداعه، كما قال ﷻ في مطلع سورة هود: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. كما يحتمل أن يكون معناه: المشتمل على الحكمة فهو كالحي الذي ينطق بالحكمة، وبدهي أن ما اشتمل عليه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق هي عين الصواب، وخير هدي للعباد.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

هذه الآية جواب القسم المذكور في الآية السابقة، وكاف الخطاب يراد به نبينا محمد ﷺ. والمراد بالمرسلين: الرجال الذين اصطفاهم الله ﷻ ليبلغوا وحيه المنزَّل عليهم إلى عباده.

والمعنى: أن الله ﷻ أقسم بالقرآن الحكيم على أن محمدا ﷺ من جملة المرسلين الذين أرسلهم إلى الأمم الماضية.

وهل كان سيدنا محمدﷺ يشك في أنهَ رسول الله كبقية الرسل السابقين حتى يؤكد الله له هذه الحقيقة بتلك المؤكدات، وهي: القسم وإنَّ واللام الداخلة على خبر إن؟

والجواب: أن النبي ﷺ لم يشك في رسالته الإلهية للعالمين، ودليل ذلك قوله ﷺ: (لا أشك ولا أسأل)، حينما أمره ربه بأن يسأل أهل الكتاب إن كان شاكا فيما ينزله عليه، وهوَ ما نقرأه في الآيتين (94-95) من سورة يونس: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ولكنَّ الله الرءوف بعبده أراد أن يؤنس قلبه بذلك وأن يثبته في المعركة القائمة بين التوحيد والشرك وأن يردّ في الوقت نفسه على المشركين الذين كانوا يكذبونه، ويطعنون في نبوته ورسالته.

ومما ذكره الله من أقاويلهم فيه ما جاء في سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾43.

وما جاء في سورة سبأ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ 43.

ونظير هذه الآية قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ 252 .

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

المعنى اللغوي: للصراط المستقيم أنه الطريق السوي وهو مستعمل في القرآن الكريم استعمالا مجازيا يقصد به الإسلام وما يتضمنه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، تشبيها للسائر وفق الشريعة الإسلامية بالسائر على طريق مستقيم؛ من حيث إن كلا منهما يتحقق وصوله إلى مراده دون عناء أو تردد.

واستعمال حرف الجر (على) الدال على الاستعلاء يفيد أن الرسول ﷺ متمكن من الصواب وسلامة الاتجاه تمكن الفارس من صهوة جواده.

ونظير هذه الآية قوله في سورة الشورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ 52-53.

﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

تنزيل: مصدر: نزل-ينزل. والمراد به الوحي المنزل من الله، وهو القرآن الكريم.

وعبر عنه بالمصدر على سبيل المبالغة.

ويقرأ بالرفع على رواية ورش وقالون عن نافع لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو؛ أي القرآن المفهوم من سياق الكلام.

كما يقرأ بالنصب على رواية حفص عن عاصم لأنه مفعول لفعل محذوف، تقديره: أعني.

و(العزيز) : ذو العزة والسلطان والغلبة.

و(الرحيم) : ذو الرحمة واللطف بعباده .

وهما من أسماء الله الحسنى. وإذا كان في الأول منهما ترهيب للكافرين ففي الثاني طمأنة للمؤمنين بأنهم في كنف الله ورعايته.

وقد أكد الله ﷻ في غير ما آية من كتابه العزيز أن هذا القرآن منزل من عنده، وليس من عند محمد ﷺ ولا من عند غيره من البشر.

من ذلك ما نقرؤه في سورة الشعراء:﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ 92-96.

وفي سورة الحاقة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ 38 ...43.

وفي هذه الآية من سورة يـــس، وفي الآيات المستشهد بها وفي غيرها من الآيات المشابهة لها رد على المشركين الذين كانوا يقولون عن القرآن إنه شعر أو كهانة أو سحر أو افتراء أو أساطير الأولين أو أضغات أحلام.

قوله تعالى:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(5)﴾

اللام في (لتنذر) لام التعليل، فقد عللت إرسال سيدنا محمد ﷺ إلى قومه بإنذارهم وتهديدهم بعذاب الله إن هم أصروا على شركهم وعنادهم.

و(تنذر): فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ماضيه: أنذر، ومصدره الإنذار. وهو الإخبار بما فيه تخويف للسامع.

و(ما) نافية، فقد نفت إرسال رسول إلى آبائهم والمراد بآبائهم الأقربون منهم إليهم وإلا فإن آباءهم الأبعدين كانوا على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام.

والفاء في جملة (فهم غافلون) تفريعية؛ فقد فرعت غفلتهم على عدم إرسال رسول إليهم.

وعن أي شيء كانوا غافلين؟ كانوا غافلين عن الدين الصحيح الذي يعبدون الله بمقتضاه؛ ذلك الدِّين الذي أرسل الله به رسوله إبراهيم فلزمه آباؤهم الأولون، ولما طال عليهم الأمد بدءوا يستكينون لوساوس الشياطين الذين انحرفوا بهم عن مِلَّة إبراهيم المبنية على توحيد الألوهية، وزيَّنوا لهم اتخاذ آلهة يعبدونها من دون الله أو مع الله، كما جاء في الحديث القدسي الشريف: (إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم أي أضلتهم وحرفتهم عنه).

ولما استبدت الشياطين بالناس فأخذ الشرك منهم كلَّ مأخذ، وفسدت أخلاقهم، وانحطت مداركهم تداركهم الله بلطفه، فأرسل إليهم رسولا من أنفسهم ينذرهم بعاقبة الإشراك بالله وهي النار، وبئس المصير. ونظير هذه الآية قوله -تعالى- في سورة السجدة : ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾3.

ويمكن أن يطرح هنا سؤال: هل إنذار النبي ﷺ بالقرآن خاص بالقوم الذين كانوا في زمنه؟

والجواب أن كل قوم في أي زمن وصلهم شرع الله فهم ملزمون باتباعه، وهو حجة عليهم كما كان حجة على من قبلهم، ويصدق عليهم أن النبي ﷺ أنذرهم وبلَّغهم ما أرسل به إليهم. كما قال-تعالى- في سورة الأنعام:﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ 19. أي من بلغه ووصل إليه، يعني القرآن.

ومما يؤسف له أن المسلمين أصابهم -على مرِّ العصور- نوع من الغفلة عن دينهم القويم كما أصابت الأولين.

ومن مظاهر تلك الغفلة التوجه إلى غير الله فيما لا يملكه إلا الله، وتقديم شريعة العباد على شريعة رب العباد، وتقديس ما لا يستحق التقديس، والتقرب إلى الله بما لم يشرعه لعباده، والزهد في السنن النبوية، وإعلان البدع المحدثة، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى:

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(6)﴾

(حقَّ القولُ) : ثبت وتقرر.

والقول: قول الله تعالى: ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾. كما هو منصوص عليه في سورة السجدة: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾13.وفي سورة ص: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾83.

واللام في (لقد حق القول) لام القسم (لتأكيد معنى الكلام).

والفاء في جملة (فهم لا يؤمنون) تفريعية؛ فقد فرعت ورتبت عدم إيمان أكثرهم

على ما سبق في علم الله أنهم يختارون طريق النار، وما سبق في علم الله ﷻ لا بد أن يتحقق.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ(7)﴾

(الأغلال) جمع تكسير، مفرده: غُل بضم الغين، وهو حلقة عريضة من حديد يطوق بها عنق الأسير أو المجرم، وعند طرفيها من الأمام قضيب في رأسه

كويرة تلتصق بذقنه، وتضم يداه مربوطتين إلى الحلقة، فلا يستطيع أن يطأطئ رأسه ولا أن يلتفت يمينا ولا شمالا.

يقال في اللغة: غله –يغله– غَلا (بفتح الغين)، أما الغِل (بكسر الغين) فهو الحقد، ومن ذلك قوله –تعالى– في سورة الحشر: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾الآية:10. ويطلق الغَل (بفتح الغين) والغلول على الأخذ من غنيمة الحرب خِلسة قبل أن تقسم على المجاهدين. وقاس الفقهاء عليها الاختلاس من المال العام، ومن ذلك قوله في سورة آل عمران: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾161.

(الأذقان): جمعٌ واحده: ذقن (بفتح الذال والقاف) وهو مجمع اللحيين أي الفكين من أسفلهما.

(مقمحون): اسم مفعول مصوغ من أقمح الرباعي.

يقال: أقمح الغل الرجل إذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه ومن ذلك قول العرب: قمح البعير وتقمح وانقمح إذا رفع رأسه، وامتنع عن الشرب ريا أي ارتواء من الماء.

وضمير الرفع (هي) عائد إلى الأغلال أو إلى الأيدي، ولو لم يسبق لها ذكر، لأن من شأن الأغلال أن تربط إليها الأيدي.

والجار والمجرور (إلى الأذقان) يتعلقان بمحذوف هو خبر المبتدأ الذي هو (هي).

وتقدير الكلام: هي واصلة أو منتهية إلى الأذقان. والفاء في فهم (مقمحون) تفريعية؛ فقد فرعت الإقماح على جعل الأغلال في الأعناق.

معنى الآيـة:

تمثيل لحال من يشمخون بأنوفهم، ويستكبرون عن قبول الحق بحال من جعلت الأغلال في أعناقهم فارتفعت رؤوسهم قسرا إلى أعلى؛ فأولئك منعهم الكِبْر من التفكير فيما عرض عليهم من صلاح، وهؤلاء منعتهم الأغلال الحسية من النظر فيما حولهم والاستفادة مما يحيط بهم.

وإمعاناً في إفادتك أيها الأخ القارئ أنبهك إلى أن القرآن الكريم استعمل الأغلال أيضا تمثيلا للشدائد، كقوله –تعالى– في سورة الأعراف في معرض تعداد النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل بواسطة نبيه سيدنا محمد ﷺ ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ 157.

والإصر: الحمل الثقيل، والأغلال التي كانت عليهم هي تحريم العمل عليهم يوم السبت، وتحريم كل ذي ظفر، وتحريم شحوم البقر، وإذا أصابت ثوب أحدهم نجاسة فإنه لا يطهر إلا بقطع المكان المتنجس منه، ووجوب القصاص على القاتل دون قبول الدية منه، وتحريم الغنيمة عليهم.

كما استعمل الأغلال -أيضا- تمثيلا للشح، كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ 29.

وفي سورة المائدة: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾64.

وإذا كانت الأغلال في الأعناق تمثيلا لحال المستكبرين الرافضين للحق في الدنيا فإنها في الدار الآخرة حقيقة واقعة لا محالة، يدلنا على ذلك قوله ﷻ في سورة سبأ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾33.

وقوله ﷻ في سورة غافر: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ 70 ...72.

وقوله ﷻ في سورة الحاقة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾30-32.

قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(8)﴾

السدّ: الحاجز بين شيئين، ويُقرأ في الآية بضم السين على رواية ورش وقالون عن نافع، وبفتحها على رواية حفص عن عاصم.

أغشيناهم: جعلنا على أبصارهم غشاوة، أي غطاء يمنعهم عن الرؤية .

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ 6. وهي غشاوة معنوية.

و المعنى أن الله ﷻ شبَّه حال الذين حرمهم من الهداية بحال الذين حُصروا بين سدَّيْن وغُطِّيت عيُونهم.

وهل ظلمهم الله بحرمانهم من الهداية؟ كلا. وحاش لله أن يظلم أحدا، ولكن الناس يظلمون أنفسهم برفض الحق الذي جاءهم من عند خالقهم على لسان رسوله إليهم، وقد يعترفون به في قرارة نفوسهم، ولكنهم ينكرونه بألسنتهم تكبرا واستعلاء وتمسكا بمكانتهم الاجتماعية وحفاظا على امتيازاتهم الدنيوية، كما قال ﷻ في أمثالهم:﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرة قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(13)وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(14) ﴾ النمل.

ومن الأمثلة الصريحة الواضحة في واقع الناس التي تكشف عن جحود الحق باللسان، و استيقانه بالجنان ما رواه ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن شهاب عن الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، و أبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه، و كل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعهم الطريق تلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا،حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفَرَسَيْ رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس وتركه.

قوله تعالى:

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(9)﴾

الهمزة الأولى في (أأنذرتهم) للاستفهام، والهمزة الثانية من بنية الكلمة، فقلبت الهمزة الثانية مدًّا على رواية ورش، وسهلت على رواية قالون، وبقيت على أصلها في رواية حفص.

و(أم) الواقعة بعد الهمزة تفيد التسوية بين ما قبلها وما بعدها (والتسوية هنا بين الإنذار وعدمه) المسبوكين من الفعلين أي سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك.

ومن حيث الإعراب: سواء: خبر مقدم، وإنذارك: مبتدأ مؤخر والكاف مضاف إليه.

والتقدير: إنذارك وعدمه سواء .

ومن أمثلة (أم) التي تفيد التسوية مع همزة الاستفهام قوله ﷻ في سورة الشعراء حكاية لمقالة عادٍ لنبيها هود: ﴿سواءٌ عَلَينا أوعَظْتَ أم لم تكُن من الوَاعظين﴾ أي وعظك وعدمه سيان عندنا .

فالمصدر المسبوك من وعظ: مبتدأ خبره سواء .

وهذه الآية كالنتيجة لما قبلها، أي عدم انتفاعهم بالإنذار ناتج عن استحبابهم للعمى على الهدى ورفضهم للحق الذي استيقنوه بقلوبهم وجحدوه بألسنتهم.

فقد كانت الآيات تُتلى عليهم فيعرضون عنها، ويصدون غيرهم عن الاستماع إليها كما قال الله ﷻ في سورة فصلت: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(26)﴾**

ومما يروى في هذا المقام عن عبد الله بن أبي قبل أن ينافق أن رسول الله ﷺ مرَّ ذات يوم على جماعة فيهم عبد الله بن أبي، فسلَّم عليهم، ثم قرأ آيات من القرآن الكريم، فقال له عبد الله: يا هذا إنه لا أحسن من كلامك إن كان حقا! فاجلس في بيتك، فمن جاءك فحدثه، ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه[1] .

1 - أي: فلا تُؤذِه.

وجملة (لا يؤمنون) التي تنفي الإيمان عنهم هي توكيد لعدم انتفاعهم بالإنذار المذكور قبلها.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من المشركين.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(10)﴾

(الذكر) المراد بالذكر –هنا– القرآن العظيم قال الله ﷻ في سورة الحجر:**﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)﴾**

واتباع الذكر: الخضوع لأحكامه، والانتفاع بتوجيهاته.

و(إنما) أداة تفيد الحصر أو القصر، أي الانتفاع بإنذارك –أيها الرسول– محصور في المؤمنين الذين التزموا بالعمل وفق كتابه العزيز، وخشوا الرحمن بالغيب.

وخشي:بمعنى : خاف و(الرحمن) اسم من أسماء الله الحسنى و(الغيب): ما غاب عنك.

وخشية الرحمن بالغيب تصدق بخوف العبد من الله مع أنه لا يراه، أو بخوفه منه في حال خلوته بحيث لا يطلع عليه أحد.

ونظير هذه الآية قوله -تعالى- في سورة الملك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(12)﴾

وخشية الرحمن بالغيب دليل على إخلاص العبادة للمعبود وهو مقام الإحسان الوارد في الحديث الشريف المشهور الذي أجاب به النبي ﷺ جبريل عليه السلام حين سأله عنه: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وقد تكررت في القرآن الكريم الآيات الدالة على أن الإنذار لا ينتفع به إلا المؤمنون المتقون الذين يخشون الله عز وجل.

من ذلك قوله عز وجل في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ 18.

وقوله عز وجل في سورة النازعات: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا(45)﴾ وفي سورة ق: ﴿فذكّر بالقرآن من يخافُ وعيدي﴾ 45.

والذي اتبع ما في القرآن، وخشي الله بالغيب يتشوق إلى معرفة جزائه عند ربه فجاءته البشرى تحملها الجملة الأخيرة من الآية: ﴿فبشّرهُ بمغفرةٍ وأجرٍ كَبير﴾.

والمغفرة تعني ستر ذنوبه وعدم المؤاخذة عليها.

والأجر الكريم: الجزاء الحسن الذي يشرف من يناله، والكرم المفهوم من صيغة (كريم)قد عرفه الراغب الأصفهاني بقوله: كل شيء يشرف في بابه فإنه يوصف بالكرم. قال ﷻ في سورة الشعراء﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾6. وفي سورة الدخان: ﴿...وزروع ومقام كريم ﴾ 25. وفي سورة الواقعة: ﴿إنه لقرآن كريم﴾ 80، وفي سورة الإسراء: ﴿وقل لهما قولا كريما ﴾23.

قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمُوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(12)﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمُوْتَى ﴾.

افتتحت الجملة بـ(إن) المؤكدة، والضمير المنفصل نحن لتقوية مضمونها، وهو إحياء الموتى، وهذا التوكيد اقتضاه إنكار العرب المشركين للحياة الثانية بعد الموت، وهو ما أخبر الله به عنهم في القرآن الكريم في غير ما آية، وأوعدهم من جرائه بالعذاب الشديد فقال مثلا في سورة سبأ: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(7)أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(8)﴾** .

وقال في سورة التغابن: **﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(7)﴾** .

والجزم بأن الله ﷻ يحي الموتى في يوم القيامة من أركان الإيمان؛ فلا إيمان لمن لا يؤمن باليوم الآخر.

قال الله ﷻ في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(136)﴾

﴿ونكتب ما قدموا وءاثارهم﴾

والكتابة المفهومة من (نكتب) معناها الإحصاء والضبط.

و (ما) اسم موصول بمعنى الذي و (قدموا) صلته، والضمير العائد إليه محذوف. وتقدير الكلام: ونكتب الذي قدموه.

وما هذا الذي قدمه الموتى؟ وسجل في صحائف أعمالهم؟ هو ما عملوه في الدنيا من حسنات وسيئات قبل موتهم ليجازوا عليه في الحياة الأخرى الأبدية، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. قال الله ﷻ في سورة فصلت: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(46)﴾.

وهذه الحقيقة التي تضمنتها هذه الآية، وهي إحصاء أعمال الناس التي كانوا يعملونها في دنياهم ومجازاتهم عليها في آخرتهم قد تكررت في القرآن الكريم غير ما مرة.

من ذلك قوله ﷻ في سورة الإسراء:﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا(13)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14)﴾.

وقوله ﷻ في سورة الجاثية: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ(27)وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(28)هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(29)﴾

والمراد بآثارهم: ما خلفوه بعد موتهم مما يجلب لهم الخير أو الشر.

كعلم علموه، أو كتاب ألفوه، أو وقف أوقفوه، أو بناء في سبيل الله بنوه، أو بئر حفروه، أو شجر غرسوه وغير ذلك من أنواع الخير، أو كبدعة منكرة نشروها بين المسلمين، أو كتاب مضل للقارئين، أو ترسيخ عقيدة فاسدة في أذهان المتعلمين، أو الطعن في أعراض الطاهرات والطاهرين، أو سن قانون فيه انتهاك حرمة الإسلام والمسلمين و غير ذلك من الشرور.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، و أجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها، و وزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء)) ثم تلا ﷺ ((... ونكتب ما قدموا وآثارهم)) .رواه مسلم.

وقال ﷺ :((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) رواه مسلم.

وجاء في سنن ابن ماجة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته).

ومما يدخل في (آثارهم) خطاهم في فعل الخير كمشيهم إلى المساجد مثلا، وكذلك خطاهم إلى فعل الشر كمشيهم إلى زرع الفتنة بين الناس مثلا.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلِمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال : يا بني سلمة ديارَكم تُكتب آثاركم ، ألا تحتسبون آثاركم ؟ فقالوا: يا رسول الله نحتسب، و لا يسرنا التحول).

وجاء في صحيح البخاري قوله ﷺ: (أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدِهم فأبعدهم ممشى).

ملاحظة: هل يفهم من هذا الحديث الشريف أن الرجل ينبغي له أن يتجاوز مسجده القريب إلى مسجد بعيد ليحصل له الأجر من آثار أقدامه الكثيرة؟ لا يفهم منه ذلك.

ومن العلماء الذين نفوا هذا الفهم الإمام مالك رضي الله عنه فقد قال: إنه لا ينبغي للمسلم أن يتجاوز المسجد القريب منه إلى مسجد بعيد .

أما إذا كان هذا التجاوز لغرض صحيح كوجود خلل في المسجد القريب من حيث انعدام كفاءة إمام المسجد القريب أو غير ذلك من النقائص فلا بأس بالتجاوز إلى مسجد بعيد يستفيد رواده من كفاءة إمامه أو مدرسه.

﴿ وكلُّ شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾

(كل) منصوب بفعل محذوف تقديره: أحصى أي أحصينا كل شيء. وحقيقة معنى (أحصى) عدَّ بالحصى أي حسب أشياء باستعمال الحصى التي هي صغار الحجارة، فيئول إلى معنى حفظ وضبط وهو المراد هنا.

و(الإمام) -معناه العام- هو الذي يأتم به غيره، أي يتبعه ويقتدي به، سواء أكان من جنس الإنسان أم من غيره وسواء أكان اتباعه في الخير أم في الشر. وجمعه أئمة وعليه فالرسولﷺ إمام لأن المسلمين يأتمون به والقرآن العظيم إمام للمسلمين والمسلمات، والعالم إمام للناس، والذي يتقدم ليصلي بالناس إمام، والمصحف العثماني إمام لجميع المصاحف التي كتبت وتكتب بعده، ولذلك يعبر

عنه بالمصحف الإمام، ورئيس كل دولة هو إمام رعيته، والخيط الذي يمده البناء فوق الجدار ليستقيم به دور البناء إمام له. والطريق الذي يسلكه الناس ويتبعونه إمام.

ومن استعمالات القرآن الكريم للإمام بمعنى الطريق، قوله ﷻ في سورة الحجر: ﴿...وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾(79) .

وبمعنى الذين يؤتم بهم في الخير قوله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾72، في سورة الفرقان: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(74).

وبمعنى الذين يؤتم بهم في الشر قولهﷻ في سورة القصص: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾ 41. ومن ذلك قولهﷻ في سورة الإسراء: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ... ﴾71.

وأخيرا يأتي (الإمام) بمعنى اللوح المحفوظ أو علم الله الأزلي وهو المراد في هذه الآية من سورة يــس بمعنى أن الله -تعالى- أحصى وحفظ كل شيء من أمر المخلوقات وغيرها في لوح محفوظ كل ما فيه مبين أي واضح. والله أعلم.

ونظير هذه الآية قوله ﷻ في سورة الجن: ﴿...وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا(28)﴾ .

وقوله ﷻ في سورة الكهف: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49) ﴾ .

قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (12) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (13)﴾

المناسبة:

ذكر الله ﷻ قبل هذه القصة أحوال المشركين في مكة حين أرسل إليهم رسولا هو سيدنا محمد بن عبد الله فكذبوه وآذوه، ورفضوا الانصياع لما جاءهم به من عند الله، فناسب أن يذكر لهم قصة قوم كانوا مشركين مثلهم فأرسل إليهم رسلا فكذبوهم وآذوهم وعكفوا على شركهم فأهلكهم الله.

شـرح الألفـاظ:

الضمير المستتر في (اضرب) عائد إلى رسول الله ﷺ، والضمير المتصل في (لهم) عائد إلى مشركي قريش، ومن ورائهم مشركو العرب.

و(المثل) جملة من الكلام تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير.

ومنه المثل السائر (الصيفَ ضيعتِ اللبن)

والمراد بالمثل –هنا– صفة لقوم مضوا في التاريخ تشبه صفة لمشركي مكة.

وضرب المثل:ذكره للسامع ليتعظ به، وجمعه: أمثال؛ولما للأمثال من تأثير في نفوس السامعين ضربها الله ﷻ للناس في القرآن الكريم، دليل ذلك: قوله في سورة العنكبوت:﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**(43)﴾.

و(القرية) لم يسمها الله –تعالى– لأن العبرة تحصل بدون تعيينها، ولكن جمهور المفسرين على أنها (أنطاكية) وهي من قرى بلاد الشام على ساحل البحر الأبيض والله أعلم، وأصحاب القرية هم سكانها، وقد كانوا وثنيين.

وقد انتصب (أصحابَ) على أنه بدل مطابق من (مثلا).

و إذ : ظرف زمان بمعنى: حين.

و(المرسلون): هم رسل الله إلى أهل القرية ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، والتخلي عن عبادة غيره.

وجملة (إذ أرسلنا إليهم اثنين) بدل من جملة: (إذ جاءها المرسلون).

و (عززناهما) : قويناهما. يقال في اللغة: عزز فلان فلانا: إذا انضم إليه فصار معه عزيزا قويا.

والعرب يقولون: تعزز لحم الناقة إذا صلب، وعزز المطر الأرض إذا لبَّدها وشددها. والأرض إذا صلبت يقال لها العَزاز.

ومن أسماء الله الحسنى (العزيز) لأنه هو القوي القاهر.

قال ﷻ في سورة الحشر: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(1) ﴾.

ومن هما الرسولان اللذان بعثهما الله ﷻ إلى سكان القرية؟ ومن هو الرسول الثالث؟ الذي عززهما به؟ لم يسموا في الآية، ولذلك اختلف المفسرون في تعيين أسمائهم، والعبرة ليست متوقفة على معرفة أسمائهم ولو كان في ذكرهم فائدة لأفادنا الله بها. لذلك أضرب عنهم صفحا، ونكل علمهم إلى مرسلهم.

ومعنى الآيتين أن الله ﷻ أمر نبيه محمدا ﷺ بأن يضرب للمشركين مثلا هو: أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم أولا رسولين فلم يؤمنوا بهما فقواهما برسول ثالث فقالوا لهم إنّا رسل ربنا إليكم، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه شيئا.

تحقيق: اختلفت الروايات في هؤلاء الرسل الثلاثة؛ هل هم رسل الله مباشرة، أو رسل السيد المسيح بإذن من الله.

كما اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية هل هي أنطاكية أو غيرها؟

وقد سجل ابن كثير رحمه الله تحقيقا مهما في هذا الموضوع في سياق تفسيره للآيات التي تضمنت قصة أصحاب القرية فقال: "...وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح

عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، كما نص عليه قتادة وغيره وفي ذلك نظر من وجوه:

- أحدها أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ﷻلا من جهة المسيح عليه السلام كما قال ﷻ ﴿**إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث، فقالوا إنا إليكم مرسلون**﴾. ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم (ما انتم إلا بشر مثلنا)

- الثاني أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع التي فيهن بتاركة... فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت فأهل هذه القرية ذكر الله -تعالى- أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم. والله أعلم.

- الثالث أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر غير واحد من السلف أن الله -تبارك وتعالى- بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله ﷻ ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى**﴾ فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكيا، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا أو تكون أنطاكية إن كان

لفظها محفوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة؛ فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية، ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى:

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ(14)قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(15)وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(16)﴾

التحليل اللغوي:

﴿بشر﴾: هذا اللفظ يصلح للمفرد فيكون بمعنى إنسان ويصلح للجمع فيكون بمعنى: ناس.

ومن استعمالاته في القرآن الكريم بمعنى المفرد قوله ﷻ في سورة ص: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ**(71) ﴾.

وبمعنى الجمع قوله ﷻ في سورة التغابن: ﴿...**فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**﴾.

وقوله أيضا في هذه الآية في سورة يس.

و(من شيء) شيء: اسم مجرور لفظا بمن، منصوب تقديرا لأنه مفعول (أنزل) أي ما أنزل الرحمن شيئا.

وفائدة جره بـ(من) التقليل، أي: ما أنزل الرحمن أي شيء مهما كان قليلا.

والجملتان: (ما أنتم إلا بشر مثلنا) و(إن أنتم إلا تكذبون) تفيدان الحصر، لأن الأولى مبدوءة بـ(ما) النافية تلتها (إلا) الاستثنائية والثانية مبدوءة بـ (إن) النافية كذلك تلتها (إلا) الاستثنائية، والمعنى أنتم –أيها المدعون للرسالة السماوية- محصورون في طبيعتكم البشرية –كما نحن- لا تتعدى إلى المستوى الذي يؤهلكم لتلقي الوحي من الله.

وكلامكم محصور في الكذب لا يتعداه إلى الصدق بأي حال.

﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾

هذه الجملة التي يستشهد فيها الرسل بعلم الله على رسالتهم الإلهية قد جرت هي ومثيلاتها مجرى القسم؛ فكأنهم قالوا والله إنا إليكم لمرسلون.

وقد جاءت مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، وأداة التوكيد (إن)، واللام الداخلة على خبر (إن) (لمرسلون) وهذه المؤكدات اقتضاها الإنكار الشديد من أصحاب القرية لرسالة أولئك الرسل.

(**البلاغ المبين**) التبليغ الواضح من عند الله.

والجملة:(**ما علينا إلا البلاغ المبين**) تفيد الحصر أي إن مهمتنا –نحن الرسل- محصورة في التبليغ ليس إلا، وإيمانكم وعدمه موكول إلى خالقكم .

ومعنى الآيات:

إن الرسل الثلاثة لما قالوا لأصحاب القرية إنا إليكم لمرسلون أجابوهم بقولهم: ما أنتم إلا ناس مثلنا ولا مزية لكم تفضلوننا بها ولم ينزل الله عليكم وحيا تبلغونه إلينا، وما أنتم إلا كاذبون في ادعائكم الرسالة. فأقسم لهم الرسل إنهم لمرسلون من عند الله إليهم وأخبروهم بأن مهمتهم محصورة في التبليغ الواضح لما كلفهم الله بتبليغه إليهم، أما محاسبتهم على كفرهم فهي موكولة إلى ربهم.

تنبيهان:

1- قولهم: ما أنزل الرحمن من شيء يدل على انهم مؤمنون به، ولكنهم ينكرون أن يبعث إليهم رسلا من البشر .

2- الشبهة التي عرضت لأصحاب القرية وهي إنكار أن يبعث الله إليهم رسلا من أنفسهم هي الشبهة نفسها التي عرضت لأقوام آخرين ومنهم العرب .

قال الله ﷻ في سورة الإسراء:﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا(94)قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا(95)** ﴾ .

وقال في سورة الأنعام:﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ(8)وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ(9)** ﴾. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(17)﴾

التطير –عند العرب في جاهليتهم– أن يثير أحدهم طائرا مّا فإن طار من اليسار إلى اليمين سموه السانح، وتيمنوا به وفرحوا،.ومضوا إلى ما عزموا عليه.

وإن طار من اليمين إلى اليسار سموه البارح وتشاءموا به وتقبضوا وقعدوا عما أرادوه. وذلك من خرافات الجاهلية وتوهماتها .

ثم تنوسيَ هذا الأصل، فصاروا يعبرون عن التشاؤم بالتطيّر ولو لم يثيروا أي طائر.

وكان من عادة الأقوام الذين يرسل الله إليهم رسلا إذا حدث فيهم وباء أو قحط أو فتنة أو غير ذلك مما يسوءهم نسبوا ذلك إلى مجيء الرسل، وقالوا لهم أنتم السبب فيما حدث لنا، وتشاءموا منهم ذلك التشاؤم الذي عبر عنه القرآن بالتطير على عادة العرب.

وهذا ما وقع من أصحاب القرية (موضوع الآية) كما وقع من ثمود مع رسولهم: صالح –عليه السلام– وقد ذكر في سورة النمل عند قوله: ﴿**قالوا اطيرنا بكـ وبمن معك، قال: طائركم عند الله، بل أنتم قوم تفتنون**﴾49.

وقد ذكر مثل ذلك في سورة الأعراف عن فرعون وملئه مع موسى -عليه السلام- ومن معه ﴿...وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(131)﴾.

كما ذكر مثله في سورة النساء عن اليهود ومنافقي العرب مع سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام:﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا(78)﴾ .

واللام في(لئن)لام القسم دخلت على (إن) الشرطية، وكذلك اللام في (لنرجمنكم) وفي (ليمسنكم) دخلت على فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد الثقيلة فبني معها على الفتح.

وكل من الفعلين جواب القسم اكتفى به عن جواب (إن) الشرطية حسب القاعدة النحوية.

وتقدير الكلام: نقسم بالله -إن لم تنتهوا- لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم.و(تنتهوا) بمعنى تكفوا أنفسكم عما جئتمونا به .

و(الرجم) معناه الرمي بالرجام وهي الحجارة التي قد تؤدي إلى القتل المهين.

و(المس بالعذاب) قد يكون بالضرب المبرح، أو الصلب أو غير ذلك من أنواع التعذيب المؤلم.

ومعنى الآية: أن أصحاب القرية لما عدموا الحجة التي يردون بها على دعوة الرسل الثلاثة لجأوا إلى التخريف المتمثل في التشاؤم منهم، وإلى التهديد باستعمال العنف معهم! وهذا دأب الطغاة على مر العصور حين يُعوِزُهم الدليل المقنع يلجأون إلى العنف أو التهديد به. ومن هؤلاء الطغاة قوم نوح الذين قالوا له: **﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ(116) ﴾** سورة الشعراء، وقوم شعيب الذين قالوا له: **﴿... وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾** هود91.

وآزر الذي قال لابنه إبراهيم عليه السلام: **﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾** مريم46.

وقوم أصحاب الكهف الذين قالوا عن طغاة قومهم: **﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ...﴾** الكهف 20.

وأخيرا حدث ولا حرج عما لاقاه خاتم النبيئين من أذى قريش وسائر العرب؛ فقد شتموه وعيَّروه وحاصروه مع أصحابه في شعب أبي طالب وقاطعوه مع عشيرته ثلاث سنوات ذاقوا خلالها وطأة الجوع والعطش ورموه بالحجارة حتى أدموا عراقيبه، وألقوا على ظهره الفرث وهو ساجد لله في بيت الله الحرام وتآمروا على سجنه أوقتله أو إخراجه من بلده ثم تحالفوا مع اليهود في يثرب على حربه، وتمالئوا على استئصال الإسلام من جزيرة العرب (كما يتمالأ الآن اليهود والمتهودون وعملاؤهم على إفراغ الإسلام من محتواه الذي من شأنه أن يبعث

العزة والكرامة في نفوس معتنقيه، ويضغطون ضغوطا ملحة ووقحة على الدول الإسلامية في العالم ليغيروا مناهج التعليم في بلادهم، وذلك بحذف كل النصوص الشرعية التي تحيي في نفوس الشباب روح المقاومة للعدو الأجنبي، وتحفظهم من الوقوع فريسة سائغة للظالمين المحتلين لبلادهم، وتجعلهم يأبون الخنوع والتبعية لغيرهم!)

وبما أن العلماء العاملين هم ورثة الأنبياء والمرسلين فقد نالهم ما نالهم من صنوف المكر والأذى؛ فكم من عالم اضطهد أو أهين في عرضه وشرفه أو عذب في غيابات السجون أو اغتيل أو سمم أو قتل علانية لأنه صدع بكلمة حق عند طاغية مستبد.

وهذه سنة الله في خلقه: معركة دائمة بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. والعاقبة عند ربكـ للمتقين.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (18)﴾

الجمل الثلاث ردٌّ من الرسل عليهم السلام على تطير أصحاب القرية بهم، وتهديدهم بالرجم والتعذيب.

وقول الرسل: طائركم معكم معناه: شؤمكم وما وقع لكم ليس بسببنا ولكن بسبب كفركم ورفضكم للحق فشؤمكم مصاحب لكم.

وقولهم: أئن ذكرتم، الهمزة للاستفهام، دخلت على (إن) الشرطية و (ذكرتم) فعل الشرط وجواب الشرط محذوف ، وتقدير الكلام: أئن ذكرناكم ووعظناكم تطيرتم بنا وهددتمونا؟ وكان الأجدر بكم أن تكرمونا وتشكرونا، وتتبركوا بدعوتنا إياكم لعبادة ربكم والإقلاع عن عبادة أوثان لا تنفع ولا تضر.

وقولهم:﴿ **بل أنتم قوم مسرفون**﴾ الإسراف المفهوم من (مسرفون)معناه مجاوزة الحد في الطغيان والتمرد على الخالق العظيم.

و(بل) حرف أفاد الإضراب عما اقتضته جملتا الشرط وهو كون التذكير سببا للتطير أي ليس الأمر كما تصورتم، وإنما إسرافكم في الطغيان هو الذي جعلكم تهرفون بما لا تعرفون.

قوله تعالى:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(19)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(20)﴾

المدينة المذكورة في هذه الآية هي القريـة التي ورد ذكرها سابقا في قوله ﷻ ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية...﴾ عبر عنها هنا بالمدينة على سبيل التفنن. والله أعلم.

و﴿أقصى المدينة﴾ : أبعد مواضعها أو أطرافها .

ومن ذلك (المسجد الأقصى) وهو المسجد الأبعد بالنسبة إلى المسجد الحرام في مكة، وبينهما المسجد النبوي في المدينة المنورة. قال الله -تعالى- في سورة الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...﴾1 .

ومؤنث الأقصى: القصوى ومنه قوله ﷻ في سورة الأنفال: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا، وهم بالعدوة القصوى ...﴾.

والصفة المشبهة من قصا يقصو أو قصِي- يقصَى قَصيٌّ . ومنه قوله ﷻ في سورة مريم: ﴿... فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا(22) ﴾.

ولم يذكر في الآية اسم هذا الرجل الذي جاء يسعى ولو كان في ذكر اسمه عبرة لذكره. إذاً لا فائدة في البحث عنه.

و (يسعى) مضارع: سعى بمعنى مشى مسرعا؛ فهو جاد في سيره إلى قومه لينصحهم بتصديق رسل الله إليهم لأنه تيقن صدقهم بسبب ما أدركه فيهم من دلائل الحق، وبما يكون قد شاهده من كرامات ظهرت على أيديهم فلم يشأ أن يقبع في بيته ويقول علي بخاصة نفسي.

ولعل هذا الرجل سمع بتهديد قومه للرسل فعزم على إنقاذهم من الموت أو التعذيب، وإنقاذ قومه من العقاب الإلهي المدمر لهم.

ومثله في ذلك مؤمن آل فرعون حين خاطبهم بقوله: ﴿يَاقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾غافر29.

وقد استعمل الرجلان الأسلوب الذي تقتضيه الحكمة وهو مخاطبة كل منهما قومه بقوله: يا قوم ليبين لهم أنه منهم، ومن ثم لا يبغي لهم إلا الخير.

﴿اتبعوا من لا يسألكم أجرا، وهم مهتدون﴾

أكد دعوته إياهم توكيدا لفظيا (اتبعوا) لينبههم إلى أن هؤلاء الرسل لا يطلبون منهم أجرة على تبليغ رسالة ربهم إليهم.

وهو ما أمر الله به نبيه محمدا ﷺ أن يقوله لقومه: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ الشورى 23.

ومن قبله: هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هود 51؛ ومن قبله نوح عليه السلام:﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ هود 29.

وقد أخبر الرجل الناصح قومه بأن هؤلاء الرسل مهتدون. وإذا كانوا مهتدين فلا يدعون إلا إلى الهدى.

قوله تعالى:

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21)﴾

استعمل هذا الرجل الناصح لقومه أسلوب الاستفهام الإنكاري على نفسه. والمعنى أي شيء حصل لي حتى أمتنع من عبادة الله الذي فطرني أي أنشأني وأوجدني من العدم. وصيغة الاستفهام هذه تشي بأن قومه قد أنكروا عليه إيمانه بالرسل الذين نصحوه بعبادة الله وحده دون سواه.

ثم إن هذا الرجل وعظ قومه وذكرهم بأنهم سوف يرجعون إلى خالقهم يوم القيامة فيحاسبهم على عدم الاستجابة لرسله إليهم.

ومن أوجه البلاغة في الآية الكريمة ما يسمى الاحتباك وهو أن يحذف من الأول نظير ما أثبت في الآخر.

والأصل: وما لي لا أعبد الذي فطرني وفطركم، وإليه ترجعون وأرجع.

قوله تعالى:

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ(22)إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(23)إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(24)﴾

استعمل الرجل المؤمن الاستفهام الإنكاري أيضا مع نفسه بقول: ءاتخذ من دونه آلهة؟ أي هل أجعل لنفسي آلهة من دون الله إن يصبني ربي بمكروه لا تفدني شفاعتهم لي عنده بشيء؟ ولا يخلصوني من عقابه؟ والحق أنه لا شفاعة لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولا قدرة لهم على إنقاذ أحد، فهم أحقر من ذلك.

ومثل الآية قوله ﷻ في سورة الزمر:﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(38)** ﴾.

وقوله: ﴿**إني إذا لفي ضلال مبين**﴾

هو جواب لنفسه عن سؤاله السابق أي إني إن اتخذت آلهة من دون الله أكون في خطأ بيّن.

﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾.

مضمون هذه الآية هو نتيجة نهائية لكلامه معهم، وإعلان صريح عن إيمانه بالله الذي هو ربه وربهم، ودعوة لهم أن يسمعوا نصيحته سماع قبول فيؤمنوا كما آمن.

وفي قراءة نافع حُذفت ياء المتكلم من فعل الأمر (اسمعون) كما حذفت من الفعل المضارع (ينقذون) والأصل (اسمعوني) و (ينقذوني).

وكيف كانت نهاية هذا الرجل الصالح؟

يقال إنهم وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه!

قوله تعالى:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(25)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(26)﴾

كان آخر كلام الرجل الصالح لقومه: (إني آمنت بربكم فاسمعون) فهل سمعوا نصحه وقبلوه؟ أو أعرضوا عنه وآذوه ؟ شانهم في ذلك شأن المستكبرين؟

هاتان الآيتان تدلان على أنهم قتلوه، فمات من أجل مناصرته للحق، فألحقه الله ﷻ بالشهداء الذين هم عند ربهم يرزقون؛ والتعجيل بإدخاله الجنة، والإخبار عنه بأنه تمنى أن يعلم قومه بغفران الله لذنوبه، وجعله من المكرمين، كل ذلك يدل على استشهاده في سبيل الله.

وقد ذكر المفسرون لكيفية قتله روايات مختلفة، منها ما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصبه من دبره، وألقوه في بئر) ومنها أنهم حفروا له حفرة، ثم ردموه فيها حيا، ومنها أنهم أحرقوه حيا. وأيّامّا كانت كيفية قتله فهو شهيد.

ولفظ (قيل) محوَّل عن (قُوِل) المبني للمجهول، وعليه فمَن هذا القائل الذي لم يذكر؟

يحتمل أن الآمر بذلك هو الله ﷻ والظاهر أنـه أمر تكويني، وهو الناشـئ عن قولـه –تعالى– للشيء: (كن فيكون) كما يحتمل أن الآمر بذلك ملائكة الرحمن الذين يبشرون المؤمنين المستقيمين بالجنة عند الاحتضار أو عند البعث وهو مصداق قوله ﷻ في سورة فصلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32)**﴾ .

و (ليت) حرف يدل على التمني.

و (يـا) قبلها للتنبيه.

و(ما) مصدرية يسبك الفعل بعدها بمصدر هو: الغفران المصوغ من (غفر) وموقعه من الإعراب الجر بالباء وتقدير الكلام: يا ليت قومي يعلمون بغفران الله لذنوبي وجعلي من المكرمين.

والمكرمون: هم الذين أكرمهم الله ﷻ أي منحهم الكرامة وعلو المنزلة، جعلني الله وإياكم منهم.

ولنا أن نتساءل:لم تمنى هذا الرجل الصالح أن يعلم قومه بحاله عند الله – تعالى؟

الظاهر أنه رغب في ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله.

والعبرة التي نستخلصها من قصة هذا الشهيد أن الذين يجهرون بكلمة الحق، ويصبرون على ما ينالهم في سبيلها من أذى، ولو أدى بهم إلى القتل هم – عند الله– من المكرمين المحظوظين لديه.

قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(27) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(28)﴾

في الآية السابقة (قيل أدخل الجنة) بين الله –تعالى– لنا ما كان من أمر هذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى إلى قومه، وفي هاتين الآيتين أخبرنا بأنه أنزل بقومه عقوبة الاستئصال وهي إفناؤهم عن آخرهم دون أن يتطلب منه

الأمر إنزال جند من السماء يحاربونهم لأن سنته في عقوبة الأمم العاتية لم تجرِ بذلك، وإنما كانت عقوبتهم بصيحة واحدة أمر جبريل عليه السلام بإطلاقها عليهم ففاجأهم التدمير.

وقوله (من بعده) أي من بعد موته، وهذا كقول يعقوب النبي لبنيه: ﴿ما تعبدون من بعدي﴾ سورة البقرة.

وقوله ﷻ ﴿ من جند ﴾ أفادت (من) تأكيد العموم في معنى: جند، وهكذا هي إذا وقعت في سياق النفي، والنفي هنا بـ(ما) في (ما أنزلنا)

ولولا قصد التوكيد لانتصب لفظ (جند) على أنه مفعول أنزل؛ وقوله تعالى ﴿ **وما كنا منزلين** ﴾ اعتراض بين نفي إنزال جند من السماء، وبين إثبات العقوبة.

وفائدة الاعتراض الإعلام بأن الله تعالى ليس من عادته إنزال الملائكة لإهلاك القوم الظالمين، وإذا أزلنا هذا الاعتراض صار التركيب هكذا ﴿**وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون**﴾

وقد ذكر الله في كتابه العزيز نماذج من إهلاك العصاة فقال في سورة العنكبوت:﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (كقوم لوط عليه**

السلام) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (كثمود وأصحاب القرية) وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (كقارون) وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا (كفرعون وجنوده، وقوم نوح) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾40.

وقال في سورة الحاقة:﴿ ...وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)﴾.

و(إن) في قوله ﷻ ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ نافية واسم كان ضمير مستتر يعود إلى العقوبة التي لم تذكر في الكلام، و (إلا) أداة استثناء ملغاة، و(صيحة) خبر كان وتقدير الكلام: ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة صاحها جبريل بهم فعجلت بخمودهم.

و الخمود -في أصل وضعه- للنار. يقال: خمدت النار تخمد-خمودا: إذا انطفأت.

وإذا استعمل الخمـود في وصف الآدميين فهو على سبيـل الاستعارة؛ فقد شبهت -هنا- حياة القوم المتصفة بالقوة والطغيان بالنار القوية الملتهبة، وشبهت موتتهم بخمود النار وهمودها.

والإتيان بـ(إذا) الفجائية يدل على سرعة خمودهم؛ فما كادت الصيحة تقع عليهم حتى كانوا خامدين.

ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنبياء عن القوم الظالمين الذين استوجبوا العقوبة الشاملة:﴿... فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ(15)﴾

تنبيـــه:

قد يتساءل القارئ فيقول: كيف نوفق بين هذه الآية التي تنفي إنزال الملائكة لعقوبة الكافرين المكذبين لرسلهم وبين آيات أخرى تثبت إنزالهم، منها قوله –تعالى– في سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(9)﴾ .

والجواب: إن الملائكة الذين أنزلهم الله في غزوة بدر لم ينزلهم من أجل استئصال كفار قريش وإفنائهم وإنما أنزلهم من أجل تثبيت المؤمنين، وتقوية عزائهم، ومشاركتهم أيضا في القتال مشاركة يعلم حقيقتها القاضي بها وذلك إكراما للنبي ﷺ والمجاهدين معه في سبيل الله.

قال الله ﷻ في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(12)ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(13)﴾.

قوله تعالى:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(29)﴾

﴿يا حسرة﴾ يـا: حرف نداء و(حسرة) منادى (من قسم الشبيه بالمضاف) فهو منصوب.

و(الحسرة): هي الغم الذي يصيب الإنسان من جراء الندم الشديد على نفع فاته.

و الحسرة في الأصل لا تنادى لأنها معنى من المعاني وإنما الذي ينادى هو الإنسان الذي يفهم الخطاب، ولكن استعير لها النداء تنزيلا لها منزلة من يعقل كأنه يقول: يا حسرة هذا أوانك فاحضري.

و(العباد) جمع العبد ويجمع أيضا على العبيد.

غير أن العرف الاجتماعي خص العبيد بالمملوكين من بني آدم، وبقي لفظ (العباد) يشمل جميع الآدميين ، والمراد (بالعباد) هنا: جميع المكذبين بالرسل ومنهم أصحاب القرية الذين ضرب بهم المثل، وكفار قريش .

وبما أن الحسرة انفعال نفساني في داخل الإنسان فالله ﷻ منزه عنها، ولكنه يخبرنا بأن حالة هؤلاء المكذبين لرسلهم تستدعي حسرتهم من حيث إن تكذيبهم يؤدي بهم إلى العذاب يوم تقوم الساعة بعد العذاب الذي ذاقوه في الدنيا. قال الله

ﷻ في سورة الأنعام: ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها...**﴾32.

وهكذا يكون مصير كل من أعطاهم الله ﷻ فرصة للعمل بما يرضيه ويجنب سخطه ولكنهم لم يستفيدوا منها، كما جاء في القرآن الكريم عن أهل النار في سورة فاطر:﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**(36)**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**(37)﴾.

وقد سمى الله يوم القيامة يوم الحسرة (بالنسبة للظالمين) حيث يقول في سورة مريم:﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾30.

وكلمة (رسول) مجرورة في اللفظ بـ(من) ولكنها في المعنى فاعل بـ(يأتي) مؤخر عن مفعوله الذي هو ضمير الغائب (الهاء في يأتيهم) والتقدير: ما يأتيهم رسول.

وزيادة (من) في سياق النفي تفيد العموم أي مهما يبعث الله إليهم أي رسول يكذبوه ويستهزئوا به.

وتقديم الجار والمجرور (به) على العامل (يستهزئ) يراد به الاهتمام بالرسول، مع مراعاة الفاصلة.

والخلاصة أن الجملة الأولى في الآية أفادت وقوع التحسر من المتحسرين، والجملة الثانية بينت سبب هذا التحسر وهو الاستهزاء بالرسل.

وهل سَلِم خاتم الأنبياء من استهزاء المشركين؟ كلا فقد ناله من استهزاء المشركين في مكة المكرمة، واستهزاء اليهود والمنافقين في المدينة المنورة الشيء الكثير.

ومن يقرأ القرآن الكريم وسيرة النبي محمد ﷺ يقف على ألوان الاستهزاء الذي كان مسلطا عليه وعلى أصحابه. قال الله ﷻ في سورة الأنبياء:﴿ **وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾36.

وفي سورة الفرقان: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا(41)إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا...**﴾ 40-41.

قوله تعالى:

﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ(30)**﴾

الاستفهام في (ألم يروا) تقريري لأنه يحملهم على الإقرار أي الاعتراف بأنهم رأوا.والرؤية هنا ليست بصرية لأن المعنيين بالكلام وهم الكافرون

الحاضرون الذين لم يصبهم عذاب الله لم يكونوا يشاهدون بأعينهم ما وقع للمهلكين قبلهم وعليه فالرؤية -هنا- علمية أي (ألم يعلموا؟)

والجواب أنهم علموا ذلك بواسطة الأخبار المتداولة على مر العصور.

وضمير الغائب وهو الواو في (ألم يروا) يعود إلى العباد المذكورين في الآية السابقة.

و (كم) خبرية تدل على كثرة الإهلاك في الأمم المتمردة على رسلها. وهي مفعول مقدم لفعل (أهلك).

و (القرون) جمع قرن، ويطلق على المدة الزمنية الطويلة كما يطلق على الأمة التي تعيش في تلك المدة. وهو المراد هنا. وقد ورد في غيرما آية لفظ القرون مرادا به الأمم من ذلك قوله في سورة الإسراء﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**(17)﴾ .وفي المؤمنون: ﴿... **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**(31) ﴾.

والضمير في (أنهم) يعود إلى القوم المهلكين، وفي (إليهم) يعود إلى القوم الكافرين الذين لم يصبهم الهلاك، ومنهم كفار قريش الذين كانوا يناصبون محمدا ﷺ والمؤمنين معه العداء.

ومعنى عدم رجوع المهلكين إليهم عدم رجوعهم إلى الحياة الدنيا لتدارك ما فاتهم من الإيمان ومقتضياته هذا التدارك الذي يطلبه كل واحد منهم عند الغرغرة ولكنه لا يمكّن منه، كما ورد في قوله ﷻ: ﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت قال: رب ارجعون، لعلي اعمل صالحا فيما تركت**﴾ فيقال له: ﴿كلا﴾ أي لا رجوع، ثم يؤكد الله ﷻ هذه المقولة التي يقولها المحتضر:﴿ **إنها كلمة هو قائلها**﴾ المؤمنون 110-111.

فالذين ماتوا لا تعود إليهم الحياة إلا في الدار الآخرة.

وموقع جملة ﴿**أنهم إليهم لا يرجعون**﴾ من الإعراب أنها بدل اشتمال من جملة ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ كأن إهلاكهم يشتمل على عدم رجوعهم.

وقد استدل العلماء الأجلاّء **رضي الله عنهم** بهذه الآية الكريمة على عدم رجوع الأموات إلى الحياة الدنيا.

وممن نص على ذلك الإمـام أبو عبد الله محمد القرطبي في تفسيره لهذه الآية. قـال –رحمه الله–: (وهذه الآية رد على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت) قلت: (ما يدعيه بعض الناس أو يدعيه له بعض البسطاء المغفلين من أنه تكلم مع أحد الأموات، أو أخرج له يده من قبره ليصافحه" هو من الأقاويل الخرافية التي أنشأها في نفوس أصحابها وَلَعُهم بالكرامات الزائفة،

وعدم شعورهم بأنهم سوف يحاسبون يوم القيامة على ما تلفظه ألسنتهم من أقوال يضللون بها الأمّيِّين، وأشباه الأميين).

نعم هناك كرامات حقيقية يمنحها الله ﷻ لبعض أوليائه الصادقين، ولكنهم لا يعلنونها لصدق تعبدهم، وصواب توجههم، وإذا أعلنت فلا تقدح في إخلاصهم لربهم.

ومن السخافات التي مازال الناس يتندرون بها في مجالسهم ويتداولونها بمرارة في أحاديثهم أن بعض أولياء الشيطان يستعينون على ما يزعمونه من كرامات بشياطين الجن والإنس ليخدعوا عوام الناس، ويضمنوا ولاءهم الروحي والمادي، وكفى بذلك زيفا وإثما ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(31)﴾

(إن) مخففة من الثقيلة (إنَّ) لا تعمل في هذا الموضع أي لا تنصب الاسم وترفع الخبر.(كل) مرفوع على أنه مبتدأ؛ وتنوينه تنوين العوض أي حذف المضاف إليه، وعوض بالتنوين في المضاف (وهو كل) وتقدير **الكلام ﴿ وإن كل قوم...﴾**.

و(لما) قرأت بالتخفيف وبالتشديد.

فعلى قراءة التخفيف: اللام هي اللام الفارقة التي تفرق بين (إن) المخففة من الثقيلة و (إنْ) النافية، و(ما) زيدت لتأكيد الكلام.

وجميع (بمعنى مجموعون) خبر المبتدأ. والتقدير: إن كل قوم مجموعون لدينا...

وعلى قراءة التشديد (لما): بمعنى إلا الاستثنائية و (إن) قبلها نافية بمعنى ما. والتقدير: وما كل قوم إلا مجموعون لدينا...

و (لدينا) بمعنى عندنا أي عند الله تعالى.

﴿ محضرون﴾ اسم مفعول من (أُحضر) أي يحضرهم الله ﷻ من قبورهم إلى أرض المحشر للمحاسبة ثم الجزاء.

وفي هذه الآية ما يسمى في علم البلاغة بالاحتراس وهو -هنا- إزالة الوهم الذي قد يسبق إلى الأذهان من قوله -تعالى- ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ فيتوهمون أن لا رجوع إلى الله في الدار الآخرة فأزيل هذا الوهم بهذه الآية .

ورحم الله من قال:

ولو أنـا إذا متنـا تـركنـا   لكان الموت راحـة كـل حـي

ولكنا إذا متـنـا بـعـثـنا   ونسأل بعـده عـن كـل شـــي

قوله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(32)وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ(33) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(34)﴾

المناسبة:

في الآية السابقة أثبت الله ﷻ رجوع كل العباد إليه يوم القيامة ليحاسبهم. وفي الآيات اللاحقة أقام الأدلة القاطعة على قدرته التامة على إحيائه إياهم وإحضارهم لديه.

شرح الألفاظ:

الآية (وجمعها آيات) هي العلامة الظاهرة التي تدل على شيء مَّا كقولك مثلا: التزام المسلم بشريعة الله آية على تقواه. وهي –هنا- بهذا المعنى؛ فإحياء الله الأرض بعد موتها آية على قدرته على إحياء العباد بعد موتهم.

ولكن حينما نستعرض القرآن الكريم من أوله إلى آخره نجد الآيات مستعملة فيه أيضا بمعنى الكلمات أو الجمل أو الفِقَر القرآنية التي تحمل الهداية السماوية إلى البشر، كِقوله في سورة الحديد: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(9)﴾.

كما استعملت فيه الآية أيضا بمعنى العبرة، كقوله في سورة آل عمران:﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ(13)﴾.

وقد وردت الآية بمعنى البناء العالي. قال الله ﷻ في سورة الشعراء يخاطب قوم هود عليه السلام: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128) ﴾.

وجاءت بمعنى الأمر الخارق للعادة الذي لا يستطيع البشر أن يفعلوه أو يأتوا بمثله، كانشقاق القمر مثلا. قال الله ﷻ في سورة القمر﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ(1)وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ(2)﴾. وفي سورة البقرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ...﴾ 117.

والضمير في (لهم) - يعود إلى كفار قريش.

و (الأرض الميتة) (بتشديد الياء أو تسكينها) هي الأرض اليابسة التي لا نبت فيها، فإذا شاء الله إحياءها أنزل عليها المطر فأنبتت من كل زوج بهيج. قال الله -تعالى- في سورة النحل:﴿ وَاللهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(65) ﴾.

وفي سورة النحل أيضا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)﴾ .

و(الحَب) اسم جمع واحده: حبة، وهو يشمل أنواعا كثيرة كالقمح والشعير والأرز؛ و(الجنات) جمع مؤنث سالم مفرده جنة وهي البستان.

و(تفجير العيون) إخراج المياه من جوف الأرض في هيئة عيون وأنهار.

و(اللام) في (ليأكلوا) لام التعليل.

وضمير الغائب في (ثمره)يعود إلى المذكور من النخيل والأعناب، وذكر تفجير العيون بين الضمير العائد والمعود إليه يشير إلى حقيقة ثابتة وهي توقف حياة النخيل والأشجار والحبوب على وجود الماء، ضرورةَ أن كل شيء حي كوّن الله حياته من الماء كما جاء في القرآن الكريم: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ الأنبياء** 30.

و(ما) في : (ما عملته أيديهم) يصح أن تكون اسم موصول والجملة بعدها صلتها، وتقدير الكلام:...ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا -أيضا- من الذي عملته أيديهم أي صنعته من زرع وغرس وخبز الخ.

كما يصح أن تكون (ما) نافية، وتقدير الكلام ليأكلوا من ثمره،وهذا الثمر لم تعمله أيديهم وإنما عمله الله وأنشأه لهم **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾** النحل18.

﴿أفلا تشكرون﴾: الهمزة استفهامية دخلت على جملة محذوفة والفاء عاطفة جملة لا(تشكرون) على تلك الجملة المحذوفة وتقدير الكلام: أتنعمون بما رزقكم الله فلا تشكرونه عليه؟

وخلاصة معاني الآيات: أن الله –تبارك وتعالى- لفت أنظار عباده إلى الأرض تكون ميتة يابسة لا نبت فيها فينزل عليها المطر فتخرج ما في بطنها من مكنونات في بذورها المختلفة، فتصير الأرض مخضرة بكل لون بهيج، وذلك هو معنى إحيائها بعد موتها.

فإحياء الأرض بعد موتها آية وعلامة ظاهرة على أن الذي يقدر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء البشر بعد موتهم، ومن ثم محاسبتهم ومجازاتهم.

وفي ضمن هذه الآيات الدالة على قدرة الله –تعالى- على البعث والنشور آيات أخر على لطفه بعباده، ورحمته إياهم من حيث إنه فجر لهم العيون التي يشربون منها، وتشرب دوابهم ويسقون أشجارهم، وأخرج لهم من الأرض ما يتقوتون به، ويحافظون على حياتهم من حبوب وثمار.

قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(35)﴾

لفظ (سبحان) من التسبيح، ومعناه التقديس أي تقديس الله، وتنزيهه عما لا يليق به من الأوصاف، واقبح الأوصاف التي لا تليق بجلال الله أن يجعل الناس له شريكا في ملكه.

ورد في الصحيحين عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: (قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال : أن تجعل لله ندا، وهو خلقك).

وعن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: (ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله ندا؟ قل ما شاء الله وحده) رواه النسائي.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ قال: (لا يقولن أحدكم ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن ليقل: ما شاء الله، ثم شاء فلان) .

وفي إضافة (سبحان) إلى الموصول وصلته (الذي خلق) إشارة إلى سبب استحقاقه للتسبيح والتعظيم وهو هذا الإبداع العجيب، والإتقان الفريد في إيجاد الأشياء كلها على قاعدة الزوجية؛ في الإنسان والحيوان والنبات وفي غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله.

وصدق الله العظيم في قوله:﴿... صنع الله الذي أتقن كل شيء... ﴾ النمل90، و﴿...الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ السجدة 6.

و (الأزواج): جمع مفرده: زوج، وهو أحد القرينين المتشابهين؛ كالذكر والأنثى في بني آدم، وفي الدواب وفي الحيتان، وفي ما تنبته الأرض، وفي الكهرباء (الموجب والسالب) وفي غير ذلك مما أبدعه الخالق ﷻ؛ قال الله ﷻ في سورة الذاريات: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(49)﴾ وفي سورة طه: ﴿وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى(53)كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى(54)﴾ وفي سورة ق:﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(7)﴾

وفي الآية إيماء إلى أنه ﷻ هو الوحيد الذي يستحق كل الاستحقاق أن يعبده البشر، ويخضعوا لتعاليمه ضرورة أنه الخالق العظيم لكل شيء في الأرض والسماء، قال ﷻ في سورة لقمان:﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(11)﴾. وفي سورة الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(4)وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ

مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(5)وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ(6)﴾.

قوله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ(36)﴾

جملة (**وآية لهم الليل**) معطوفة على جملة (وآية لهم الأرض) .

و(نسلخ) مضارع سلخ، والأصل في السلخ أن يكون في الحيوان، وهو إزالة جلده وكشطه عنه؛ فاستعماله في إزالة ضوء النهار عن ظلام الليل هو على سبيل المجاز.

و(مظلمون) اسم فاعل من (أظلم) إذا دخل في الظلام كقول العرب: أصبح: إذا دخل في الصبح، وأشأم أو اعرق إذا دخل الشام أو العراق.

و(إذا): فجائية تدل على مفاجأة الظلام لسكان الأرض والمراد: اتصال الظلام بذهاب الضوء.

والفاء: تفريعية؛ فقد فرعت الدخول في الظلام على سلخ النهار من الليل.

والمعنى إن من الآيات الدالة على قدرة الله التي لا حد لها تعاقب الليل والنهار بحيث إذا ذهب النهار جاء الليل، وإذا جاء النهار ذهب الليل. كما قال الله تعالى في سورة الفرقان: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ**

أَرَادَ شُكُورًا(62) ﴾، وفي سورة الأعراف:﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ...54﴾ وفي سورة الزمر: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى6﴾.

وبهذا التعاقب بين الليل والنهار يحصي الناس عدد الأيام والأسابيع والشهور والأعوام كما قال ﷻ في سورة الإسراء: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ...﴾ 12.

وإذا كان الليل والنهار آيتين دالتين على قدرته التامة الشاملة ومن ثم قدرته على البعث والنشور فإنهما أيضا تدلان على لطف الله بعباد، ورأفته بهم كما جاء في سورة القصص:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ(71)قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(73) ﴾.

قوله تعالى:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(37)﴾

(والشمس) معطوفة على (الليل) أي وآية لهم الشمس.

وجملة ﴿تجري... ﴾ في موقع الحال أي وآية لهم الشمس في حال جريانها في مدارها المرسوم لها؛ وقد اكتشف العلماء أن للشمس دورتين تجري فيهما بسرعة هائلة: دورة حول محورها أي حول نفسها ودورة في المدار الذي خصصه لها موجدها، وهو الله عز وجل، وهي تشرق علينا كل يوم أول النهار، وتغرب آخره وتتحول في شروقها وغروبها من مكان إلى مكان من جوانب الأرض (وذلك في مرأى العين) وبذلك يطول النهار ويقصر الليل، ثم يقصر النهار ويطول الليل، وتنقُّل الشمس في شروقها وغروبها هو الذي يفسر لنا التعبير القرآني المختلف من حيث الصيغ؛ فقد جاء في سورة المزمل قوله ﷻ ﴿رب المشرق والمغرب﴾، هكذا في صيغة المفرد، وجاء في سورة الرحمن قوله :ﷻ ﴿رب المشرقين، ورب المغربين﴾ هكذا في صيغة المثنى وجاء في سورة المعارج: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ هكذا في صيغة الجمع.

وسبب ذلك اختلاف مطالع الشمس ومغاربها؛ فصيغة المفرد باعتبار الجهة الكلية للشرق والغرب دون مراعاة الفصول الزمنية والأيام.

وصيغة المثنى باعتبار مشرق الشمس ومغربها صيفا وشتاء، وصيغة الجمع باعتبار مشرقها ومغربها يوميا وأرضنا هذه التي نعيش عليها هي من مجموعة الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس.

وكما أن للشمس دورتين فإن للأرض دورتين أيضا دورة حول محورها يتكون من إتمامها الليل والنهار، ودورة في مدارها حول الشمس تتكون منها السنة الشمسية، واللام في ﴿لمستقرها ﴾ يصح اعتباره بمعنى (إلى) كما يصح اعتباره تعليليا في معنى العاقبة والصيرورة

و(مستقر) اسم مكان أو زمان مشتق من فعله (استقر) للدلالة على مكان الاستقرار أو زمانه. وعليه فإذا كان المقصود مكان استقرارها فهو مكان غروبها كل يوم وإذا كان المقصود زمان استقرارها فهو يوم القيامة حين ينتهي جريها، وينطفئ نورها، كما قال الله ﷻ في سورة التكوير﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2)**﴾.

ويرجِّح هذا التأويل قوله ﷻ في سورة الزمر: ﴿...**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى** (6) ﴾. و الأجل المسمى هو الوقت المعين الذي ينتهي فيه جريها وهو يوم القيامة. والله اعلم بمراده.

والإشارة بـ﴿ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ إلى جري الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار.

وتقدير الشيء جعله يسير وفق تنظيم مضبوط .

و﴿العزيز العليم ﴾ من أسماء الله الحسنى وقد جيء بهما هنا في هذا التعقيب لأن العزة أي القوة والغلبة هي التي تتناسب مع تسخير الشمس والقمر، وإخضاعهما لمشيئته تعالى، ولأن العلم الإلهي المحيط هو الذي يتناسب مع دقة النظام الكوني البديع. والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(38)﴾

﴿والقمر ﴾ معطوف على (الشمس)مرفوع، وهي قراءة نافع، وقرئ منصوبا على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره ما بعده فهو من باب الاشتغال أي قدرنا القمر، وهي قراءة عاصم.

و﴿منازل ﴾ ظرف مكان منصوب، أي قدرنا سير القمر في منازل.

ومنازل القمر: مواقعه، وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل كل ليلة في واحد منها، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما، وليلة واحدة، إن كان تسعة وعشرين.

وتقدير القمر في منازله: جعل سيره فيها بتقدير مضبوط وتنظيم محكم.

والقمر -في أول ظهوره- يكون هلالا (دقيقا مقوسا) تم يستمر في الزيادة حتى تتم استدارته، ويكتمل نوره المستمد من الشمس في الليالي البيض وهي الليالي: الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة.وحينئذ يسمى بدرا، وبعد منتصف الشهر يبدأ في التناقص والتقوس حتى يصير شبيها بالعرجون كحالته الأولى.

وعرجون النخلة هو القضيب الذي يخرج من قلب النخلة حاملا القنو أوالعِذق الذي يتكون من الشماريخ الحاملة للتمر.

وبإتمام القمر دورته في منازله يتكون الشهر القمري وبتمام اثني عشر شهرا تتكون السنة القمرية وبذلك نعرف عدد الشهور والسنين والحساب كما جاء في القرآن الكريم : ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء، والقمر نورا، وقدره منازل، لتعلمون عدد السنين والحساب**﴾ سورة يونس، و﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ سورة البقرة 188 .

وقد قال رسول الله ﷺ:(جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيتهن وأفطروا لرؤيتهن، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما). رواه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله تعالى:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(39)﴾

﴿ينبغي ﴾ مضارع ﴿انبغي ﴾ على وزن (انفعل) الذي يدل على المطاوعة، فالعرب يقولون: بغى الشيء- يبغيه إذا طلبه فانبغى له بمعنى تحقق له ما طلبه، فإذا أردنا نفي الانبغاء للشيء قلنا لا ينبغي له أي لا يتأتى ولا يتيسر ، فمعنى ﴿**لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر** ﴾: لا يتأتى لها ولا يتسهّل أن تلحق بالقمر وتصطدم به.

وقد وردت هذه الصيغة (لا ينبغي) في القرآن الكريم –غير ما مرة– بمعنى لا يتيسر ولا يليق. ومن ذلك قوله ﷻ في آخر هذه السورة: ﴿**وما علمنا الشعر، ما ينبغي له** (68)﴾ أي لا يليق بمقامه ولا يتسهل له لو أراده.

وفي سورة مريم: ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا(92)﴾، وفي سورة الفرقـان:﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ 18. أي ما كان يليق بنا.

وفي الجملتين الأوليين ما يسمى في علم البلاغة بالاكتفاء والتقدير في الجملة الأولى: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا القمر ينبغي له أن يدرك

الشمس وذلك لما بينهما من الأبعاد السحيقة علاوة على أن كل واحد منهما رسم له خالقه جل وعلا مدارا خاصا به لا يتعداه إلى يوم القيامة حيث تنفطر السماء، وتنشق وتتناثر النجوم بسبب القضاء على الجاذبية التي تربط بعضها ببعض وهو مصداق قوله في سورة الانفطار: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ(1)وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(2) ﴾.

وقد قدر العلماء المختصون المسافة بين أرضنا هذه وشمسنا بنحو ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال، وقدروا المسافة بين الأرض والقمر بنحو مئتين وأربعين ألفا من الأميال؛أما البعد بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم إلينا من المجموعات الأخرى فقد قدروه بنحو أربع سنوات ضوئية. ومعلوم أن سرعة الضوء قدرت بنحو مئة وستة وثمانين ألف ميل في الثانية.

نعم نحن نرى نجوم السماء متقاربة جدا، وصغيرة جدا، ولكن بعدها الهائل عنا هو الذي يصورها لنا كذلك، ولنضرب لذلك مثلا بضعة سفن ضخمة متناثرة في المحيط الهادي أو الأطلسي ألا تراها من بعيد كنقط سوداء؟.

ونعود إلى التقدير في الجملة الثانية ﴿**لا الليل سابق النهار،ولا النهار سابق الليل**﴾ فلا يأتي أيّ منهما قبل وقته المحدد له. الأمر الذي يدل على النظام الدقيق، والصنع البديع الذي يتجلى فيه الإتقان والإعجاز كما قال الله –تعالى– في سورة النمل: ﴿... صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ 88.

﴿ وكل في فلك يسبحون﴾.

(الفلك) المدار الذي يدور فيه النجم. وجمعه أفلاك.

والتنوين في (كل) تنوين العوض، فهو عوض عن المضاف إليه المحذوف، والتقدير: كل واحد من الشمس والقمر والأرض وبقية النجوم يسبح في فلكه كما يسبح الإنسان أو السمك في الماء.

وحق الضمير في ﴿يسبحون ﴾ أن يكون ضمير المثنى فيقال (يسبحان) لأن المذكور قبله مثنى، وهو الشمس والقمر. ولكن أُتي بضمير الجمع لإفادة التعميم أي تعميم السبح لكل الكواكب. وقد نزل غير العقلاء منزلة العقلاء، وإلا فإن ما لا يعقل يعود إليه ضمير الإناث فيقال (يسبحن).

هذا إلى أن نسق الفواصل يلح على استعمال صيغة جمع الذكور ليزداد الكلام حلاوة وطلاوة.

ومن الخصائص اللفظية الموجودة في جملة : "كل في فلك" . أنها تقرأ من آخرها كما تقرأ من أولها.ومثلها في ذلك قوله ﷻ في سورة المدثر:﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3)﴾.

قوله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(40)وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(41)وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ(42)إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(43)﴾

المناسبة: بعد أن ذكر الله ﷻ بعض آياته في الأرض متضمنة بعض مِنَنه على بني آدم ﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾ وذكر بعض آياته في السماء وما فيها من منافع للناس ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار... ﴾ ذكر بعض آياته في البحار مبينة لطفه بعباده ورأفته بهم فقال ﴿وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم في الفلك المشحون... ﴾، وبين الآية السابقة ﴿وكل في فلك يسبحون ﴾ والآيات اللاحقة مناسبة ظاهرة؛ فمنظر النجوم السابحة في الفضاء الواسع يشبه منظر السفن التي تمخر عباب الماء.

شرح الألفـاظ:

﴿ذرياتهم ﴾ هكذا في صيغة الجمع، وهي قـراءة نافـع وقرئت في صيـغة المفـرد (ذريتهم) وهي قراءة عاصم والذرية في الأصل تطلق على الأولاد، ثم صارت تطلق على الرجال أيضا، والمراد بهم هنا ذريات آدم عليه السلام وإنما أضيفت إلى العباد المذكورين قبلا، ومنهم قريش لأنهم من جنسهم.

﴿**الفلك المشحون** ﴾ السفينة المملوءة بالناس والحيوان والأمتعة، ولفظ الفلك يستعمل للواحد، كما في هذه الآيـة، ويستعمل للجمع كقوله –تعالى– في سورة فاطـر: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾13.

و﴿ المشحون ﴾ اسم مفعول مصوغ من شحن – يشحن. يقال: شحن المركب بكذا إذا حمله فيه وامتلأ به ومن ذلك كلمة (الشحناء) وهي العداوة التي تملأ النفس.

والظاهر أن المراد بالفلك –هنا– فلك سيدنا نوح عليه السلام الذي ألهمه الله صنعه، وأمره أن يحمل فيه من كل زوجين اثنين قبل أن يعاقب الكافرين من قومه بالطوفان، كما جاء في قوله :﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**(119)**ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ**(120)﴾ سورة الشعراء 119–120.

وهؤلاء المؤمنون بنوح، الناجون من الغرق هم –والله أعلم– المعنيون بالذريات في الآية المذكورة.

﴿من مثله﴾: من شبيهه. وما المراد من شبيهه؟

يحتمل أن يراد به ما صنعه الناس من السفن بعد سفينة نوح عليه السلام، كما يحتمل أن يراد به الإبل التي تقطع المسافات الشاسعة في رمال الصحراء، وقد وصفها العرب بأنها سفن الصحراء. قال الله –تعالى– في سورة الزخرف:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12)لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13)﴾

وأيامّا كان المراد بـ(من مثله) فالواجب أن نحمد الله على ما أنعم به علينا – معشر بني آدم- بإلهامنا صنع السفن من الألواح، وبتسخير البحار لحملها وأن نشكره على ما تفضل به علينا من خلق الإبل لنا التي تحملنا وتحمل أثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس.

و (الصريخ): رفع الصوت. ومما هو معروف أن الذين يشرفون على الغرق يستغيثون بغيرهم، رافعين أصواتهم ليسمعهم هؤلاء المستغاث بهم فينقذوهم.

والمستغاث بهم –أيضا– يرفعون أصواتهم ملبين طلبهم ، والمراد بالصريخ هنا– هم المستغاث بهم.

و﴿ينقذون﴾ فعل مضارع مبني لما لم يسم فاعله،أي ينقذهم غيرهم وينجيهم من الغرق.

﴿ إلا رحمة منا، ومتاعا إلى حين ﴾. إلا: أداة استثناء والاستثناء هنا مفرغ؛ فما بعد (إلا) يكون موقعه من الإعراب على حسب ما يقتضيه العامل قبلها. وبناء عليه فـ﴿رحمة﴾منصوب على أنه مفعول لأجله.

و﴿متاعا﴾ معطوف عليه. والمتاع: التمتيع بالحياة والنعمة.

ومعنى الجملة: أن الله ﷻ يخبر بأنه إذا أراد إنقاذهم من الغرق فلا ينقذهم إلا من أجل رحمته بهم، وتركهم يتمتعون بالحياة إلى أجل مسمى أي إلى مدة معينة وهي مدة أعمارهم التي قدرها لهم.

وبدهي أن رحمة الله بهؤلاء تتجلى في إسكان البحر وتهدئته لهم ليسلموا.

ونظير هذه الآيات قوله ﷻفي سورة الإسراء:﴿... رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(66)وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا(67)أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا(68)أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا(69)﴾ .

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(44)وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(45)﴾

المناســبة:

في الآيات السابقة (من: وآية لهم الأرض...إلى: حين) بين الله –تعالى– لعباده الأدلة القاطعة الواضحة على وحدانيته وقدرته وحكمته ودقيق صنعه

وعظيم رحمته ولطفه بهذا الإنسان، وفي هاتين الآيتين بين عدم انتفاعهم بالآيات القرآنية التي تتلى عليهم صباح مساء، وعدم اتعاظهم بما حصل للأمم السابقة من عقوبات إلهية جزاء استكبارهم، وتكذيب رسل ربهم إليهم، وهاهم يشاهدون آثار التدمير الذي أصاب قوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ويمرون عليها، وهم عنها غافلون، كما جاء في غير ما آية من القرآن الكريم، منها ما نقرؤه في سورة غافر: ﴿ **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ(21)ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(22)** ﴾ .

شـرح الألفـاظ:

﴿قيل﴾: فعل ماضي مبني لما لم يسم فاعله. والقائل هو الله ﷻ بواسطة رسوله الأمين.

وضمير الغائب في (لهم) يعود إلى الكفار.

﴿اتقوا﴾: احذروا.

﴿ما بين أيديكم﴾: ما هو قدامكم تشاهدونه بأعينكم وهو أثار العقاب الذي أصاب الأقوام الذين كذبوا رسلهم.

﴿ وما خلفكم ﴾: ما وراءكم من العذاب الأليم الذي سوف يصيبكم في الدار الآخرة.

و ﴿لعل﴾: حرف يفيد الترجي أي إذا اتقوا ترجى لهم رحمة الله المفهومة من فعل ترحمون المبني لما لم يسم فاعله.

و ﴿إذا﴾: شرطية فعل شرطها (قيل)، وجوابه محذوف (يفهم من الآية الموالية: (معرضين)؛ وتقدير الكلام: وإذا قيل لهم...أعرضوا.

والإعراض عن الشيء: رفضه، وعدم قبوله.

﴿من آية﴾ آية: اسم مجرور لفظا بمن الزائدة من أجل التأكيد وإفادة العموم. وهو مرفوع تقديرا على أنه فاعل مؤخر للفعل (تأتي) وتقدير الكلام: وما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا معرضين عنها، ورافضين لها.

وقدم الجار والمجرور (عنها) مراعاة للفواصل واهتماما بالآيات التي يدل عليها ضمير الغائب في (عنها) .

وفحوى الكلام في الآية الأخيرة أن إعراض الكافرين عن آيات الله هو شأنهم الدائم، ودأبهم المستمر، سواء أكانت آيات قرآنية أو آيات كونية تتجلى في خوارق العادات والمألوفات.

ونظير الآية قوله ﷻفي سورة يوسف:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106)﴾ ؛ وقوله ﷻ في سورة الصافات:﴿... وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(13)﴾.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(46)﴾.

في قوله ﷻ قبلاً:﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ...﴾ إيماء إلى أنهم تركوا حق الخالق في تعظيمه واتقـاء عذابـه مع أنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة كما جاء في سورة المدثر 55، وفي قوله –هنا–﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا... ﴾ إشارة إلى تركهم حق الخلق من حيث إنهم أمروا بالإنفاق على المحاويج فلم ينفقوا.

وضمير الغائب في (لهم) وفي (أنفقوا) عائد إلى كفار قريش. والقائل المفهوم من فعل (قيل) المبني للمجهول هو الله الذي أمر بالإنفاق في آيات كثيرة على فقراء المؤمنين...

والمعنى: إذا أمر الله كفار قريش بالإنفاق على المساكين، أو قال المساكين لأغنياء كفار قريش:أعطونا مما أعطاكم الله أجابهم هؤلاء بقولهم: هل نطعم الذي لو شاء الله إطعامه لأطعمه، بحيث لا يحتاج إلينا؟

ثم يحكم هؤلاء الكافرون على المؤمنين بالضلال المبين أي الخطأ البين الواضح وهو قولهم لهم:﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ .

وهذه الجملة المصدرة بـ(إن) النافية المتبوعة بـ(إلا) الاستثنائية تفيد الحصر، أي هؤلاء الذين نصحوهم بالإنفاق محصورون في الضلال بحيث إن الضلال محيط بهم من كل الجوانب وهو ما تفيده -أيضا- (في) الدالة على الظرفية.

ومما يروى في هذا الموضوع أن بعض جبابرة مكة كان إذا سأله المسكين قال له: اذهب إلى ربك فإنه أولى مني بك، قد منعك الله أنطعمك؟!

ويروى أيضا أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- كان يطعم مساكين المسلمين، فلقيه أبو جهل، فقال :يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال: ابتلى قوما بالفقر وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، والأغنياء بالإعطاء فقال أبو جهل: والله يا أبا بكر إن أنت إلا في ضلال مبين أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء، وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت!

والذي جعل جبابرة قريش يتهكمون بالمسلمين بهذا القول أنهم كانوا يسمعونهم يردون كل شيء إلى مشيئة الله فيقولون -مثلا- الله يرزق من يشاء ويمنع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء الخ فيردون عليهم: مادام الله هو الذي يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء فقد شاء أن يعطينا، وشاء أن يمنعهم، فلا

ينبغي أن نخالف مشيئته بإعطائنا إياهم! ومن ثم فإنكم أيها الصابئون ضالون عن وجه الصواب!

والحقيقة التي غابت عن هؤلاء الجاهلين أن الله ﷻ شاء لبني آدم أن يستخلفهم في الأرض ويستعمرهم فيها كما ورد في القرآن الكريم على لسان نبي الله صالح مخاطبا قومه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود 60.

وذلك الاستخلاف في الأرض، والاستعمار فيها يقتضي التفاوت بين البشر في الاستعدادات الفطرية، والميول النفسية، ولولا هذا التفاوت في الطباع لما أمكن الناس أن يحققوا مشيئة الله فيهم وهي اختيارهم لعمارة الأرض، تلك العمارة الداعية إلى التعاون والتكافل وتسخير بعضهم لبعض كما قال الله -تعالى- في سورة الزخرف: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾32. ولكن يوجد في كل مجتمع إنساني من لا يقدر على العمل لعاهة به أو لا يجد فرصة للعمل لأن البيئة التي يكونون فيها لم توفرها لهم فتصيبهم الفاقة فجعل الله لهؤلاء المحتاجين حقا في أموال الواجدين، ودعا الأغنياء إلى التنازل عن بعض أموالهم لفائدة الفقراء ليحصل التكافل بين الإخوة في الدين والإنسانية، وتتوثق الروابط الاجتماعية بين الطبقات البشرية، وتنعدم الأحقاد التي ينشئها الشح بين الناس.

وهكذا يبتلى الله بعض الناس بالغنى ليتبين مدى شكرهم له، ويبتلي بعضهم بالفقر ليرى صبرهم على ما أصابهم كما جاء في كلام أبي بكر ﵁ لأبي جهل لعنه الله.

ومن أوجه البلاغة في الآية الكريمة:

1-الإيحاء بأن ما في أيدي أولئك الأغنياء هو من رزق الله وقد أنعم به عليهم؛ فهو حين يدعوهم إلى الإنفاق على الفقراء إنما يدعوهم إلى إعطاء شيء مما استخلفهم فيه كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ **وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ الحديد:7.

و(من) التي أدغمت نونها في (ما) فصارت (مما) هي تبعيضية أي تدل على إعطاء بعض المال وليس جميعه .

2-الإظهار في مقام الإضمار في قوله -تعالى-: ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ فلو لم تكن هناك نكتة بلاغية لجاءِ الكلام هكذا: ﴿قالوا﴾ اكتفاء بالضمير العائد إلى الذين كفروا ولكنه -تعالى- نص على كفرهم ليفيد أن الذي زين لهم عدم الإنفاق هو الكفر، وفي ذلك ذم لهم وتوبيخ.

3- قيل للكفار: أنفقوا، فكان جوابهم: أنطعم... عوض: أننفق... فدل ذلك على أن المقصود الأول من الإنفاق هو الإطعام فالإنفاق أعم من الإطعام لأنه يشمله ويشمل غيره من وجوه الإنفاق والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(47)مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(48)فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(49) ﴾.

المناسبة:بين الله ﷻ في الآيات السابقة أن الكفار أعرضوا عن تقوى الله حين أمروا بها ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ... ﴾ تم أخبر بأنهم امتنعوا عن الإنفاق على المحتاجين لما طولبوا به ﴿ وإذا قيل لهم انفقوا... ﴾ وفي هذه الآيات أوضح السبب في عدم تقواهم، وعدم إنفاقهم، وهو التكذيب بيوم البعث والنشور يوم يحاسبون ثم يجازون، وكشف عن أحوال الناس حين تقع الصيحة الواحدة التي يموت عندها كل حي.

التفسيـر:

﴿متى هذا الوعد؟﴾: الوعد هنا معناه الموعود به أي ما كان الرسول ﷺ والمؤمنون يعدون به الكافرين من مجيء يوم يبعث فيه الناس من قبورهم للحساب والجزاء حسبما ورد في القرآن الكريم.

والجملة استفهامية، الغرض منها الاستهزاء، واستبعاذ الحياة الثانية، وتكذيب المخبرين بها أي إن كنتم صادقين في قولكم فأخبرونا عن الوقت الذي يجيء فيه ذلك اليوم.

وقد ورد في القرآن الكريم انهم كانوا يستعجلون قيام الساعة أيضا قال الله في سورة الشورى:﴿ **يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**(18) ﴾ .

﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾

﴿ينظرون﴾: ينتظرون؛ فهو من النظِرة بمعنى الانتظار والترقب لا من النظر بمعنى الإبصار والمشاهدة.

ومن الأول قوله ﷻ في سورة الزخرف:﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**(66)﴾ ، وقوله ﷻ في سورة البقرة:﴿**... وإن كان ذو عسرة فنظِرة إلى ميسرة** ﴾179 .

ومن الثاني قوله ﷻ في سورة الغاشية:﴿ **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**(17) ﴾ وقوله ﷻ في سورة القيامة :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23)﴾

و﴿ الصيحة﴾: الصوت الشديد العالي يصدر من الإنسان وغيره، وهي – هنا– والله أعلم النفخة الأولى التي ينفخها الملك الموكل بها في الصور فتنتهي بها الحياة الدنيا تدعى نفخة الصعق لأن الناس يصعقون بها فيموتون كما قال الله ﷻ في سورة الزمر: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(65)** ﴾.

وقد جاءت الصيحة أيضا في القرآن الكريم بمعنى صيحة العذاب التي يصيب بها الله ﷻ القوم الكافرين كقبيلة ثمود مثلا التي يقول الله فيها: ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين...** ﴾ هود 66.

تنبيـه: السائلون لم يكونوا ينتظرون الصيحة فكيف أجابهم الله –تعالى– بأنهم ينتظرونها؟

نبه على هذا العلاّمة الألوسي في تفسيره فقال: وعبر بالانتظار نظرا إلى ظاهر قولهم:متى هذا الوعد؟ أو لأن الصيحة لما كانت لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها.

﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾

تأخذهم: تهلكهم، كما يأخذ العدو عدوه فيفتك به .

يخصمون: أصله يختصمون بمعنى يتجادلون ويتنازعون فأبدلت التاء صادا ثم أدغم أحد الصادين في الآخر تخفيفا وقد اختلف القراء في كيفية النطق بصيغة

هذا الفعل فرواها ورش عن نافع بتشديد الصاد مكسورة مع فتح الخاء. ورواها قالون عن نافع أيضا بتشديد الصاد المكسورة مع سكون الخاء سكونا مختلسا، أي بين السكون والفتح، ورواها حفص عن عاصم بتشديد الصاد المكسورة مع كسر الخاء إلى آخر ما هنالك من قراءات لا يقرأ بها عندنا.

﴿فلا يستطيعون توصية، ولا إلى أهلهم يرجعون﴾.

الفاء: تفريعية، فرعت جملة (لا يستطيعون توصية) على جملة **﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾** أي عدم قدرتهم على التوصية مفرع ومرتب على أخذهم فجأة وإماتتهم.

و﴿التوصية﴾ مصدر الفعل: وصّى. يقال: وصّى فلان فلانا بشيء: إذا عهد به إليه، وأمره بالعناية به ومنه قوله ﷻ في سورة البقرة: **﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾** 131 وقوله في سورة الأحقاف **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾** 14.

وتنكير المصدر ﴿توصية﴾ يفيد العموم أي لا يستطيع أحدهم أن يوصي بأيّة وصية مهما كانت.

وجملة ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ معطوفة على جملة (لا يستطيعون) أي لا يستطيعون توصية مّا ولا يرجعون إلى أهلهم، كما يرجع المذعور إلى أهله ليتفقد أحوالهم، أو ليحتمي بهم بل يموتون في أماكنهم لا يبرحونها.

وقد صور لنا رسول الله ﷺ السرعة التي يفاجئ الناس بها قيام الساعة، وهم منهمكون في أعمالهم بقوله: (لَتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقي منه،ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بِلَبن لقحته (وفي رواية نعجته) فلا يطعمه،ولتقومن الساعة وقد رفع أُكلته إلى فيه (أي فمه) فلا يطعمها) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(50)﴾.

﴿نفخ في الصور﴾ الصور: شيء يشبه القرن ينفخ فيه الإنسان أي يطلق فيه الريح من فمه فيحدث صوتا قويا ويسمى أيضا البوق؛ والصور –هنا– من صنع الله ﷻ والمعلوم من القرآن الكريم أن هناك نفختين في آخر الدنيا أولاهما نفخة الصعق أوالفزع يصعق بها الأحياء أي يموتون وهي المعنية بقول ﷻ في هذه السورة: **﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾.**

وثانيتهما نفخة البعث التي يبعث بها الأموات من قبورهم فيقومون أحياء، وهي المعنية في هذه الآية، وبين النفختين مدة لا يعلمها إلا الله عز وجل.

وبدهي أن النفخ في الصور إنما يقع في المستقبل البعيد أي في آخر الدنيا فكان الأصل أن يخبر عنه بصيغة المضارع الذي يدل على حصول الشيء في المستقبل فيقال:ينفخ في الصور،كما جاء في سورة النمل عند قوله ﷻ ﴿**ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله،وكل آتوه داخرين**﴾

ولكن عدل إلى صيغة الماضي الذي يدل على حصول شيء في زمن مضى قبل التكلم فقيل ﴿نفخ﴾ لإفادة التحقيق أي تحقيق وقوع النفخ.

ونظير ذلك قوله ﷻ في مفتتح سورة النحل: ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللهِّ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ بدلا مِن ﴿سوف يأتي أمر الله﴾ .

﴿**فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون**﴾.

الفاء تفريعية و(إذا) هنا فجائية تدل على سرعة وقوع مضمون الجملة التي بعدها، وهو سرعة خروج الأموات من قبورهم بدون توقع منهم.

والضمير: (هم) يعود إلى معلوم من المقام، وهم المقبورون ومنهم هؤلاء الذين نزلت فيهم تلك الآيات الآنفة الذكر.

تنبيـه: قد يقال: إن كثيرا من الأموات لم يقبروا ولن يقبروا كالذين أكلتهم السباع أو احترقوا وصاروا رماداً أو التقمهم الحوت. والجواب أن المراد بالمقبورين الذين من شأنهم أن يقبروا، ولم لم تكن لهم قبور.

و﴿الأجداث﴾ جمع جدَث (ومثله الجدف) وهو القبر.

و﴿ينسلون﴾:مضارع: نسل يقال:نسل الذئب أو الإنسان –ينسل- نسلانا بمعنى أسرع؛ ونظير ذلك قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ(96)﴾.

ومن نظائر هذه الآية قوله ﷻ في سورة المعارج :﴿ ...يَوْمَ يَخْرُجونَ مِنْ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ(43)﴾ ، وفي سورة ق: ﴿ ...يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(42)إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(43)يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(44)﴾.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(51)﴾

النفخ في الصور وما ينشأ عنه من خروج الناس من قبورهم أحياء يثير سؤالا في نفوس السامعين، مؤداه: ماذا يقول أولئك المنكرون حين يرون ما كانوا ينكرونه حقيقة واقعة يستحيل إنكارها؟ فجاءت هذه الآية مستأنفة استئنافا بيانيا

لتبين للسائلين ما يقوله المنكرون، وهو قولهم: ﴿ ياويلنا! ...﴾ وهذه الجملة يستعملها إما الواقع في مصيبة، وإما المتحسِّر على خير فاته.

والويل: الهلاك وسوء الحال، وهو معنى من المعاني ليس من شأنه أن ينادى ولكنه نزّل منزلة من يسمع ويجيب فنودي بحرف النداء (يا) كأنهم يقولون: يا هلاكنا! هذا أوانك.

ويحتمل أن حرف (يا) للتنبيه كأنهم ينبه بعضُهم بعضا للهلاك المقبل.

واستعملت صيغة الماضي ﴿قالوا ﴾ بدلا من صيغة المضارع ﴿يقولون﴾ لتحقيق وقوع قولهم أي قولهم هذا محقق...

(من بعثنا من مرقدنا؟)

هي جملة استفهامية تحكي سؤالهم بنصه الذي يلفظونه في ذلك الموقف؛ يتساءلون عن الذي بعثهم من مرقدهم ذاك.

و المرقد: يحتمل أنه مصدر ميمي على وزن (مفعل) بمعنى الرقاد كما يحتمل كونه اسم مكان أيضا أي مكان الرقاد وهو القبر.

ويأتيهم الجواب:﴿ هذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون﴾ ومن هو المجيب ؟ فيه احتمالات:

قد يكون هو الله ﷻ أو ملائكته أو المؤمنون يتلقون الجواب بأن خروجهم هذا من قبورهم هو ما كانوا يكذبون به في الدنيا.

وقد يكون المجيب المشركين أنفسهم حين يتوبون إلى رشدهم فيقول كل واحد منهم في نفسه، أو يقول بعضهم لبعض ﴿هذا ما وعد الرحمن... ﴾ اعترافا بخطئهم في إنكار البعث، وندما على عدم تصديقهم رسل الله إليهم.

ونظير هذه الآية قولهﷻ في سورة الصافات:﴿**وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(20)**﴾ **فيقال لهم**:﴿ **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(21)** ﴾.

ولِمَ عُدل عن اسم الجلالة (الله) إلى اسم (الرحمن) في قولهم هذا ما وعد الرحمن؟

إذا كان الجواب من الله ﷻ أو الملائكة أو المؤمنين ففحواه توبيخ الكفار على إنكارهم اسما من أسماء الله الحسنى وهو (الرحمن) وعدم الاعتراف به حينما كانوا في الدنيا وندمهم على ذلك.

قال الله هﷻ عنهم: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا**﴾ الفرقان 60.

وإذا كان من المشركين أنفسهم فمعناه التحسر على إنكارهم لهذا الاسم والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(52) ﴾

الضمير في ﴿كانت﴾ يعود إلى النفخة الثانية المفهومة من ﴿ ونفخ في الصور﴾ وهي المقصودة بالصيحة المذكورة في صدر الآية.

و من قرأ ﴿صيحة﴾ بالنصب جعلها خبرا لـ(كان)، ومن قرأها بالرفع جعلها فاعلا لـ(كان) التامة التي يتم معناها بفاعلها.

وجملة ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ تفيد الحصر لأنها مبدوءة بـ(إن) النافية المتبوعة بـ(إلا) الاستثنائية أي ما كانت تلك النفخة التي ينفخها إسرافيل إلا صيحة واحدة لا تتكرر في مرة أو مرتين.

والفاء تفريعية؛ فقد فرعت مضمون الجُملة التي بعدها على مضمون الجملة التي قبلها، أي جُمع الناس للحساب مفرع على الصيحة الواحدة.

و(إذا) فجائية، تفيد أن ما بعدها يقع للناس فجأة أي بغتة على غير توقع منهم.

و﴿جميع﴾ على وزن (فعيل) بمعنى مفعول أي مجموعون و ﴿لدينا﴾ بمعنى عدنا.

و﴿محضرون﴾ اسم مفعول من (أحضر) المبني للمجهول، أي يحضرهم الله ﷻ للمحاسبة... ومعنى الآية أن إحضار الناس –وهم مجموعون– إلى المحشر من أجل محاسبتهم يقع في مثل لمح البصر، كما قال الله ﷻ في سورة النحل: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(77) ﴾.

قوله تعالى:

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(53)﴾

المراد بـ﴿اليوم﴾ يوم الجزاء في الدار الآخرة.

وقد أخبر الله –تعالى– في هذه الآية أن أي مقدار من الظلم لا ينال أية نفس في يوم الجزاء بحيث لا يجازى الناس إلا جزاء وفاقا لما كانوا يفعلونه في الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فهناك العدل المطلق لا ينقص من حسنات المحسنين، ولا يزاد في سيئات المسيئين.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة غافر:﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(17) ﴾.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(54)هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ(55)لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ(56)سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ(57)﴾

المناسبـة:

بعد أن ذكر الله ﷻ أحوال الناس بعد البعث، وما يلقونه من جزاء عادل شرع يذكر أحوال الذين كانوا يحسنون في دنياهم ثم الذين كانوا يسيئون.

شرح الألفـاظ:

﴿شغل﴾ بضم فسكون (هي رواية ورش وقالون عن نافع) وبضمتين (هي رواية حفص عن عاصم): الشيء الذي يشغل الإنسان، ويصرفه عما سواه، سواء أكان مفرحا أم محزنا والمراد به –هنا– التمتع بنعيم الجنة، ولقاء الأحبة، وما يفيض عليهم من رضوان الله مما يشغلهم عن الاهتمام بأهل النار.

﴿اليوم﴾: المراد به يوم القيامة، وهو مفهوم من سياق الكلام.

﴿فاكهون﴾: متنعمون مسرورون طيبو النفوس.

﴿الأرائك﴾: جمع تكسير، مفرده: أريكة، وهي السرير فوقه الحجلة، وهي الستارة التي تبنى فوقه كالقبة لتزيده جمالا وبهاء.

﴿فاكهة﴾: ما يؤكل من الثمار لأجل التلذذ والجمع فواكه ومنه قوله ﷻ في سورة المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(41)وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(42)﴾.

﴿يدعون﴾: يشتهون ويطلبون ويتمنون.

ومن ذلك قول العربي لصاحبه: "ادّع علي ما شئت"، وقوله: "فلانَ في خير ما ادعى".

وقال الله ﷻ في سورة فصلت:﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)﴾.

التفسيــر:

﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾.

يخبر الله –تعالى– بأن أهل الجنة في ذلك اليوم –وهو يوم القيامة– يكونون مغمورين بأنواع المتعة التي تشغلهم عن التفكير فيما من شأنه أن ينغص عليهم عيشتهم الراضية المليئة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فهم بذلك مسرورون غاية السرور.

﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾

ومن تمام نعم الله على أهل الجنة انه يجمعهم مع زوجاتهم اللائي كن معهم في الدنيا، إضافة إلى ما أعده لهم من الحور العين.

وقد ورد في القرآن الكريم أنه يجمعهم -أيضا- مع من صلح من آبائهم وأولادهم وأزواجهم .قال الله -تعالى- في سورة الرعد:﴿... **جنات عدن يدخلونها، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار**﴾ 25.

ومن أسباب الراحة التي يعدها لهم ربهم الأرائك التي يتكئون عليها، وهم تحت ظلال الأشجار الوارفة الممدودة الدائمة التي لا تنسخها شمس كما هو معهود في الدنيا لأنه لا شمس هنالك.

﴿لهم فيها فاكهة، ولهم ما يدعون﴾.

في هذه الآية إخبار بأن الله ﷻ وفر لأصحاب الجنة فاكهة يتلذذون بأكلها، وقد جاء وصفها في سورة الواقعة بالكثرة، وعدم الانقطاع، وعدم المنع منها، وذلك في سياق ذكر النعم التي أكرم الله بها أصحاب اليمين:﴿ **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ(27)فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ(28)وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ(29)وَظِلٍّ مَمْدُودٍ(30)وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ(31)وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(32)لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ(33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ(34)** ﴾ كما في الآية إخبار بأن الله ﷻ يحقق لأصحاب الجنة ما يشتهونه في أنفسهم لأنفسهم، وما يطلبونه بألسنتهم. وياله من إكرام يستوجب كل الحمد.

﴿سلام قولا من رب رحيم﴾.

من وجوه الإعراب لكلمة ﴿سلام﴾ أنها مبتدأ و ﴿قولا﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله المحذوف، و ﴿من رب رحيم﴾ جار ومجرور ونعت ومنعوت خبر المبتدأ.

وتقدير الكلام: سلام -يقال لهم قولا- من رب رحيم.

ويصح أن تكون كلمة ﴿سلام﴾ بدلا من الموصول وصلته قبلها: ﴿ما يدعون﴾ أي الشيء الذي يدعونه هو سلام صادر من رب رحيم.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿ ...تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾.

ونقرأ في سورة الرعد أن الملائكة -أيضا- يحيون أهل الجنة بالسلام: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾.

قوله تعالى:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (58)﴾

هذه الجملة معطوفة على جملة:﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ أي سلام يقال لأهل الجنة صادر من رب رحيم، ويقال لأهل النار﴿ امتازوا أيها المجرمون﴾ عن المؤمنين.

و﴿ امتازوا﴾: فعل أمر مسند إلى واو الجماعة. ماضيه: امتاز الذي هو مطاوع الفعل الثلاثي (ماز) يقال في اللغة ماز الشيء عن غيره –يميزه– فامتاز أي اعتزل وانفصل والمعنى أن الله ﷻ يأمر المجرمين بأن يعتزلوا عن المؤمنين.

ومناداة المشركين الكافرين بوصف الإجرام لبيان العلة في أمرهم بالامتياز عن المؤمنين وهي الإجرام الذي كانوا يرتكبونه في الدنيا، والذي كان يتمثل في الافتراء على الله وعبادة غيره وتكذيب رسله.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة يونس:﴿ **ويوم نحشرهم جميعا، ثم نقول للذين أشركوا:مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزيلنا بينهم** ﴾ أي فرق الله بين المشركين ومعبوداتهم من جهة والمؤمنين من جهة أخرى. والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(59) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(60)وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (61)﴾

العهد المفهوم من الفعل المضارع (أعهد) معناه الوصاية .

يقال: عهد إليه بكذا: إذا أوصى به إليه، ومنه قوله ﷻ في سورة طه: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا(115)**﴾ والمراد بالعهد –هنا– والله

أعلم: ما وصى به الله عباده بواسطة رسله إليهم، وهو أن يعبدوه وحده ولا يشركوا معه شيئا.

والاستفهام المنفي في ﴿ألم أعهد﴾ يفيد التقرير.

و﴿أن﴾ في ﴿أن لا تعبدوا﴾ تفسيرية؛ فقد فسرت الإبهام في الفعل: ﴿أعهد﴾.

وجملة﴿إنه لكم عدو مبين﴾ معترضة بين جملة﴿ألا تعبدوا﴾ وجملة ﴿أن اعبدوني﴾ وفائدة هذا الاعتراض بيان السبب في نهي بني آدم عن عبادة الشيطان، وهو عداوته لهم.

و﴿مبين﴾ اسم فاعل من فعل (أبان) بمعنى بان وظهر . وعبادة الشيطان طاعته فيما يزينه لهم من كفر ومنكرات ، وعبادة الله: طاعته والخضوع لشرعه.

والإشارة في ﴿ هذا صراط مستقيم﴾ إلى العهد الذي عهد به إلى بني آدم. وهو عبادته وحده وعدم عبادة الشيطان.

وقد شبه الالتزام بذلك العهد بالسير على صراط مستقيم من حيث إنه يؤدي قطعا إلى المقصود، والمقصود هنا هو رضا الله الذي يهيء من يظفر به إلى السعادة الأبدية.

و﴿الجبل﴾ الجمع العظيم من الناس، أو الأمة ومثله: (الجبلة) قال الله ﷻ في سورة الشعراء:﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ(184)﴾

والصيغتان مشتقتان من فعل (جبل) بمعنى خلق.

و﴿تعقلون﴾ تدركون بعقولكم وتفهمون إضلال الشيطان إياكم، والاستفهـام في ﴿ أفلم تكونوا تعقلون﴾ للتوبيخ، والفاء: تفريعية؛ فقد فرعت مضمون الجملة التي بعدها على مضمون جملة محذوفة قبلها. وتقدير الكلام والله أعلم:أعميت قلوبكم فلم تتفطنوا إلى إضلال الشيطان إياكم .

ومما يدخل ضمن العهد الذي عهد به الله إلى بني آدم وهم في الدار الأولى ما جاء في سورة الأعراف:﴿ يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27) ﴾.

ومعنى الآيات: أن الله ﷻ ينادي يوم القيامة المجرمين من بني آدم ليحملهم على الاعتراف بأنه أوصاهم بعبادته وحده، وحذرهم من عداوة الشيطان الذي كان يزين لهم عبادة الأوثان عندما كانوا في الدنيا ويشجعهم عل تكذيب أنبياء الله ورسله، فأطاعوه، فصاروا إلى نار جهنم.

ثم يذكرهم بأن الشيطان قد أغوى الكثير منهم ليبني على هذا التذكير توبيخهم على عدم استعمال عقولهم ليتبين لهم الحق من الباطل.

قوله تعالى:

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (62) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (63)﴾

يقال للكافرين في الدار الآخرة وهم في النار: هذه جهنم التي كان ربكم يوعدكم بها على ألسنة رسله إليكم في دنياكم ولكنكم كنتم تكذبونهم وتؤذونهم، وتقولون لهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فها هو الوعيد الذي كنتم تستعجلونه قد تحقق لكم؛ والصلي المفهوم من فعل الأمر المسند إليهم (اصلوا) معناه: معاناة الاحتراق بالنار، ومقاساة آلامه، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم غيرما مرة في صيغ مختلفة، من ذلك قوله ﷻ في سورة الأعلى: **﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12)...﴾**؛ وفي سورة الانشقاق: **﴿... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12)﴾**.

وفي سورة الواقعة: **﴿ ...وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)﴾**؛ وفي سورة الصافات: **﴿ ...مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163)﴾**؛ وفي سورة مريم: **﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70)﴾**.

والباء في ﴿بما كنتم تكفرون﴾ سببية و(ما) مصدرية، يسبك الفعل بعدها بمصدر وتقدير الكلام اصلوها اليوم بسبب كفركم الذي كنتم فيه .

ونظير هاتين الآيتين قوله ﷻ في سورة الطور:﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا(13)هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(14)أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُون 15اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(16)﴾

وفي سورة الرحمن﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ(43)يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ(44)...﴾.

قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(64)﴾

ورد في القرآن الكريم أن الله ﷻ يجمع المشركين يوم القيامة ويسألهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا؟ فينكرون إشراكهم، ويحلفون على ذلك! كما جاء في سورة الأنعام حيث يقول الله ﷻ:﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(22)ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا

أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(23)انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24)﴾.

وحينئذ يختم الله على أفواههم (بأن يخرسها) ويخلق القدرة على النطق في أيديهم وأرجلهم فتتكلم، وتشهد على أصحابها بما كانوا يعملون من آثام وأعظمها الشرك بالله

وتفسيرا لهذا المعنى يقول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن أنس: ((يخاطب العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، فيختم الله على فيه، فيقول لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، تم يخلي بينه وبين الكلام فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل!)).

وشهادة الأعضاء على أصحابها قد ورد ذكرها في غير هذا الموضع من القرآن الكريم. قال الله ﷻ في سورة النور:﴿... يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(24) ﴾؛ وفي سورة فصلت:﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(19)حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(20)وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(21)﴾ .

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ(65)وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ(66)﴾

﴿لو﴾: حرف امتناع لامتناع، أي يمتنع جوابها بسبب امتناع شرطها وشرطها في الآية الأولى قوله ﷻ ﴿نشاء﴾؛ وجوابها قوله ﷻ ﴿طمسنا﴾ أي امتنع طمس أعينهم لعدم مشيئة الله ذلك.

وشرطها في الآية الثانية قوله ﷻ ﴿نشاء﴾، وجوابها قوله ﷻ ﴿مسخنا﴾ أي امتنع مسخهم لعدم مشيئة الله ذلك.

والمعنى: لو تعلقت إرادة الله بطمس عيونهم، ومسخ أجسادهم لوقع ذلك الطمس والمسخ لأنه على كل شيء قدير، ولكنه لم يرد فلم يقع.

وطمس العيون يصدق بمحو خاصية الإبصار فيها مع بقاء مُقَلِها، وهو ما يعبر عنه بالعمى أو العور، كما يصدق بعدم شقوق بين أجفانها أو باستوائها مع الجباه وهو منظر قبيح جدا.

ويقول العرب: رجل مطموس أو طميس لمن ذهب بصره كما يقولون: طريق مطموسة للطريق التي ذهبت آثار أقدام السائرين عليها.

وفعل (طمس) يتعدى إلى مفعوله بنفسه كما ورد في سورة القمر:﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ...﴾ 37.

ولكنه هنا عدي إلى مفعوله بواسطة حرف الجر (على) الدال على الاستعلاء للإيحاء بتمكن الطمس من أعينهم كما يتمكن الفارس من فرسه إذا استوى على صهوته.

﴿استبقوا﴾: فعل ماض مسند إلى واو الجماعة معناه: سارعوا وابتدروا، ومنه قوله ﷻ في سورة البقرة:﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ 147.

وفعل (استبق) يصل إلى مفعوله بواسطة حرف الجر (إلى) ولكنه حذف هنا كما حذف حرف الجر (على) من قول الشاعر:

تـمرون الديـار ولم تعوجوا كلامكم علي إذن حرام

أي تمرون على الديار.

ويصح أن يكون فعل (استبق) مضمنا معنى (ابتدر) الذي يتعدى إلى مفعوله بنفسه.

و﴿أنى﴾ الاستفهامية: تأتي بمعنى متى كقولك: أنى جئت؟ وتأتي بمعنى: كيف كقوله ﷻ ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ البقرة 258. وتأتي بمعنى (من أين) كقوله ﷻ:﴿ ... يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ آل عمران 37.

وتفسيرها -هنا- بمعنى كيف أو بمعنى من أين أي كيف يبصرون؟ أو من أين لهم أن يبصروا؟ وقد طمس الله أبصارهم، وأخذ منها قوة الإبصار كما جاء في قوله ﷻ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ الأنعام47.

و﴿المسخ﴾: تغيير جسم الإنسان بجسم آخر من غير نوعه كمسخه قردا أو خنزيرا أو حجرا.

و﴿المكانة﴾: الحالة التي يكون عليها الإنسان.

و﴿المضي﴾: الذهاب، ويقابله الرجوع

والمعنى لو أراد الله مسخهم لمسخهم على الحالة التي يكونون عليها وصاروا كالتماثيل الثابتة في الأرض لا يستطيعون التوجه إلى المكان الذي يقصدونه ولا يقدرون أيضا على الرجوع إلى المكان الذي انطلقوا منه.

وأصل التركيب (لا يستطيعون مضيا ولا رجوعا) ولكن عدل عن المصدر (رجوعا) إلى الفعل المضارع (يرجعون) مراعاة لرءوس الآي والله أعلم.

وإذا كان في الآيتين تهديد للكفار فإن فيهما تسلية للنبي ﷺ.

قوله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ(67)﴾

﴿التعمير﴾ المفهوم من الفعل (نعمره) إطالة العمر، يقال: عمره الله تعميرًا إذا أطال عمره. ومنه قوله في سورة فاطر:﴿ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ**﴾ 37.وفيها أيضا: ﴿ **وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ..**(11)﴾

وفي سورة البقرة: ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ...** ﴾ 95.

والمدة التي يعمر بها الله ﷻ بدن الإنسان بالحياة تسمى (عمرًا) بضم العين والميم و(عَمْرًا) بفتح العين وسكون الميم.

ومن الأول قوله ﷻفي سورة الأنبياء:﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ....**﴾44.

ومن الثاني قوله ﷻ في سوْرة الحجر: ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**(72)﴾

و-النَكس أو التنكيس- قلب الأعلى إلى الأسفل، أو تغيير الحال الأحسن إلى الحال الأقبح.

ومن الأول قوله ﷻ في سورة الأنبياء:﴿ ...ثم نكسوا على رءوسهم..﴾،

ومن الثاني قوله ﷻ في هذه الآية .

و﴿الخلق﴾ : مصدر الفعل: خلق والأقرب أن المراد به معناه المصدري أي الخلقة والتكوين .

ويحتمل أن المراد به معنى اسم المفعول كما هو وارد في آيات من القرآن الكريم -أيضا- أي المخلوقات.

ومعنى الآية أن الله ﷻ يخبرنا بأن من يقضي بتطويل عمره من الناس يقلب أحواله من قوة الشباب والكهولة وجمالهما إلى ضعف الهرم والشيخوخة ورذالتهما، كما ورد في سورة الحج: ﴿ ...وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ 5.

وعلاقة هذه الآية بالآيتين قبلها أن القادر على تطوير خلقة الإنسان من القوة إلى الضعف، ومن الرشد إلى الخَرَف لا يعجزه طمس الأبصار، ولا مسخ الأجساد، كما لا يعجزه إعادة الحياة إلى الأموات والله أعلم.

﴿أفلا تعقلون؟﴾

جملة استفهامية تحمل معنى التوبيخ لهؤلاء الكافرين الذين لا يريدون أن يفكروا بعقولهم ليفهموا فالهمزة للاستفهام، وهي داخلة على فعل محذوف.

والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، وتقدير الكلام (أترون ذلك فلا تعقلون).

قوله تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ(68)لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(69)﴾

المناسبة:

في الآيات السابقة ذكر الله ﷻ عنصرين من عناصر الإيمان هما أولا عبادة الله وحده دون سواه ﴿...ألاّ تعبدوا الشيطان ...واعبدوني﴾ ثانيا الإيمان باليوم الآخر وبعض ما يقع فيه ﴿...هذه جهنم التي كنتم توعدون...﴾.

ثم ذكر في هاتين الآيتين عنصراً ثالثا هو الوحي المنزل على سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

شرح الألفاظ:

الضمير (نا) في علمناه يعود إلى الله ﷻ وهو في الاستعمال للجماعة أو الواحد الذي يعظم نفسه.

والضمير المتصل (الهاء) يعود إلى رسول الله ﷺ كما هو معلوم من سياق الكلام.

و﴿الشعر﴾: كلام موزون مقفى قصدا .

ومعنى المقفى أن كل بيت في القصيدة ينتهي بحرف خاص يسمّى القافية، وتنسب القصيدة إلى هذا الحرف الأخير فيها فيقال -مثلاً- قصيدة همزية أو دالية أو ميمية... الخ.

﴿ وما ينبغي له ﴾: لا يليق بمقامه الرفيع، ولا يصلح له وحتى إذا أراده فإنه لا يطاوعه؛ فالشعر عبارة عن انفعالات يشعر بها الإنسان في أعماق نفسه فيعبر عنها بكلام موزون ومقفى، يصورها تصويرا دقيقا رائعا، وقد تسمو هذه الانفعالات إلى مستوى الفضيلة، والتوجيه الحسن وقد تهبط إلى دركات الرذيلة وتزيين القبيح.

أما الوحي فهو تشريع من الله لعباده يشمل عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم مما تزكو به نفوسهم ويستقيم تدينهم وتنتظم شئون دنياهم وتطيب به الحياة في أخراهم. وشتان ما بين ما يصدر عن الإنسان من تصورات عابرة، وما يصدر عن الله من حقائق ومنافع ثابتة.

وفي الآية رد على المشركين الذين كانوا يتهمون الرسول ﷺ بأنه شاعر وأن ما يقوله (يعني القرآن) شعر وإعلام بأن قول الشعر لا يليق برسول الله ﷺ .

تنبيـه:

كان الرسول ﷺ يجري على لسانه في أحيان قليلة جداً بعض الأبيات من الشعر لغيره يستحسنها فيستشهد بها وهو القائل: الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام . وقد قال ﷺ:(إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً) رواه أبو داود وأحمد.

وكان يعجبه بيت عنترة الذي يقول فيه:

ولقد أبيت على الطوَى وأظله حتى أنال به كريم المطعم

وينشد بيت عبد الله بن رواحه:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال ﷺ عن بيت لبيد المشهور: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وكان ينشد بيت طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

و كان نطقه به أحيانا لا يتفق مع قراءة الشعر كما جاء في بعض الروايات.

وكان يعجبه أيضا أن يسمع الشعر البليغ النظيف ويستزيد منه.

روي أن بعض الصحابة أنشده مائة بيت من الشعر لأمية بن أبي الصلت فكان يقول عقب كل بيت (هيه) أي زد.

ومن أمثلة إعجابه بالشعر وتأثره به أن خلع بردته على الشاعر المشهور: كعب بن زهير بعد أن أسمعه تلك القصيدة العصماء في مدحه ﷺ معتذراً عما بدا منه أيام الجاهلية ومنها:

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

وقد روي عنه -أيضا- أنه أصيب في إحدى الغزوات في أصبعه فدميت فقال بالمناسبة:

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

وذلك على سبيل الاتفاق لا القصد.

وغني عن البيان أن تمثله ﷺ بشعر غيره، وارتياحه لسماعه، وما جرى على لسانه اتفاقاً لا يسوغ الحكم عليه بأنه شاعر.

وقد ورد في الحديث الشريف أنه ﷺقال: (لأن يمتلئ جوف رجل قيحا يريه[1] خير له من أن يمتلئ شعراً) رواه الشيخان.

1 – أي: يفسده.

ولكن ذلك كان في الشعر الساقط الذي لا يتورع قائله عن الكذب، ومدح من لا يستحق المدح، وذم من لا يستحق الذم ووصف النساء والخمر، والإغراء بالفسوق والمجون والتملق والفخر الزائف والتكسب بالشعر.

ودليل ذلك أن الله –عز وجل– ذم الشعراء في القرآن الكريم، ولكنه استثنى منهم الملتزمين بالحق البعيدين عن الباطل وأهله.

قال ﷻ في سورة الشعراء:﴿ **...والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾.

ولهذا كان ﷺ يحث حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة على قول الشعر ليردوا على شعراء المشركين، ويظهروا محاسن الإسلام، ومساوئ الكفر.

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: (أهجهم (أو هاجهم) وجبريل معك، أو قال: وروح القدس معك).

وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: (قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل!!). فقال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي

نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضح النبل! أو: اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو اشد عليهم من رشق النبل).

فاعتبر النبي ﷺ قول الشعر في تأييد الحق ومحاربة الباطل نوعاً من الجهاد.

وهل كان صناديد قريش يعتقدون في قرارة نفوسهم أن رسول الله ﷺ شاعر؟ كلاّ! فهناك شواهد في السيرة النبوية تؤيد هذا النفي منها: ما رواه محمد بن اسحاق في كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت بأن عتبة بن ربيعة -وكان سيداً- قال يوما -وهو جالس في نادي قريش- (ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده): يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً، لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ (وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يكثرون) فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه، فكلمه، فقام عتبة إليه حتى جلس إلى رسول الله ﷺفقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: (قل يا أبا الوليد أسمع). قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك،

وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه (أو كما قال له) حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال:(أفرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، قال:(فاستمع مني)، قال: أفعل، قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون...). ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ! فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

ولكن هل أسلم عتبه وأصحابه؟ اللهم لا.

وذلك ما يبرهن على عنادهم، وعلى أن اتهامهم لرسول الله ﷺ بالشاعرية محض افتراء! يقصدون به تضليل العوام من الناس بأن ما يقوله محمد لا يختلف عما يقوله الشعراء تعبيرا عن أهوائهم، ومن ثم فإن ما يقوله ليس من عند الله كما يزعم فهو كذاب لا يصح اتباعه إنما الجدير بالاتباع كبراء القوم الذين يحافظون على ميراث الآباء والأجداد، وبهذا التضليل يضمنون زعامتهم لقومهم، وتسلم لهم امتيازاتهم ومكتسباتهم التي هدّدها محمد بما جاءهم به من عدالة ومساواة وحرية ومعتقدات صحيحة.

وتزييفا لمقولة هؤلاء المشركين نفى الله ﷻ عن نفسه أنه علم عبده محمداً الشعر لأنه لا يليق به وإنما علمه القرآن الذي هو وحي من الله لعباده ليبين لهم ما هم في حاجة إليه، ويخرجهم به من الظلمات إلى النور.

وقد يتساءل اللبيب عن الشُّبَه التي التقطها أولئك المعاندون ليصرفوا بها البسطاء عن اتباع محمد ﷺ بدعوى أنه شاعر وأنه أيضا كاهن، وأنه ساحر...

والجواب -بخصوص الشعر- هو تلك الفواصل الموجودة في أواخر الآيات القرآنية التي تشبه القوافي في الأبيات الشعرية، وهم يتناسون الشرط الأساسي في الشعر وهو أن يكون موزوناً بحيث تتعادل -تقريبا- ألفاظ الشطر الأخير من البيت الشعري مع ألفاظ الشطر الأول وهذا ليس ملتزماً به في الآيات القرآنية.

وبخصوص الكهانة أن محمداً يخبر الناس أحيانا بما يقع في المستقبل فيقع كما قال. ومن ثم فهو كاهن لا يختلف عن الكهان المعروفين لديهم، والذين يلجئون إليهم في كشف المغيبات .

وبخصوص السحر يقولون: إن محمداً يفرق بين الزوج وزوجه، والأب وابنه والصديق وصديقه كما يفعل الساحر تماماً، وهم يشيرون بذلك إلى إسلام أحد الطرفين، وبقاء الطرف الآخر على كفره.

﴿إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين﴾

﴿إن﴾ نافية، جاءت بعدها ﴿إلاّ﴾ فأدت الجملة معنى الحصر أي ما علمه الله ﷻ لنبيه ﷺ محصور في كونه ذكراً وقرآنا وليس شيئا آخر.

وسمي الوحي ذكراً باعتبار أنه يذكر الناس ويعظهم وينبهم إلى ما فيه صلاحهم وسمي قرآنا باعتبار أنه يقرأ.

وصيغة ﴿مبين﴾ اسم فاعل على وزن مُفعِل إما من أبان اللازم بمعنى بان وظهر أي هو واضح في معانيه ودلالاته.

وإما من (أبان) المتعدي إلى المفعول أي هو يبين للناس ويوضح لهم ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم.

﴿لتنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين﴾.

قرئ ﴿لتنذر﴾ بتاء الخطاب على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وهي قراءة الإمام نافع؛ وقرئ بياء الغائب، وهي قراءة الإمام عاصم.

والذي يقوم بالإنذار هو رسول الله ﷺ.

واللام: لام التعليل؛ فقد عللت أي بينت العلة والسبب في إنزال القرآن وهو الإنذار.

﴿من كان حياً﴾: كان -هنا- مجردة من الزمان. والحياة المفهومة من (حياً) هي في معناها العام استقرار الحياة في الأبدان، وضدها موت الأبدان والمراد بها -هنا- والله أعلم حياة القلوب لأن الذين يتمتعون بحياة قلوبهم هم المنتفعون بالإنذار من حيث إنهم يفتحون قلوبهم لتدبر ما يسمعون فيقبلون ما هو حق، ويرفضون ما هو باطل بخلاف أموات القلوب الذين لا يتأثرون بما يسمعون، وإذا سمعوا لا يعقلون فهم كما وصفهم الله في القرآن الكريم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾البقرة171

والدليل على أن المراد بالحياة في الآية الحياة القلبية أنه ﷻ جعل قوله ﴿ويحق القول على الكافرين﴾، في مقابلة قوله: ﴿ مَن كان حياً ﴾ كأنه قال: لتنذر من كان

حياً (وهم المؤمنون المدركون) ويحق القول على من كان ميتا (وهم الكافرون الذين لا يستجيبون).

ووصف المؤمنين بأنهم أحياء أي حياة روحية فكرية (لأنهم يتأملون فيما يسمعون) ووصف الكافرين بأنهم أموات أي موتا روحيا وفكريا (لأنهم لا يتدبرون ما يقال لهم) معلوم في القرآن.

ومن ذلك قوله ﷻ في سورة الأنعام:﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** ... ﴾.123.

وفي سورة فاطر:﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(19)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20)، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(21)وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ** ...﴾.

والمراد بالقول الذي يحق على الكافرين هو المذكور في الآية الكريمة:﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾السجدة. 13

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(70) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(71)وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(72)﴾

المناسبــة:

بعد أن ذكر الله سبحانه بعض عناصر الإيمان، وهي الوحدانية وتحقيق الوعيد الالهي للكافرين في اليوم الآخر، وتأكيد الرسالة الالهية لسيدنا محمد ﷺ شرع في تذكير قريش بالنعم التي أغدقها عليهم، في جملة بني آدم.

التفسيـــر:

﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون؟ ﴾.

الهمزة الاستفهامية داخلة على جملة منفية محذوفة، والتقدير: ﴿ألم يلاحظوا ويروا؟﴾.

والاستفهام –هنا– إنكاري وتعجبي.

ومفعول (يرى) سدت مسده الجملة الفعلية المنسبكة بالمصدر، والتقدير: أولم يروا خلْقَنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما، وقوله –تعالى– (لهم) اللام للتمليك، أو للعلة أي خلق الله الأنعام من أجلهم لينتفعوا بها، ويتصرفوا فيها كيف شاءوا

في الحدود الشرعية وذلك كقوله ﷻ في سورة البقرة : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا28﴾.

وقوله ﷻ: ﴿مما عملت أيدينا﴾ :مفعول (عمل) ضمير محذوف أي عملته. و(أيدينا) فاعل مؤخر عن المفعول المقدم المحذوف، ومضاف ومضاف إليه .

وإسناد العمل إلى الأيدي يفهم منه تفرد الله ﷻبخلق الأنعام بحيث لم يشاركه أحد لا في أصولها الأولى، ولا في أنسالها. وهو من باب التوكيد، كقوله في خلق آدم عليه السلام ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟﴾. ص174.

و﴿الأنعام﴾ هي الإبل والبقر والغنم والمعز، وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام:﴿ وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(142)ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(143)وَمِنْ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ؟144 ...﴾

وقد خص الله ﷻ الأنعام بالذكر لأن فيها أعظم المنافع للناس، وإلا فإنه قد خلق لهم غيرها من الحيوانات، كالخيل والبغال والحمير، وبعض الحيوانات

الاهلية والوحشية والبحرية، قال الله ﷻ في سورة النحل﴿ ...وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8)﴾.

وقوله ﷻ ﴿فهم لها مالكون﴾.

الفاء: تفريعية؛ فقد فرّعت ملكيتهم للأنعام على خلقها لهم. وقدم الجار والمجرور (لها) على العامل وهو اسم الفاعل (مالكون) لرعاية الفواصل (مالكون-يأكلون-تشكرون) إلى آخره. وللتعجيل-أيضا- باستحضار ما يعود إليه الضمير (ها) وهو: الأنعام

ومعنى (مالكون لها) أنهم يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه.

وقوله-تعالى- ﴿وذللناها لهم﴾ أي سخرناها لهم وطوعناها بأن جعلنا في طبعها الانقياد لهم، ولولا ذلك التذليل لاستعصى عليهم قيادها.

ومن عجائب هذا التذليل الإلهي لهذا النوع من الحيوانات أن صبياً صغيراً (بله رجلاً كبيرا) يقود جملا ضخما أو يسوقه أو ينهضه أو ينيخه دون تمنع منه! وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

وتضربه الوليدة بالهراوة فلا غِيرٌ لديـه ولا نكيـر.

وقوله ﷻ: ﴿ فمنها ركوبهم، ومنها يأكلون﴾

ركوب: على وزن فَعُول بمعنى مركوب، والفاء-أيضا- تفريعية؛ فقد فرعت جَعْل بعض الأنعام مركوبا، وجَعْل لحومها كلها مادة غذائية على تذليلها لهم.

وفي ذلك من لطف الله بعباده ما لا يخفى على ذي حجر[1]

قوله ﷻ:﴿ ولهم فيها منافع ومشارب﴾.

أي لهم في الأنعام-أيضا- (زيادة على امتطاء ظهورها وأكل لحومها منافع أخرى لهم كالانتفاع بوبرها وصوفها وشعرها وجلودها.

ولهم فيها-أيضا-مشارب (جمع مشرب، وهو مصدر ميمي بمعنى شرب) وذلك إشارة إلى ما في أخلافها[2] وضروعها من حليب وما يتولد منه من زبد وسمن وجبن وإقط.

ونظير هذه الآيات قولهﷻ في سورة النحل:﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7)**﴾.

---

1 – ذي حجر: صاحب عقل.

2 – الأخلاف للنوق مثل الضروع للغنم.

وفي السورة نفسها -أيضا-: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ(80)﴾.

﴿أفلا تشكرون﴾

ختم الله ﷻ تذكير مشركي قريش بتلك النعم الوافرة بتوبيخهم على عدم شكرها.

ومعنى الجملة: أيشاهدون هذه النعم العظيمة فلا يشكرون المتفضل بها عليهم، بأن يعبدوه وحده دون سواه وهم الذين قال الله فيهم:﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار: جهنم يصلونها وبئس القرار، وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله، قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار**﴾ 20-22.

عبــــرة:

والعبرة التي ينبغي للمؤمن أن يستخلصها من هذه الآيات أنه كلما ملّكه الله حيوانا يركبه بيسر، ويحمل عليه أثقاله، ويقطع به مسافات... وكلما شرب جرعة من لبن، أو أكل قطعة من لحم أو جبن أو سمن أو زبدة أو إقط. وكلما انتفع بصوف أو وبر أو شعر أحس بفضل الله عليه في كل ذلك فيمتلئ قلبه

بتوحيده في ربوبيته وألوهيته، ويلهج لسانه بشكره والثناء عليه، وتنطلق جوارحه في طاعته، وتتورع عن محارمه مما يزيد في اتساع النعم، ويحفظ من النقم.

قال الله ﷻ في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(7)﴾.

قوله تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ(73) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ(74)فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(75)﴾.

المناسبة بين هذه الآيات والآيات السابقة:

في الآيات السابقة دلائل واضحة على وحدانية الله وقدرته ورأفته بعباده، ومنهم مشركو العرب المعنيون بضمائر الغيبة في: اتخذوا –ينصرون– نصرهم.

وفي الآيات اللاحقة تعجيب من حالهم من حيث إنهم يرون رأي العين آثار قدرته ﷻ ووحدانيته ورحمته فيما خلق لهم من أنعام ملكهم إياها، وذللها لهم، فاستطاعوا أن يركبوها ويحملوا عليها أثقالهم، ويأكلوا من لحومها، ويشربوا من ألبانها، ويكتسوا من أصوافها و أوبارها وأشعارها ومع ذلك يُعرضون عن الخالق العظيم الذي رزقهم ونعّمهم ويقبلون على أصنام جعلوها آلهة يعبدونها من دون الله أو مع الله، وهي لم تخلق شيئاً، ولم تجلب لهم رزقا ولم تسق لهم نفعاً، ولم تدفع عنهم ضراً، كما جاء في قوله ﷻ:﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ

يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(40)﴾ سورة الروم.

وفي قوله ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(3) ﴾ سورة فاطر.

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾

أي جعلوا لأنفسهم آلهة صنعوها من الأحجار والأخشاب وغيرها وعكفوا على عبادتها، راجين منها أن تنصرهم في الدنيا بان ترد عنهم البلاء، وتدفع عنهم المكاره وتنصرهم أيضا في الآخرة (إن كانت هناك آخرة في زعمهم فهم لا يؤمنون بها) وذلك بان تنجيهم من عذاب الجحيم. ودفعا لهذا الوهم الذي استولى على قلوبهم يأتي الرد الإلهي: ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ .

﴿وهم لهم جند محضرون﴾.

ضمير (هم) يعود إلى المشركين، وضمير الغائب في (لهم) يعود إلى الآلهة أي والمشركون كالجنود الحاضرين دائما للدفاع عن آلهتهم، يغضبون لها، ويؤذون كل من يعتدي عليها بقول أو فعل...

ويجوز أن يكون الضمير (هم) عائداً إلى الآلهة المدعاة والضمير في (لهم) يعود إلى المشركين أي والآلهة التي كانوا يقدسونها في الدنيا يحضرهم الله ﷻ مع

عابديها في الدار الآخرة، ويدخلهم معاً إلى نار جهنم ليروا أن آلهتهم لا تقدر عل نصرهم، وزحزحتهم عن النار وحينئذ يتبين لهم سخف اعتقادهم، وانحطاط عقولهم وذلك على حد قوله ﷻ في سورة التحريم:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... ﴾ 6 والله أعلم بمراده.

هذا إلى أننا نقرأ في القرآن الكريم أن المعبودين يتبرءون من عابديهم يوم العرض كما جاء في سورة يونس:﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ(29)هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(30)﴾.

﴿فلا يحزنك قولهم﴾

قرئ (يُحزِن) بضم الياء وكسر الزاي من (أحزن) الرباعي وهي قراءة نافع رحمه الله. وقرئ (يَحزُن) بفتح الياء وضم الزاي من (حزَن) الثلاثي، وهي قراءة عاصم رحمه الله، ومعناهما واحد، وهو إدخال الحزن والأسى على القلب.

وكاف الخطاب في (يحزنك) للنبي ﷺ وضمير الغائب في (قولهم) لمشركي قريش.

والمعنى: إن الله –تبارك وتعالى– نهى نبيه ﷺ أن يتأثر بأقوال المشركين فيه، وفي القرآن الذي أوحاه إليه حتى لا ينال الحزن من نشاطه واستمراره في الدعوة إلى الدين المعتد به عند الله وهو الإسلام .

ومن أقوال المشركين في رسول الله ﷺ إنه شاعر –كاهن ساحر– مجنون...

وفي القرآن إنه شعر –كهانة–سحر–أضغات أحلام... وكانوا ينكرون البعث والنشور ويقولون ما حكاه القرآن عنهم:﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ..** ﴾سورة الجاثية23. و﴿ **إن هي إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمنشرين...** ﴾ الدخان 33.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من قومه ونظيرها قول الله ﷻ في سورة لقمان: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**(23)﴾ .

﴿ **إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾

جملة تعليلية علّل الله بها نهيه نبيه عن الحزن الذي يسببه له قولهم فيه وفي القرآن، وذلك بإخباره أنه يعلم ما يخفيه أعداؤه في صدورهم وما يضمرونه، والذي يترتب على علمه بحالهم محاسبتهم ثم عقابهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم؛ وسلامة القلب تعني طهارته من الشرك والكفر

والنفاق، ومما كان المشركون يخفونه في داخل نفوسهم أن محمداً ﷺعلى حق، وانه رسول الله صدقا ولكنهم يظهرون للناس خلاف ما يبطنون، فيجابهونه بالتكذيب والإعراض.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(76)وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(77)قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(78)الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ(79)﴾

المناسبـة:

بعد أن أنكر الله ﷻ على المشركين اتخاذ آلهة من دونه، يرجون نصرهم، وشفاعتهم لهم عند الله في اليوم الآخر (إن كان هناك يوم آخر وجنة ونار في زعمهم) وبعد أن نهى نبيه عن التأثر بأقوالهم فيه وفي القرآن شرع في دحض الشبهة التي جعلت المشركين يستبعدون بعث الأموات وإحياءهم مرة أخرى .

سبب النـــزول:

جاء في الروايات أن أُمَية بن خلف توجه إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم إنسان رميم، ففتّه وذراه في الريح وقال يا محمد أتزعم أن الله يحيي هذا بعدما أرمّ؟ (أي بلى) فقال له النبي ﷺ نعم يميتك الله، ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم.

ويروى هذا القول –أيضا– عن العاص بن وائل وعن أبي جهل.

ويقول العلماء المحققون: لعل هؤلاء الثلاثة كان الواحد منهم يجيء إلى النبي ﷺ في فترات مختلفة، ويطرح عليه هذا السؤال فنزلت هذه الآيات.

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين؟ ﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاري، وفيه معنى التعجيب من قول ذلك الخصيم المبين.

والواو التي بعد الهمزة عاطفة الجملة التي بعدها على جملة محذوفة قبلها والتقدير: أعمي ولم ير؟ والرؤية –هنا– المفهومة من (ير) قلبية تعنى العلم والإدراك.

والإنسان يراد به في المقام الأول أحد أولئك الذين سألوا النبي ﷺ عن إحياء العظم الرميم.

ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيعم اللفظ كل إنسان ينكر البعث، ونحن نقرأ في غير ما آية أن إنكار البعث هو معتقد كل مشركي العرب كما هو معتقد كل الملاحدة في العالم.

ونظير الآية قوله في سورة مريم: **﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا(66)﴾**.

وفي سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(3)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(4)﴾.

والنطفة: الماء المهين الذي يتخلق منه الإنسان في رحم أمه، كما قال ﷻ في سورة المرسلات:﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(20)فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(21)، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ(22)فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(23)﴾؛ وفي سورة الإنسان:﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(2) ﴾.

و﴿خصيم ﴾: شديد الخصومة والجدال، واللفظ من صيغ المبالغة.

و﴿مبين﴾: من أبان (الرباعي) بمعنى: بان (الثلاثي) أي ظهر أي هو بين الخصومة لا يخفيها فهو مشهور بها .

و﴿إذا﴾: فجائية، تفيد أن خصومة هذا الإنسان لربه لم تكن متوقعة، كيف لا وقد خلق من مادة حقيرة، ولكنها وقعت على خلاف ما كان يجب عليه لو تفكر في أصله المتكون منه.

ومعنى الآية: أعمي هذا الإنسان وغفل عن المادة التي خلقه ربه منها فأصبح –بعد بلوغ أشده– يخاصم خالقه علانية، وينكر قدرته على إعادة الحياة إليه مرة أخرى؟

﴿ وضرب لنا مثلا، ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾

المثل: تشبيه حالة بحالة، وضرب المثل إيجاده والنطق به.

نسي خلقه: غفل عن نشأته الأولى من النطفة المهينة. والاستفهام في ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ إنكاري .

والرميم:البالي الذي مضت عليه السنون تحت التراب مأخوذ من رمّ العظم أو أرمّ إذا بلي.

وجملة: ﴿ قال: من يحيي العظام... ﴾ بيان لجملة: ﴿ضرب لنا مثلاً...﴾ .

ومعنى الآية: أن هذا الكافر ضرب لله مثلا ناسيا المادة التي خلقه منها، وتطويره في بطن أمه حتى اكتملت خلقته فولدته أمه ضعيفا بدنيا وعقليا وما زالت عناية الله ترعاه حتى استوى رجلا قويا فغفل عن مظاهر قدرة الله فيه فأنكر أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى، قايسا قدرة الخالق التي لا حد لها على قدرة المخلوق المحدودة الضعيفة، مما جعله يستبعد أن يبعث الله الحياة في العظام البالية المتفتتة.

وقد نهى الله عباده أن يشبهوه بغيره، وأن يضربوا له الأمثال حيث قال في سورة النحل: ﴿... فلا تضربوا لله الأمثال ... ﴾

وذكَّرهم بنشأتهم الأولى كي يتعظوا، فقال الله ﷻ : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾.

هذه الجملة جواب عن الجملة الاستفهامية قبلها ﴿ من يحيي العظام وهي رميم﴾ تتضمن الإعلام بأن الذي أنشأ العظام أول مرة قادر على إنشائها ثاني مرة وهو أهون عليه؛ والله ﷻ خبير بكل شيء يخلقه لا تخفى عليه منه خافية.

ولفظ ﴿خلْق﴾ قد يؤدي معناه المصدري فيكون بمعنى الإنشاء والتكوين، وقد يؤدي معنى اسم المفعول فيكون بمعنى: مخلوق. وله نظائر في القرآن الكريم.

ومثل الآية قوله في سورة الواقعة: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ**(62)﴾ . ونشأتهم الأولى تتمثل في نشأة أبيهم آدم من التراب ونشأة أمهم حواء من آدم، ونشأتهم هم من النُّطَف .

﴿ الذي جعل لكم من الشجر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾

هذه الجملة بدل من جملة: ﴿الذي أنشأها أول مرة﴾

والمقصود من الشجر الأخضر الطراوة التي تدل على سريان الماء في أغصانه.

و﴿توقدون﴾ مضارع أوقد مسند إلى واو الجماعة، يقال أوقد النار إذا أشعلها.و﴿إذا﴾ فجائية تفيد أن إيقاد النار في شجر طري يسري الماء في أغصانه غير متوقع لأن الماء والنار متناقضان ولكن قدرة الله لا يقف في طريقها هذا التناقض فقد أودع في الأشجار قابلية الاحتراق وبقدر تدرجها في يبسها تكون سرعة الاشتعال، على أن هناك نوعين من الأشجار يسرع في قضبانها الاشتعال

ولو كانت خضراء وهما المرخ والعفار الموجودان في جزيرة العرب بحيث إذا حك قضيب المرخ على قضيب العفار اتقدت النار، وسرت فيما حولها من حطب.

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم (في كل شجر نار، واستَمجَد المرخ والعفار).

ومن مظاهر قدرة الله ﷻ وحكمته أنه يخرج الشيء من ضده في غير الأشجار كما قال أحد الشعراء:

جمع النقيضين من أسرار قدرته هذا السحاب به ماء به نار

وصدق من قال:

وفي كل شيء له آية تـــدل على أنه واحـد.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(80)﴾

الهمزة للاستفهام الذي ضُمِّن معنى الإنكار عليهم، والتعجيب من أقوالهم وأحوالهم.

والواو عطفت الجمل التي بعدها على الجمل التي قبلها .

والتقدير: أليس الذي أنشأ العظام أول مرة، وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا...وليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟.

وفي هذه الآيات الثلاث ترق في الاستدلال على قدرة الله تعالى؛ فالاستدلال الأول منبعث من الإنسان نفسه (الذي أنشأ عظامه أول مرة قادر على إحيائها ثاني مرة).

والاستدلال الثاني ناشئ مما يراه الإنسان حوله (من قدر على جعل خاصية الاحتراق في الشجر الأخضر لا يعجز عن إحياء الإنسان بعد موته).

والاستدلال الثالث مستمد من المحيط الواسع جداً جداً (الذي قدر على خلق الأكوان العظمية من سماوات وأرضين ومن فيهما وما فيهما من عجائب كيف يعجز عن إعادة خلق الناس، للحساب ثم الجزاء.

واسم ليس هو الاسم الموصول وصلته (الذي خلق...) وخبرها كلمة (قادر) المجرورة لفظا بالياء الزائدة للتوكيد، المنصوبة تقديرا.

والمصدر المسبوك من الفعل المضارع المنصوب بعد (أن) مجرور بعلى، وتقدير الكلام أوليس الذي خلق السماوات والأرض قادرا على خلق مثلهم؟ والمراد بـ(مثلهم) هم ومن يماثلهم...

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة غافر :﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(57)﴾، وفي سورة الأحقاف: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(33) ﴾.

و(الخلاق) صيغة من صيغ المبالغة أي كثير الخلق للأشياء.

و (العليم) كذلك من صيغ المبالغة أي هو واسع العلم بما يخلق من حيث تراكيبها وأحوالها.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(81)﴾

﴿أمره﴾: شأنه في إيجاد الأشياء.

وجملة ﴿إذا أراد شيئا ﴾ معترضة بين المبتدأ وخبره الذي هو المصدر المسبوك من الفعل المضارع المنصوب بـ(أن) (أن يقول) وتقدير الكلام:إنما أمره قوله للشيء كن.

و﴿كن﴾: فعل أمر مصوغ من (كان) التامة المكتفية بمرفوعها.

وجملة (يكون) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فهو يكون.

وبما أن الآية مصدّرة بـ(إنما) فهي تفيد الحصر أو القصر أي أمر الله في موضوع الخلق والتكوين قاصر على تعلق إرادته بإيجاد شيء مّا فيوجد بدون تعطّل أو على قوله كن فيكون بدون تأخير، وفي هذا المعنى يقول أحد الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له: كن –قولة– فيكون.

ومن ثمَّ فإن إحياء الله الموتى لا يحتاج إلى أقوال متكررة أو علاجات شاقة.

فالآية تمثيل لسرعة نفوذ قدرته فيما يريده ونظير الآية قوله ﷻ في سورة النحل﴿ **إنما قولنا لشيء –إذا أردناه– أن نقول له: كن، فيكون**﴾.40

قوله تعالى:

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(82)﴾

الفاء: جزائية أي حين علمت جراءة أولئك المشركين على ربهم بإنكارهم قدرته على إحياء الأموات (وذلك وصف له بالعجز) فتقديسا له، وتنزيها له عما يقوله الجاهلون فكلمة (سبحان) عَلم على تنزيه الله وتقديسه وتحمل أيضا معنى التعجب أو التعجيب.

وأضيفت كلمة (سبحان) إلى الاسم الموصول وصلته (الذي بيده ملكوت كل شيء) لتوضيح استحقاقه ﷻ للتنزيه من حيث إن بيده ملكوت كل شيء.

والملكوت على وزن (فعلوت) بزيادة الواو والتاء مبالغة في الملك أي الملك الواسع العظيم؛ وقد وردت في اللغة العربية كلمات بهذا الوزن، قالوا: رحموت ورهبوت وجبروت.

ومن أقوال العرب الشبيهة بالأمثال قولهم: رهبوت خير من رحموت أي لَأَن تكون قويا يرهبك الناس ويحترمونك خير لك من أن تكون ضعيفا ذليلا تستجلب الرحمة والشفقة منهم.

وإذا كان الله ﷻ يملك كل شيء فكيف يصير مملوكه شريكا له في ملكه يستحق العبادة معه أو دونه؟.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة المؤمنون: ﴿ **قل من بيدِه ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟**﴾ 89.

وفي أول سورة الملك: ﴿ تبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير﴾.

وقد ضرب الله الأمثال لهذه الحقيقة في القرآن الكريم لترسيخها في أذهان الناس.

من ذلك قوله ﷻ في سورة الروم: ﴿ **ضرب لكم مثلا من أنفسكم؛ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون** ﴾27.

﴿ وإليه تُرجعون﴾

﴿إليه﴾: جار ومجرور، قدما على عاملهما للاهتمام بالضمير العائد إلى اسم الجلالة (أي إليه لا إلى غيره) والأصل ترجعون إليه، ولمراعاة الفواصل أيضا.

والجملة تؤكد إعادة الخلق إلى الخالق بإحيائهم بعد إماتتهم، وبسوقهم إلى المحشر في يوم القيامة لمحاسبتهم ثم مجازاتهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فريق إلى الجنة حيث يلقون رضوان الله، وينعمون بما أعده لهم، جعلنا الله من أهلها؛ وفريق إلى النار حيث ينتظرهم سخط الله ويعانون ما هيأه لهم من عذاب، أعاذنا الله منه.

ونظير الآية قوله ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿**كل نفس ذائقة الموت، ثم إلينا ترجعون**﴾.57

انتهى ما قصدت إليه من تقريب معاني هذه السورة الكريمة التي يردد الناس تلاوتها في عدة مناسبات.

وان أصبت فلله المنة والحمد، وإن أخطأت فمن صفاته –تعالى– الرحمة والعفو، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكان الفراغ من هذا التفسير خلال شهر محرم من سنة 1426 هجرية.

سورة الحجرات

مُقَدِّمَة

الحمد لربنا ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للأنام، سيدنا محمد بن عبد الله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه.

أما بعد فقد أسعدني الله ﷻ بأن أفسح لي في الأجل حتى أتممت ما أزمعته من تفسير سورة الحجرات التي يسميها العلماء سورة الآداب والأخلاق، تسمية لها بما احتوته من تلك الجواهر التي تعد من مكونات شخصية المسلم.

وبما أن الاعتبار المنشود بالآيات القرآنية إنما يحصل بفهمها ثم تدبرها (كما قال الله – تعالى– في سورة ص: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ الآية29 .

وبما أن موضوعات سورة الحجرات– إن جسدت معانيها في مجتمع مّا– تسهم إسهاماً محموداً في تقويمه وترقيته إلى مستوى يتناسب مع التكريم الإلهي الذي حباه الله الإنسان كما قال –تعالى– في سورة الإسراء: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ الآية 70، فقد انبرى عدد من العلماء لتخصيصها بتفسير يوضح مكنونات أسرارها، ويستخرج ما يمكن استخراجه من عبرها، وكل منهم انطلق من مدركاته وتوجهاته الخاصة، وأحوال أهل بيئته العامة.

وقد حداني إلى تفسير هذه السورة الكريمة ما حدا أولئك العلماء فخصصت لتفسيرها دروساً جمعية في بعض مساجد متليلي ثم رأيت أن أجمعها – مختصرة – في هذا المؤلف الذي أسميته " أضواء على سورة الحجرات".

وقد أفرغت جهدي في تقريب مقاصد الآيات، وإنزالها من سمائها ليسهل على القارئ تناوش عناقيدها من مكان قريب، فإن أصبت المحز فلله الحمد والمنة، وإن أخطأت في بعض المواقع فالله واسع المغفرة.

والله من وراء القصد، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وكتبه: الأخضر الدهمة

سورة الحجرات

سمِّيت بهذا الاسم لوروده فيها، وعدد آياتها ثماني عشرة، نزلت بالمدينة، وهي في مشهور أقوال العلماء أول طوال المفصل، وأول وسطه سورة عبس، أما أول قصاره فسورة الضحى.

والمقصود بسور المفصَّل التي يكثر الفصل فيها بين السورة والتي تليهـا.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (1)

سبب النزول:

روي عن قتادة ﷺ أنه قال ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون لو أنزل في كذا وكذا، لو صح كذا، فكره الله تعالى ذلك فأنزل هذه الآية.

وسورة الحجرات تشتمل على آداب جمة أدب الله بها عباده المؤمنين، وكان أول تلك الآداب ما تضمنته الآية الأولى منها.

كثيرا ما ينادي الله- تعالى-أتباع رسوله الكريم محمد ﷺ بقوله:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ لينتبهوا إلى أن ما يرد بعد هذه الجملة هو من مقتضيات الإيمان بالله

ورسولـه، وهو ما يستجيش في نفوسهم الطاعة والامتثال لما ينهون عنه أو يؤمرون به.

و﴿تُقَدِّمُوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية مسند إلى واو الجماعة، ماضيه: (قدَّم) المضعَّف الذي يستعمله العرب متعديا ولازما، يقولون -مثلا- عند تعديتـه إلى مفعوله: "لا تقدم نفسك قبل غيرك"، وعند لزومه فاعله واكتفائه به:"لا تقدِّم بين يدي الإمام" أي لا تتقدم عليه.

وصيغة هذا الفعل في الآية الكريمة يحتمل أن تكون من "قدَّم" المتعـدي، وحـذف مفعوله ليذهب العقل في تقديره كل مذهب، بحيث يشمل النهي كل ما لا يجوز تقديمه بين يدي الله ورسوله، أي قبل حكمهما، كما يحتمل أن تكون من "قدم" اللازم أي لا تتقدموا.

والمعنى-على كلا الاحتماليـن- أن الله ﷻ نهى المؤمنين أن يتعجلوا برأيهـم فـي أي أمر له علاقة بالدين، وأن يقضوا في شيء دون الرجوع إلى قضاء الله - تعالى- أو قضاء رسوله ﷺ.

عن مجاهد ﷺ في معنى الآية: "لا تفتاتوا[1] على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله على لسانه ".

1- يقال في اللغة: افتات في الأمر:إذا استبد به، و لم يستـــتر، وافتات عليه القول: افتراه عليه.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-:" لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ".

وعن الضحاك ﷺ :"لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله " .

واستنادا إلى هذه الآية ومثيلاتها أجمع الفقهاء على أنه لا يجوز لمسلم أن يُقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه .

وعطف (الرسول) ﷺ على (الله) -عز وجل- لأنه مبلغ عنه، لهذا كانت طاعة الرسول ﷺ طاعة لله -تعالى- كما جاء في سورة النساء:﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً**﴾ الآية80.

كيف تعامل صحابة رسول الله ﷺ مع هذه الآية الكريمة ؟

كانوا -رضي الله عنهم- نماذج مشخصة لهذا التوجيه الإلهي القيم، ومما يصور لنا هذا التشخيص ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن معاذ -رضي الله عنه- حين انتدبه رسول الله ﷺ للذهاب إلى اليمن من أجل تعليم أهلها أحكام الإسلام، و قبل توديعه طرح عليه الأسئلة التالية: بم تحكم ؟ قال: بكتاب الله -تعالى- قالﷺ : (فإن لم تجد ؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ قال:(فإن لم تجد ؟)، قال ﷺ : أجتهد رأيـي ولا آلو[1]، فضــرب رســول الله ﷺ في صدره، وقال : (الحمـد لله الذي وفـق رسول رسول الله إلى مايرضي الله ورسوله).

1 - لا آلو : لا أقصر في الاجتهاد.

ومن ذلك توقفهم ﷺعن إجابة الرسولﷺ حين سألهم أثناء خطبته بمنى في حـجـــة الوداع، وقولهـم (الله ورسوله أعلم)، مع أنهم كانوا يعلمون الإجابة حق العلم، وذلك لأنهم خافوا أن يسبقوه بما لا يريد فيصدق عليهم أنهم تقدموا بيـــن يدي الله ورسوله بشيء وهو ما نهـــوا عنه .

جاء في حديث أبي بكرة الثقفي ﷺ أن النبي ﷺ سأل –أثناء خطبته- في حجة الوداع: (أي شهر هذا ؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال:(أليس ذا الحجة ؟)، قلنا: بلى، قال: (أي بلد هذا ؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال:(أليس البلد الحرام ؟)، قلنا: بلى، قال: (فأي يوم هذا ؟)، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : (أليس يوم النحر؟ قلنا بلى ...).

فانظر- أيها المؤمن كيف كان السلف الصالح يحرصون على التقيد بكتاب الله وسنة رسوله، ويتحرجون من الوقوع فيما نهاهم الله عنه، وكيف كان أدبهم مع نبيهم، فاللهم ارزقنا أدبهم، واحشرنا في زمرتهم.

تنبيـه : كان بعض الصحابة يراجعون رسول الله ﷺ في بعض المواقف، ولم يكن ذلك من باب العناد أو حب الاستقلال بالرأي، وإنما هو الاستغراب من تصرف نبوي جهلوا الحكمة من ورائه فاستعجلوا معرفتها، كما وقع من سيدنا عمر –رضي الله عنه- حين لم يدرك أبعاد البنود التي وافق عليها رسول الله ﷺ في

صلح الحديبية فراجعه فيها، ولا شك أنه أدرك خطأه فيما بعد، حين رأى أن البنود التي تغاضى عنها رسول الله ﷺ كانت في صالح المسلمين، وعادت بالخيبة على المشركين.

ومما يدلنا دلالة واضحة على أن مراجعة عمر –رضي الله عنه– لرسول الله ﷺ لا تدخله ضمن الذين يتقدمون بين يدي الله ورسوله بشيء ما روي من خصومة وقعت بين يهودي ورجل من المنافقين[1]، فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد وقال المنافق : ننطلق إلى كعب بن الأشرف (وهو زعيم يهودي اشتهر بحب الرشوة وببغضه للرسول ﷺ) فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺفقضى رسول الله ﷺ لليهودي الذي كان له الحق، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال انطلق بنا إلى عمر، فأتيا إلى عمر، فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى عليه ، فلم يرض بقضائه ، وزعم أنه يخاصمني إليك ، فقال عمر للمنافق: أكذلك ؟ فقال: نعم، فقال لهما عمر: رويدا حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت، وأخذ السيف، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد (أي مات) وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله، وقضاء رسوله.

وهكذا يتجلى تقديس عمر رضي الله عنه لحكم الله ورسوله، وقد نزل في هذه الحادثة قوله –تعالى– في سورة النساء:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ

1 – عن حاشية أحمد الصاوي على تفسير الجلالين.

إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾60.

ومما لا يدخل تحت النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ما يتعلق بشؤون الدنيا فقد قال رسول الله ﷺ بمناسبة القضية المشهورة المتعلقة بتأبير النخل:(أنتم أعلم بأمور دنياكم) رواه مسلم، وفي رواية لأحمد:(إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به،فإذا كان من أمر دينكم فإلي).

واعلم- أيها اللبيب- أن بعض المناوئين للإسلام يستشهدون بهذا الحديث الشريف على أن الشريعة الإسلامية لا علاقة لها بشئون الحكم والسياسة والحرب والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية وغيرها لأنها من أمور الدنيا، والحق أن الحديث الشريف إنما يتناول من أمور الدنيا ما يتعلق بتجارب الناس وخبراتهم في أعمالهم الحرفية، أما ما يتعلق بتنظيم الحياة المدنية وتوجيهها فلم يترك جانبا منها إلا وضبطه بالقوانين والنصوص التي تضمن السعادة للأفراد والجماعات، والشواهد على ذلك أشهر من أن تذكر.

ونحن- مسلمي هذا العصر- كيف حالنا مع هذه الآية الكريمة ؟

الواقع المؤسف- في الكثير من البلاد الإسلامية- أن فئة من المتظاهرين بالإيمان شرعوا للمسلمين بعض القوانين التي تعاكس قوانين دينهم، فأحلوا ما

حرم الله، وحرموا ما أحل الله مفضلين قوانينهم الوضعية على القوانين الربانية، وبذلك تحدوا مضمون هذه الآية.

والأمثلة على ذلك كثيرة:

-منها: نظام المواريث، فقد جعل الله -ﷻ- للذكر مثل حظ الأنثيين، ونحن نعلم أن النفقات العائلية وغيرها كلها مفروضة على الرجال دون النساء ولكن بعض الأنظمة العربية أبطلت هذا الحكم، وسوت بين الذكر والأنثى في الإرث، وهو ما يتنافى مع العدل.

- ومنها: تعدد الزوجات فقد أباح الله -تعالى- للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة إذا تحقق أنه قادر على العدل بينهن لما في التعدد من فوائد جمة تعود على المجتمع الإنساني بالخير العميم، ومن أراد الاطلاع على هذه الفوائد وما تبرزه من حكمة التشريع الإلهي فهي مبسوطة في مواضعها من كتب التفسير وغيرها،ولكن المتجرئين على خالقهم منعوا التزوج بأكثر من واحدة، وفي الوقت نفسه أباحوا للرجل أن يتخذ ما شاء من الخليلات،فاستبدلوا الخبيث بالطيب،وأباحوا السفاح،وحرموا النكاح.

ومنها أن الله -تعالى- أمر النساء المسلمات بالتحجب والتعفف والتزام الفضيلة، ولكن المتغربين أمروا النساء بالتبرج والتحلل من القيود الخلقية، وإمعانا منهم في التحدي منعوا -في بعض البلاد العربية- الفتيات المتحجبات من

الدراسة في المعاهد التربوية، والتوظيفْ في المؤسسات الإدارية، وقد بلغ بهم التحدي إلى منع النساء حتى من المجالس النيابية إذا أصررن على لبس الحجاب ... إلخ .

واعلم -أيها القارئ الكريم- أن من يشرعون للناس ما يخالف شريعة ربهم قد جعلوا أنفسهم أربابا من دون الله، وأن من ارتاح إلى تشريعهم، وازَّيَّن في نفسه صنيعهم فقد اتخذهم أربابا من دون الله، كما جاء ذلك مفسرا في قول الرسول ﷺ لعدي بن حاتم الطائي.

وحتى لا أتعبك بالإحالة على غير هذا الكتاب أنقل إليك قصة إسلام عدي والتقائه مع الرسولﷺ من تفسير ابن كثير -رحمه الله- عند قوله تعالى في سورة التوبة : **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِّ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** 31 .

قال -رحمه الله- :(روى الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم ﵁ أنه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فرَّ إلى الشام،وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم مـــنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيسا في قومه (طيء) وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ (وفي عنق عدي صليب من فضة)، وهو يقرأ

هذه الآية : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهَّ ...﴾،قال:فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال:(بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم).

ومما يدخل ضمن التقدم بين يدي الله ورسوله ما اخترعه بعض الناس من بدع في الدين تتنافى والنصوص الشرعية، ولئن قيل لأحدهم: تعال إلى كتاب الله، وسنة رسوله، أو ما استنبطه العلماء الأجلاء من النصوص الشرعية أعرض ونأى بجانبه، وتمسك بأقوال واهية لا تستند إلى دليل شرعي صحيح، بينما الواجب الشرعي يقتضي أن يزن المؤمن ما يقع في المجتمع أو ما هو واقع من قضايا تعبدية أو اجتماعية بميزان القرآن الكريم أو سنة النبي الأمين، أو ما فهمه منهما أولو النهى من العلماء المجتهدين ليعرف ما يستحق القبول فيقبله وينصره، أو ما يستوجب الرفض فيرفضه ويحاربه .

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾

هو أمر من الله-تعالى- للمؤمنين أن يتقوه، أي يحذروا عقوبته إن هم فعلوا ما نهوا عنه، وهو أن يسبقوا الله ورسوله بقول أو فعل أو يخالفوا عن أمره ونهيه. قال -تعالى- في سورة الأحزاب : **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُّ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾**36

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أخبر الله -تعالى- بأنه دقيق السمع لكل ما يقال ، ومنه الأقوال التي تسبق قول الله ورسوله، أو تخالف تشريعه، وأخبر أيضا بأنه واسع العلم بكل ما يجري على ألسنتهم، أو يضمرونه في أفئدتهم، قال -تعالى- في سورة المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ 7

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(2) ﴾

سـبب النـزول :

أخرج ابن جرير عن قتادة، قال: كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله -تعالى-﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية.

أعيد النداء للمؤمنين بوصف الإيمان لمزيد إيقاظهم وتنبيههم إلى أن ما بعد هذا النداء جدير بالمراعاة والاهتمام: وهو النهي عن رفع أصواتهم فوق صوت النبيء ﷺ حين يتخاطبون في مجلسه أو يخاطبونه، والنهي أيضا عن الجهر

له ﷺ بالقول كما يجهر بعضهم مع بعض، وكما ينادي بعضهم بعضا بقوله: يا فلان، فإن ذلك لا يليق بمقام النبوة، ولا يتـناسب مع من اختـاره الله -تعالى- ليكون رسوله إليهم، فالمناسب عند ندائه أن يقولوا: يا نبي الله أو يا رسول الله ، ومثل الآية قوله -تعالى- في سورة النور :**﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾** من **الآية** 63.

ونحن - حينما نستعرض القرآن الكريم، نلاحظ أن الله -تعالى- في معرض ندائـه لمحمد ﷺ لا يناديه بقوله: يا محمد، أو يا أبا القاسم، وإنما يناديه بما فيه توقيره واحترامه، أو التلطف معه فيقول: يا أيها النبيء، أو يا أيها الرسول، أو يا أيها المزمل أو يا أيها المدثر، فأجْدِرْ بأتباعه أن يكفوا عن ندائه باسمه أو كنيته، ويتأدبوا بما أدبهم الله به.

وقد تأدبوا -فعلا- بهذا التأديب الإلهي فـلم يعودوا ينادونه بغيـر وصف النبوة أو الرسالة، وكفوا عن رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ وكانت مخاطبتهم له همسا أو قريبا من الهمس مما يدل على توقيره واحترامه، حتى إن أبا بكر الصديق ﷺ قال لرسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية: " والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار[1] حتى ألقى الله " رواه الحاكم عن أبي هريرة.

---

1 - السرار : السر بالقول.

ويروى عنه أيضا أنه كان إذا قدم الوفود إلى رسول الله ﷺ أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون عليه، ويأمرهم بالسكينة و الوقار عنده ﷺ وحتى إن عمر ﷺ فيما يرويه البخاري أنه كان يخفض صوته عند مخاطبته رسول الله ﷺ حتى يستفهمه عما قال.

وكما وجب على المؤمنيـن احترامه والتأدب معه ﷺ في حياته يجب عليهم أن يتأدبوا معه بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، وذلك بحسن الاستماع إلى أحاديثه الشريفة وعدم الإعراض عنها في مجالس العلم.

كما يطلب منهم أن يلزموا السكينة والوقار عند زيارته في قبره أو وجودهم في مسجده الشريف.

قال ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره: "وقد روينـا عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب –رضي الله عنه– أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: "أتدريان أين أنتما ؟! ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال:"لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا ". وقال العلماء: يكره رفع الصوت عـند قبره ﷺ كما كـان يكـره في حياتـه ﷺ لأنه محترم حيا، وفي قبره دائما. انتهى كلام ابن كثير.

وقال أبو بكر بن العربي– في معرض حديثه عن هذه الآية–: "حرمة النبيء ﷺ ميتا كحرمته حيا،وكلامه الـمأثور –بعد موته–في الرفعة مثل كلامه المسموع

من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه،كما كان يلزمه ذلك في مجلسه حين تلفظه به" انتهى باختصار.

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾

تحبط: مضارع "حبط" بكسر الباء، ومصدره الحبط (بفتح الباء وتسكينها) ويقال: حبط عمله (بفتح الباء يحبط (بكسرها) حبوطا (بضم الحاء) والمعنى الحقيقي لـ "الحبط" انتفاخ يحصل في بطن الدابة بعد أن تأكل نبتة سامة تؤدي بها إلى الموت.

ومن ذلك قوله ﷺ : " إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم " رواه ابن حبان، وهو مثل للحريص المفرط في الجمع والمنع. ثم استعير"الحبط" لتلاشي أعمال الإنسان الصالحة وبطلان ثوابها،ومن ثم هلاكه ودماره وعذابه كما تهلك الـدابة من جراء انتفاخ بطنها لأكلها ما يضرها.

والفعل المضارع "تحبط" منصوب بأن المصدرية التي يسبك الفعل بعدها بمصدر محله الجر إما بالإضافة إلى كلمة محذوفة أو بحرف الجر المحذوف وتقدير الكلام أن الله –تعالى- نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبيء ﷺ، ونهاهم عن الجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض: كراهة حبط أعمالهم، أو تجنبا لحبط أعمالهم.

وجملة ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ جملة حالية.

وتقدير الكلام:... تحبط أعمالكم والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها، أي لا تحسون بذلك ولا تعلمونه.

وفائدة الجملة الـتحذير من سوء الأدب مع النبيء ﷺ لأنهم إن استمروا فيه صار لهم عادة يأنسون بها، ويغفلون عن سوء عاقبتها، وهي إحباط ثواب أعمالهم الصالحة، من غير أن يشعروا بذلك، ويتفطنوا له، على حد قوله ﷺ "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يكتب الله له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض" رواه مسلم.

أخبرت أن بعض جهال المسلمين وجاهلاتهم -حين يـبتـليهم الله بشيء مؤلم- يتلفظ أحدهم بألفاظ لا يلقي لها بالا، ولكنها تخرجه من الإسلام، وتدخله النار (إن لم يحدث لها توبة) وذلك كقوله (بالعامية) "ربي مرات يديرها ويقعد يتفرج "وكقوله: "ربي مرات يغلط " وقد يتوجه أحدهم إلى الله -تعالى- بالدعاء ويشرك معه غيره من المخلوقين أو يتوجه إلى المخلوق وحده، وينسى خالقه الذي سواه وقدره ولطف به، ولا يلقي بالا لكلماته، ولا يشعر بفداحتها، ولكنها تحبط عمله، والعياذ بالله، لأنه أسخط بها ربه، وأغضبه.

وعلى عكس ذلك: يتفوه المسلم بكلمة طيبة لا يلقي لها بالا، ولكنها تكون سببا في إعلاء كلمة الله، أو في هداية أخيه، فيرضى الله عنه ويوفقه ثم يدخله الجنة (جعلنا الله من أهلها).

تـعـلـيـق:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالكﷺ قال: لما نزلت هذه الآية ، وكان ثابت بن قيس رفيع الصوت (كان في أذنه وقر) فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار ، حبط عملي، وجلس في أهله حزينا، ففقده رسول الله ﷺ ، انطلق بعض القوم إليه فقالــوا له: تفقدك رسـول الله ﷺ، مالكـ؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبيء ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار، فأتوا النبيءﷺ فأخبروه بـما قال، فقال النبي ﷺ: (لا بل هو من أهل الجنة).

قال أنس ﷺ .... فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابث بن قيس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال بئسما تعودون أقرانكم، فقاتلهم حتى قـتل ﷺ .

وفي رواية: فقال له النبيء ﷺ :(أما ترضى أن تعيش حميدا، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟) فقال ﷺ: رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي

أبدا على صوت رسول الله ﷺ قال: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾. عن تفسير ابن كثير.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(3)﴾.

شـرح الألـفـاظ:

(يغضون) فعل مضارع مسند إلى واو الجماعة، مـاضيه: (غض) ومصدره الغض) والأمر منه (غض) بالإدغام، و (اغضض) بـفك الإدغام.

وغض الصوت: خفضه بحيث لا يكون مرتفعا (وهو المراد هنا) ومنه قوله -تعالى- في سورة لقمان - إخبارا عن وصية لقمان لابنه-:﴿**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ من الآية 19.

كما أن غض البصر: خفضـه، بحيث لا يحدق الناظر في الشيء الـمنظور، ومنه قوله -تعالى- في سورة النور: ﴿ **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**) من الآية 30 ، ﴿ **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾ من الآية31.

(امتحن) ابـتلى واختبر وجرب ، ومنه امتحان الأساتذة لطلابهم بتكليفهم الإجابـة عن أسئلة يطرحونها عليهم ليتبين نجاحهم أو فشلهم.

وامتحــــان الله لعباده يكون بأمور:

أ- بتكليفهم الالتزام ببعض الآداب، والتقيد بإتيان ما أباحه لهم وترك ما حرمه عليهم، لتظهر طاعتهم أو معصيتهم.

ب- بإغداق النعم عليهم ليظهر شكرهم أو كفرهم وجحودهم.

جـ- بابتلائهم بالـمصائب ليتبين صبرهم أو جزعهم.

بسـط المعنــى:

نهى الله -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ وعن الجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض، فأطاعوا وامتثلوا فكان جـزاؤهم أن أحل الله التقوى في قلوبهم، وجعلها ملكة راسخة فيها، بحيث لا يخطر لها أي فسوق أو عصيان، وبذلك كانت قلوبهم خالصة للتقوى وإذا حلت التقوى في قلب الـمؤمن -بفضـل الله- كانت له كالنـور الذي يفرق به بين الحـق والباطل، كما قال الله -تعالى- في سورة الأنفـال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾29.

وفي الآية مدح عظيم لأولئك الذين أطاعوا الله -تعالى- فيما نهاهم عنه، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وثابت بن قيس، رضي الله عنهم كما تقدم في الآية السابقة، وقد وعدهم أيضا بغفر ذنوبهم أي سترها بحيث لا يؤاخذهم عليها، وبالأجر العظيم ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ المائدة: من الآية9.

ونرجو الله -تعالى- أن يحقـق ذلك الوعد لجميع المؤمنين الذين يتأدبون مع رسول الله ﷺ عند قراءة أحاديثه الشريفة، وحين زيارته عند قبره الكريم.

فائـــدة:

روى الإمام أحمد عن مجاهد قـال: كتب إلى عمر رضي الله عنه: يـا أمير المؤمـنين، رجل لا يـشتهي المعصية، ولا يـعمل بهـا أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكـتب عمر رضي الله عنه إن الذين يـشتهون المعصية ولا يعملون بها أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(5)﴾

سبب النزول:

روى ابن جرير بسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: اجتمع ناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكا نعش بجناحه (وفي رواية نعش في جنابه) قال (أي زيد): فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه، وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله -تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**

﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾. قال : فأخذ رسول الله ﷺ بأذني، فمدها وجعل يقول: (لقد صدق الله قولك يا زيد).

قال قتادة: نزلت في وفد تميم- وكانوا سبعين رجلا-جاءوا إلى النبيﷺ للمفاخرة، فنادوا على الباب: اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا لزين، وإن ذمنا لشين، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وهو يقول : "إنما ذلك الله الذي مدحه زين، وذمه شين"، فقالوا نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال رسول الله ﷺ : (ما يالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا)، فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه، فقال ﷺ لثابت بن قيس- وكان خطيب النبي ﷺ : (قم فأجبه)، فأجابه، وقام خطيبهم فمدح قومه، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: (أجبه)، فأجابه في قصيدة طويلة، فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع بن حابس: وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيـبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم دنا من رسول الله ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ :" ما يضرك ما كان من قبل هذا " ثم جوزهم وأحسن جوائزهم.

(ينادون) : مضارع نادى، مسند إلى واو الجماعة، يقال: ناداه-يناديه-مناداة: إذا دعاه بصوت مرتفع، فالداعي: مناد، والمدعو: منادى، ومنه قوله – تعالى- في سورة ق: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ 41

وضمير الخطاب وهو الكاف في "ينادونك" عائد إلى النبيء ﷺ.

﴿مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ الحجرات: جمع مؤنت سالم، مفرده: حجرة وهي قطعة من الأرض محجورة أي محاطة بجدار ونحوه والحجر: المنع.

﴿وراء﴾من المواراة، وهي الستر، فما ستر عنك بحيث لا تراه فهو وراءك، ومنه قوله تعالى في سورة المؤمنون:﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (من الآية 100).

ومعنى ﴿ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾: يصيحون باسمك من وراء الحجرات، والمراد بالحجرات: حجرات النبيءﷺ التي كان يسكنها مع زوجاته ،لتسع لكل واحدة حجرة، وكان بابها الرئيس مفتوحا على المسجد النبوي وكانت مسقوفة بجريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود وكانت غير مرتفعة، يتناول سقفها باليد، وقد أدخلت في عهد الوليد بن عبد الملك-بأمره- في المسجد، فبكى الناس لذلك.

قال سعيد بن المسيب يومئذ " لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر فيها.

والتعبير بصيغة المضارع (ينادون) الدال على الحال أو الاستقبال بدلا من الماضي (نادى) الدال على حصول مناداتهم قبل نزول الآيتين-كما هو الواقع- لاستحضار صورتهم في الذهن وهم يصيحون باسم محمد ﷺ بدون أدب.

ونفي العقل عنهم معناه أنهم لم يلتزموا ما يقتضيه العقل الواعي وهو التأدب في معاملتهم مع أشرف الناس،واختيار الوقت الملائم لزيارته، والألفاظ اللائقة بمقامه عند ندائه.

ونفي العقل عن أكثرهم يوحى بأن أقلهم ليس كذلك.

وإذا كان الله -تعالى- قد ذم هؤلاء الذين لم يتأدبوا مع رسوله ﷺ في هذه الآية فقد مدح أولئك الذين كانوا يوقرونه ويعظمونه في الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾

(لو): أداة شرط،فعل شرطها محذوف، تقديره (ثبت) أي لو ثبت أنهم صبروا. وما بعد (أن) وهو فعل:(صبروا) يسبك بمصدر موقعه الرفع على الفاعلية لفعل (ثبت)، والتقدير: لو ثبت صبرهم...، وجواب شرط (لو) هو جملة:"لكان خيرا لهم"، والضمير المستتر في(كان) يعود إلى المصدر المفهوم من فعل (صبر) وتقدير الكلام: لو ثبت صبرهم وانتظارهم إلى أن تخرج إليهم لكان هذا الصبر خيرا لهم وأفضل

وهذه الخيرية التي كانت ستحصل لهم لو أنهم انتظروا وتمهلوا تتحقق في أمور:

أ- في الأجر الذي يكتبه الله لهم كفاء تعظيمهم لرسوله ﷺ.

ب- وفي ارتياح نفس النبيء ﷺ لهم، وانشراح صدره للتحدث معهم.

ج- وفي احترام الناس لهم، وعدم التندر بفعلتهم ، والله أعلم.

وتذييل الكلام بقوله -تعالى-:﴿والله غفور رحيم﴾ يفيد أن الله -تعالى- الموصوف بكثرة المغفرة لعباده، وبالرحمة لهم يتجاوز عنهم سوء أدبهـم مع نبيه ﷺ إن لم يعودوا إليه، وذلك لأنه لم يكن عن قصد وتعمد.

والخلاصة أن الآية الرابعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ أفادت ذم أولئك الذين أزعجوا الرسول ﷺ وأن الآية الخامسة اشتملت على ما فيه تربية لهم، وأرشدتهم إلى التوبة من فعلتهم ليكونوا أهلا لمغفرته ورحمته.

هذا وقد استضاء المؤمنون المتقون الحريصون على العمل وفق كتاب الله – تعالى- بهاتين الآيتين فكانوا أمثلة رائعة لاحترام العلماء المخلصين العاملين بما أنهم ورثة الأنبياء- كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

من ذلك ما نقله الإمام محمود الألوسي عقب تفسيره لهاتين الآيتين: يحكى عن أبي عبيد-وهو في الفضل من هو- أنه قال: ما دققت على عالم بابا حتى يخرج في وقت خروجه (ونقله بعضهم عن القاسم ابن سلام الكوفي) ورأيت في بعض الكتب أن الحبر ابن عباس كان يذهب إلى أبَيٍّ في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه، فيقف عند الباب ولا يدقه عليه حتى يخرج، فاستعظم ذلك أبي منه فقال له يوما

"هلا دققت الباب يا ابن عباس !! " فقال: "العالم في قومه كالنبي في أمته، وقد قال الله تعالى في حق نبيه:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾.

وقد رأيت (القول للألوسي) هذه القصة صغيرا فعملت بها. انتهى.

وأين أولئك المسيئون للعلماء من هذا الأدب الرفيع الذي استشعره ولزمه أبو عبيد، والقاسم بن سلام، وعبد الله بن عباس وأمثالهم اقتباسا من الآية الكريمة في وجوب إكرام العلماء وإجلالهم بناء على أنهم ورثة الأنبياء وهاهو إمامنا ﷺ يبين للناس أن الاستخفاف بالعلماء من أخلاق المنافقين فيقول: " ثلاثة لا يستخف بهن إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط " رواه الطبراني.

فليتـق الله أولئك الذين يطلقون ألسنتهم تلوك أعراض علماء أجلاء بذلوا جهودهم، وأفـنوا أعمارهم، في إنهاض أمتهم من سباتها، وإرجاعها إلى المحجة البيضاء، ذنبهم أنهم يجهرون بكلمة الحق، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، وأن أولئك الـمغتابين لهم لم ترق عقولهم إلى مستوى إدراكاتهم وأفكارهم.

ولو أن ذلك الإيذاء توجه إلى العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، أو سخروا معرفتهم لخدمة أغراض دنيوية لكان ذلك مقبولا أما أن يوجه إلى علماء مصلحين، سخروا علمهم لخدمة الإسلام والمسلمين فلا يقبله الله ورسوله والمؤمنون.

والغريب في الأمر أنك لو سألت أحد المسيئين إلى بعض العلماء: ما معرفتك به؟ لأجابك بالنفي، ولكنه سمع ناسا يقولون. وهكذا يحاول أن يبعد نفسه عن التوجيه الإلهي المذكور في قوله -تعالى-:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ الحجرات 6.

والمجتمع حين يخيِّم عليه الجهل، ويسود فيه حكم العاطفة على العقل تختلط فيه المفاهيم، ويلتبس الباطل بالحق، فيصير المهتدي ضالا والضال مهتديا، وإنا لنجد هذه الظاهرة مذكورة في القرآن العظيم حيث سجلها عن المجتمع المكي الجاهلي أيام بزوغ شمس الإسلام فقال الله -تعالى- في سورة المطففين: ﴿ **وإذا رأوهم (رأى المشركون المؤمنين الـموحدين) قالوا إن هؤلاء لضالون...** ﴾ هكذا يحكم الغارقون في الضلال على المسلمين المهتدين بأنهم ضالون ومنحرفون عن الحق بينما الواقع عكس ذلك تماما.

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) ﴾

سبب النزول: روي في نزولها روايات مختلفة، منها:

أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق مصدقا، يـجـبـي الزكاة، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع به القوم تلقوه، تعظيما لأمر رسول الله ﷺ ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، أو حدثه أحد الرجال بذلك، فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال: إنهم منعوا صدقاتهم، وأرادوا قـتـلي، فغضب رسول الله ﷺ وهمَّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه، فأتوا إلى الـنبيء ﷺ فقالوا يا رسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدي إليه ما علينا من حق الله، فبدا له في الرجوع، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه، وغضب رسوله، فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد في عسكره خفية، وأمره أن يخفي عليهم قدومه، وقال: انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فافعل فيهم ما تفعل في الكفار، ففعل ذلك خالد، ووافاهم عند الغروب، فسمع منهم أذان صلاة الـمغرب والعشاء، ووجدهم مجتهدين في امتثال أمر الله، فأخذ منهم صدقات أموالهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، وانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فنزلت الآية. انتهى.

وإذا صحت هذه الرواية في سبب نزول هذه الآية فقد يطرح سؤال مؤداه: كيف وصف الوليد بن عقبة بالفسوق وهو صحابي جليل ؟

وأجاب العلماء بأن الذي وقع من الوليد توهم وظن، فترتب عليه الخطأ، وإنما سماه الله فسقا، تنفيرا من هذا الفعل، وزجرا عنه، ويمكن أن يراد بالفاسق الرجل الذي أخبر الوليد بأن بني المصطلق يريدون قتله فصدق قوله ورجع إلى المدينة ليخبر الرسول ﷺ بذلك.

شـــرح الألـفـاظ:

الفاسق: هو الموصوف بالفسق، أي فعل كبائر الذنوب، كالكذب والنميمة والغيبة والزنا وشرب الخمر والقمار إلخ

ومن صفات الفاسقين التي ذكرها الله -تعالى- في القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى: ﴿...**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26)الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهَّ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)**﴾.

يقال: فسق، يفسق، فهو فاسق: إذا خرج من طاعة ربه إلى معصيته، كما تفسق الرطبة من قشرتها أي تخرج منها.

النبأ: الخبر الذي يترتب عليه أمر خطير، أو فائدة مهمة،وجمعه: أنباء، ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام:﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الآية5.

تبينوا: فعل أمر مسند إلى واو الجماعة، من (تبيـن) فلان الأمر إذا تطلب بيانه ووضوحه وحقيقته.

وفي قراءة: ((فـتـثبتوا)) أي تأملوا في الخبر الذي يصلكم، وتمهلوا في الحكم على الأشياء حتى ينجلي لكم أمرها.

والتبيُّن والتثبُّت متقاربان في المعنى.

وقد قال رسول الله ﷺ "التثبت من الله -تعالى- والعجلة من الشيطان" أخرجه ابن جرير عن قتادة.

أن تصيبوا قوما: يقال: أصابه بسوء: إذا أنزله به على وجه العقوبة، وما بعد (أن) يسبك بمصدر مضاف إلى اسم محذوف.

وتقدير الكلام: فتبينوا كراهة إصابتكم قوما بجهالة.

والجهالة : ضد العلم.

نادمين: متأسفين تأسفا لازما لكم أي كلما تذكرتم خطأكم تجدد لكم الندم على فعلتكم الصادرة عن جهالتكم وعدم علمكم.

و لنتصور مقدار الـندم الذي كان سيصيب المؤمنين لو أنهم تعجلوا فقتلوا عددا من إخوانهم المؤمنين من بني المصطلق، بناء على أنهم ارتدوا عن الإسلام.

وتنكير لفظي (فاسق) و (نبأ) لإفادة العموم.

والمعنى أن الله -تعالى- يخاطب المؤمنين ليحذرهم من تصديق أي فاسق يأتيهم بأي نبأ قبل أن يتحققوا من صدق ما نبأهم به، فـقد يكون هذا المخبر كاذبا فيعاقبوا أناسا أبرياء مما نسب إليهم ثم يكتشفوا خطأهم في تصديقه فيندموا ويتمنوا لو أنهم لم يتعجلوا.

ويفهم من هذه الآية وغيرها من النصوص الشرعية أن التأني في الأمور أصل من أصول الشريعة الإسلامية.

والتوجيه الإلهي في هذه الآية معني به -ابتداء- أولئك المؤمنون في زمن تنزيل القرآن الكريم، ولكنه ليس خاصا بهم بل يشمل جميع المسلمين في أي زمان، وأي مكان، فالعبـرة-كما يقول علماء الأصول- بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

يروى عن الإمام الحسن أنه قال: "... فوالله لئن كانت الآية نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة إلى يوم القيامة، ما نسخها شيء" .

وأولى الناس بمراعاة معنى الآية وتطبيقه على القضايا المختلفة القضاة والحكام والرؤساء؛ فقد يقتل بريء أو يسجن أو ينكل به لأن قاضيا أو حاكما أورئيسا انخدع بقول فاسق كذاب لا ضمير له، وما أكثر الفساق الذين يريدون تضليل الحكام من أجل المكر بخصومهم أو الحصول على غرض من أغراض الدنيا الزائلة، ولا يتذكرون أن هذه الأكاذيب تكون عليهم حسرة يوم القيامة.

قال الإمام ابن العربي رحمه الله في كتابه: أحكام القرآن "من ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا؛ لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة تبطلها، فأما في الإنسان على نفسه فلا يبطل إجماعا".

ومما يجدر التنبيه إليه أن المخبر قد يكون عدلا ليس بفاسق، ولكن فيه غفلة فينقل أخبار الكذابين، لذلك يجب التبين والتثبت فيما يقول.

ومما يروى عن الخليفة الراشد -عمر بن عبد العزيز- في موضوع التبين قوله -رضي الله عنه- "إذا جاءني الخصم، وفي يده عينه مخلوعة لا أحكم له، فلعل هذا قد خلع عيني ذلك".

وبدهي أن الصدق-في الاعتقاد والقول والعمل-من أخلاق الإسلام التي يجب التحلي بها، وأن الكذب-في الاعـتـقاد والقول والعمل-من أخلاق الجاهلية التي يجب على المؤمن التنزه عنها.

قال الله -تعالى-في سورة التوبة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ 119، وقال في سورة النحل: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾105.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا".

واعلم أن نقل الخبر على وجه الإفساد بين الناس نميمة (سواء أكان الخبر صادقا أم كاذبا) والنميمة من كبائر الذنوب. والمتصف بها نمام.

روى البخارى ومسلم وأبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: "لا يدخل الجنة نمام" وفي رواية: "قتات".

وروى أحمد أن رسول الله ﷺ قال "خيار عباد الله الذين إذا رءوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت. وفي رواية (الباغون للبرآء العيب).

وقال الله –تعالى– في سورة القلم: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ(10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11)﴾.

وقد روي عن عمر بن عبدِ العزيز –رضي الله عنه–أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدا.

وقال الحسن ﷺ" من نـمّ إليك، نـمّ عليك ".

قوله تعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(8)﴾

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾

ابتداء الكلام بـ (**اعلموا**) أو (اعلم) للفت الانتباه إلى أهمية ما بعدها، كما هاهنا، و كما في قوله –تعالى–: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:من الآية235) وفي قوله –تعالى– في سورة محمد:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ (من الآية 19).

و(**فيكم**) جار ومجرور يتعلقان بمحذوف (تقديره : كائن) و هو خبر (أن) مقدَّم على اسمها الذي هو (رسول الله).

وما بعد (أن) يسبك بمصدر يؤخذ من خبرها المحذوف، و موقع هذا المصدر النصب على أنه مفعول لفعل (اعلم) و تقدير الكلام: اعلموا كون رسول الله فيكم، أي هو موجود بينكم.

وهذه الحقيقة –و هي وجود رسول الله ﷺ بينهم – يعلمونها حق العلم ولكن فائدة التنبيه إليها هي إشعارهم بما يجب عليهم نحو رسول الله من تعظيم وتوقير وطاعة وعدم تسرع بين يديه، لأنه أعلم منهم بما يصلح أحوالهم، و لأن رأيه فيهم أتم من رأيهم في أنفسهم ، وحتى لو كذب عليه بعضهم فإن مرسله– وهو الله تعالى–يخبره بما وقع منهم، ويفضحهم.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾

(**لو**) أداة شرط. فعل شرطها (**يطيعكم**) وجواب شرطها (**لعنتم**) وهي تفيد امتناع مضمون جوابها لامتناع مضمون شرطها ، أي : لم يقع عليهم العنت لعدم طاعة الرسول إياهم.

والعنت المفهوم من (عنت) معناه المشقة و الإثم و ما يترتب عليه من عقوبة. و من ذلك قوله تعالى- في سورة التوبة :﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾128.

و(ما) في (ما عنتم) مصدرية و تقدير الكلام : صعب على الرسول ص عَنَتُكم أي : وقوعكم في العنت.و منه قوله -تعالى- في سورة آل عمران : ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ (من الآية118) أي : تمنى اليهود وقوعكم في العنت والمشقة وفي كل ما يسوءكم و يؤذيكم.

و العرب يقولون: عنت فلان، يعنت: إذا وقع في العنت، وأعنته غيره: إذا أوقعه فيه، ومنه قوله -تعالى- في سورة البقرة :﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(من الآية220)وذلك بأن يكلفكم ما يشق عليكم.

ومن مدلولات العنت في القرآن الكريم الزنا أو الحرج الشديد من الوقوع فيه كما في قوله -تعالى-: ﴿ ... ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ (النساء:من الآية25) .

و لفظ (الأمر) معرف تعريف الجنس الذي يدل على متعدد، و لذلك صح التعبير قبله بـ (كثير) كأنه قال : "... في كثير من الأمور..."

و إيثار صيغة المضارع (يطيعكم) على صيغة الماضي (أطاعكم) للإخبار عن التجدد و الاستمرار.

و المعنى: لو تتكرر إطاعته لكم في كثير من الأمور لوقعتم في مشقة و حرج، وندمتم على تسرعكم واستعجالكم.

ويلوح من الآية الكريمة أن بعض المؤمنين استعجلوا رسول الله ﷺ في معاقبة بني المصطلق لأنهم سارعوا إلى تصديق النبأ الذي سمعوه عنهم و هو ارتدادهم عن الإسلام و منعهم للزكاة.

ولو أن رسول الله ص وافق هؤلاء البعض ، و أذن بمعاقبة أولئك الذين لا يستحقون عقابا لأصاب العنت جمهور المؤمنين من جراء شعورهم بفداحة ما ارتكبوه في حق إخوانهم في العقيدة.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾

الاستدراك بـ (لكن) على مضمون الكلام السابق ، و هو عدم وقوع العنت عليهم لأن الله –تعالى– جعل الإيمان محببا لنفوسهم، ومزينا في قلوبهم وفي الوقت نفسه جعلهم يكرهون الكفر والفسوق و العصيان.

وتحبيب الإيمان إلى نفوسهم و تبغيض الكفر والفسوق والعصيان إليهم هو الذي جعلهم يذعنون إلى طاعة الله ورسوله في كل أمر، ومن ثم نجوا من العنت.

والفرق بين هذه الأوصاف الثلاثة أن الكفر هو عدم الاعتراف بوجود الله تعال وبوحدانيته و قدرته وبقية صفاته، وعدم الإيمان برسوله إليهم و ما أتى به من عند الله عز وجل.

وأن الفسوق هو كل خروج عن تعاليم الإسلام ، فهو أعم من الكفر، والعصيان هو التمرد على حدود الله وعدم الطاعة لله ورسوله.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَة ﴾

الإشارة بـ (أولئك) الى الذين حبب الله إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، فأخبر بأنهم هم الراشدون أي المتصفون بالرشد الذي هو الاستقامة على طريق الحق والصواب وذلك فضل من الله تفضل به عليهم، ونعمة أنعم بها عليهم لتصلح أحوالهم، و تتم سعادتهم في الدنيا و الآخرة .

وفي الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة أي خاطبهم أولا بقوله : حبب إليكم ... في قلوبكم ....إليكم ... ثم أخبر عنهم كأنهم غائبون بقوله (أولئك هم الراشدون).

و يمكن أن نفهم من حكمة الالتفات أن الله عز وجل يوجهنا الى الاقتداء بصحابة رسول الله ص لنكون أهلا لتفضله علينا بمثل ما تفضل به عليهم.

فكأنه يقول : أولئك هم الراشدون فسيروا سيرتهم تنالوا ما نالهم.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

عليم : واسع العلم بكل شيء ، ما ظهر منه وما بطن، لا تخفى عليه خافية، حكيم : متصف بالحكمة، وهي وضع كل شيء في مكانه اللائق به، وبوصفه حكيما يشرع للناس ما يسعدهم في حالهم ومآلهم.

وبمقتضى علمه وحكمته يعلم الذين هم أهل للرشاد والتكريم فيلطف بهم، والذين هم أهل للخزي والخذلان فيذلهم.

قوله تعالى:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(9)﴾.

هل لنزولها سبب؟

وردت روايات مختلفة في سبب نزولها، منها:

ما رواه عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهم- على عهد رسول الله ﷺ قتال بالسيف والنعال ونحوه فأنزل الله -تعالى- فيهم هذه الآية.

ومنها: ما رواه أسباط عن السدي أن رجلا من الأنصار كانت له امرأة تدعى أم زيد وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية لا يدخل إليها أحد من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، فخرج الرجل فاستغاث بأهله، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها، فتدافعوا، واجتلدوا بالنعال، فنزلت هذه الآية فيهم.

ومنها: أنها نزلت في رهط عبد الله بن أبي بن سلول -من الخزرج- ورهط عبد الله ابن رواحة -من الأوس- وسببه أن النبيء ﷺ وقف على حمار له على عبد الله ابن أبي -وهو في مجلس قومه- فراث حمار النبي ﷺ أو سطع غباره فأمسك عبد الله بن أبي أنفه، وقال: لقد آذانا نتن حمارك، فغضب عبد الله بن رواحة، وقال: إن حمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك ومن أبيك،

فغضب قومه، واقتتلوا بالنعال والأيدي، فنزلت هذه الآية فيهم.

قال الإمام أبوبكر بن العربي في كتابه أحكام القرآن: "... والآية تقتضي جميع ما روي -لعمومها- ومالم يرو، فلا يصح تخصيصها ببعض الأحوال دون بعض".

قلت: "ومما يؤيد هذا العموم ما روى عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أن الآية في الرجلين، أو النفر والنفر، أو القبيلة والقبيلة من أهل الإسلام يقتتلان فأمر الله أيمة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذي أنزله الله في كتابه".

شرح الألفاظ:

(إن) أداة شرط تجزم فعلين، فعل شرطها محذوف تقديره: اقتتل.

و (طائفـتان) فاعل مرفوع به، والذي سوغ إعراب الاسم (طائفتان) فاعلا لفعل محذوف قبله هو أن (إن) الشرطية لا يليها الاسم.

وجواب شرط (إن) هو جملة (فأصلحوا بينهما).

وضمير الرفع وهو الواو في (اقتتلوا) عائد إلى (طائفتان)

ولا يقال: لم عاد ضمير الجمع إلى المثنى؟ وكان الأولى أن يعود إلى المثنى ضمير التثنية وهو الألف فيقال: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؟

والجواب: أنه روعي في (طائفتان) معناها دون لفظها؛ فمعنى الطائفة في اللغة هو: جماعة من الناس، ومراعاة اللفظ أو المعنى في عودة الضمائر جائز لا غبار عليه. وقد روعي لفظ (طائفتان) في (بينهما) فأتي بالألف الدالة على المثنى ولو روعي المعنى لقيل (بينهم).

والتعبير بـ(إن) الشرطية دون (إذا) الشرطية يوحي بأن الاقتتال بين المسلمين يجب أن يكون بعيد الوقوع.

والأمر في قوله -تعالى- (أصلحوا) موجه إلى ولاة الأمور في كل بلد.

والإصلاح بين المتقاتلين يعني إزالة الخلاف بينهم، وتأليف القلوب وكف النزاع.

(بغت): أصل الفعل: (بغى) دخلت عليه تاء التأنيث فحذفت الألف لالتقاء الساكنين (الألف والتاء) فصار (بغت) وهو فعل الشرط .

والعرب يقولون: بغى فلان، يبغي، بغيا، إذا تجاوز الحد الذي لا يجوز له أن يتعداه، أي تجاوز ما هو حق إلى ما هو باطل، فمعنى بغت إحداهما على الأخرى: اعتدت عليها وظلمتها وطغت وتجبرت.

ومنه قوله -تعالى- في سورة الشورى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ من الآية 27 . وقوله في سورة القصص: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ من الآية 76 .

ويقولون: بغى فلان الشيء-يبغيه-بغية: إذا طلبه، ومنه قوله -تعالى- في سورة الأنعام: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من الآية 145. وقوله في السورة ذاتها:﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الآية164.

ويقولون: بغيت لك الأمر وبغيتك الأمر، أي طلبته لك. ومنه قوله -تعالى- في سورة التوبة: ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ من الآية 47، أي إن المنافقين يطلبون إيقاع الفتنة بين المؤمنين.

ويقولون-أيضا-بغت المرأة -تبغي- بغاء: إذا زنت فهي بغي ومنه قوله - تعالى- في سورة مريم حكاية لقولها: ﴿...وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ من الآية20. وإخبارا عما قيل لها:﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ من الآية28)، وقوله -تعالى- في سورة النور:﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ من الآية33.

﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾

الفاء رابطة لجواب الشرط الذي هو جملة: قاتلوا التي تبغي، أي إن طغت إحدى الطائفتين واستمرت في العدوان على أختها فقاتلوها .

وإلى أي مدى ينتهي قتالها؟ حتى تفيء إلى أمر الله.

(تفيء):مضارع (فاء) ومصدره: الفيء بفتح الفاء والفيئة بفتحها أيضا أي الرجوع. يقال: فاء إلى الحق: إذا رجع إليه، وفاء الظل -يفيء: إذا زال من جهة المغرب، ورجع إلى جهة المشرق.

ويقال للغنيمة التي ينالها المجاهدون من أعدائهم،وترجع ملكيتها إليهم من دون قتال (فيء) ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحشر: **﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** من الآية7.

أما (الفئة) بكسر الفاء فهي الجماعة التي يرجع بعضها إلى بعض في النصرة ومنه قوله تعالى في سورة البقرة:﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (من الآية249)

وقوله -تعالى- في سورة الأنفال:﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (من الآية48).

و(أمر الله) الذي تفي إليه الفئة الباغية هو حكمه بوجوب الكف عن القتال، والامتناع عن ظلم الآخرين.

و(حتى) حرف غاية وجر بمعنى: إلى، والمضارع بعدها منصوب بـ(أن) المضمرة، والمصدر المؤول من المضارع مجرور بـ(حتى) وتقدير الكلام: قاتلوا التي تبغي حتى فيئها ورجوعها إلى أمر الله.

وقتال المسلمين للفئة الباغية هو في مفهوم الإسلام-نصر لها على نفسها الأمارة بالسوء وعلى همزات شياطين الإنس والجن. على حد قوله ﷺ فيما جاء في الصحيح عن أنس -رضي الله عنه-قال:قال رسول الله ﷺ : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قلت يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما، فكيف أنصره ظالما؟ قال : تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه".

﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ (من الآية 9)

الفاء: تفريعية لأنها فرعت الأمر بالإصلاح على رجوع الفئة الباغية إلى أمر الله.على أن يكون هذا الإصلاح محققا للعدل وهو إعطاء كل فئة مالها من حقوق، وعدم الإضرار بأي منهما لأن التحيز إلى إحدى الطائفتين يؤدي إلى تجديد القتال بينهما.

وفي الآية إشارة إلى أن مجرد الفصل بين المتقاتلين لا يكفي بل لابد من الإصلاح بينهم لتزول الضغائن والأحقاد التي قد تجدد الاقتتال.

﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (من الآية 9)

(أقسطوا): فعل أمر مسند إلى واو الجماعة. مشتق من (أقسط) الرباعي ومضارعه: (يقسط) بضم الياء، ومصدره الإقساط، وهو العدل بين اثنين أو جماعتين بأن يأخذ كل واحد قسطه (بكسر القاف) أي نصيبه الذي يستحقه، واسم الفاعل منه (مقسط).

أما (القسط) بفتح القاف فهو الجور والظلم وذلك بأن يعتدي الإنسان على أخيه فيأخذ قسطه أي نصيبه، يقال: قسط الرجل-يقسط (بفتح اليـاء) قسطا (بفتح القاف) فهو قاسط أي ظالم.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾5 . فالمسلم مأمور بالقِسط (سواء أكان في الماديات أم في المعنويات) ومنهي عن القَسط أيضا فيهما.

قال الله -تعالى- في سورة الرحمن: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ 9 .

تنبيه: أمر الله تعالى بالعدل مرتين، في المرة الأولى قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ وفي المرة الثانية قال: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

ذلك لأن العدل المأمور به أولا عدل خاص بالطائفتين.

أما العدل المأمور به ثانيا فهو عدل عام بين جميع أفراد الأمة وطوائفها في كل قضاياهم.

وحاصل المعنى أن الله -تعالى- أمر المؤمنين بأن يصلحوا بين إخوانهم حين يتقاتلون، وأن يقاتلوا الطائفة التي ترفض الصلح حتى تكف عن اعتدائها وتعود إلى حكم الله، وحينئذ يجب الإصلاح بين الطائفتين بما يقتضيه العدل والإنصاف، ثم إن الله -تعالى- أمر المؤمنين بنشر العدل بينهم في كل قضاياهم ومشاكلهم التي تعرض لهم، وأخبرهم بأنه يـحب العادلين في أحكامهم.

قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهَّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللهُّ أَوْلَى

بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾135.

وروى النسائي عن عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: "إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن -عز وجل- بما أقسطوا في الدنيا".

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(10)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الجملة تعليلية؛ لأنها عللت أمر الله للمؤمنين بالإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين بكونهم إخوة لهم.

وصُدِّرت بـ(إنما) لإفادة الحصر، أي إن العلاقة التي يجب أن تجمع بين المؤمنين محصورة في الأخوة لا تتعداها إلى غيرها بحيث لا يفترض المؤمن في المؤمن إلا أنه أخ له يحبه ويرحمه ويعينه ويصلح بينه وبين غيره إن وقع بينهما خلاف أو خصام.

ولفظ (الإخوة) يطلق-غالبا- على الأخوة النسبية، أما لفظ الإخوان فيطلق -غالبا- على من تربطك به علاقة دين أو وطن ...إلخ، وقد استعمل في

القرآن كل منهما في مواضع، منها قوله -تعالى- في سورة الأحزاب: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ (من الآية 5).

وأوثر -هنا- لفظ (الإخوة) ليوحي بأن أخوة الدين كأخوة النسب في التحابب والتراحم ولتأكيد هذا المعنى جاء التشبيه على صورة التشبيه البليغ الذي تحذف منه أداة التشبيه، ووجه الشبه. فيكون المشبه هو نفس المشبه به لا فرق بينهما ولو لم يقصد إلى هذا المعنى لقيل: (إنما المؤمنون كالإخوة في التعاطف) أي بذكر أداة التشبيه وهي (الكاف) ووجه الشبه وهو (التعاطف).

وقد قرر النبيء ﷺ هذه الأخوة بين المؤمنين بالقول والعمل.

أما من حيث القول فقد جاء في الصحيحين قوله ﷺ:"المسلم أخو المسلم،لايظلمه ولا يعيبه،ولا يخذله،ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له غرفة،ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره،ولا يطعمونهم منها،ثم قال: احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل".

وفي الصحيحين -أيضا- قوله ﷺ : "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا".

وقوله ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

وأما من حيث العمل فقد آخى الرسولﷺ بين المهاجرين والأنصار منذ دخوله المدينة: فقد جعل كل مهاجر من مكة أخا لأحد أنصار الإسلام في المدينة المنورة، كأنه أخ له من أبيه وأمه، وأعطى لهذه الأخوة في الدين ما أعطى لأخوة النسب من التوارث[1] والتكافل والمواساة، حتى إن الأنصاري كان يتنازل للمهاجر عن نصف ماله، وإذا كان له زوجتان طلق إحداهما ليتزوجها أخوه في الله (بعد انقضاء عدتها منه) الأمر الذي جعلهم أهلا لأن تتنزل في حقهم آيات قرآنية تتلى عبر الأزمان المتطاولة.

قال الله-تعالى- في سورة الحشر: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ الحشر 9.

وهكذا ترسّخت أخوة الدين في ضمائر المسلمين حتى زادت في رسوخها على أخوة النسب مما جعل أحد شعراء الإسلام يعبر عن هذه الحقيقة بقولــه:

---

1 -ظل هذا التوارث معمولا به مدة من الزمن إلى أن استغني عنه فنسخ أي أبطل حكمـه بقولـه تعـالى في سـورة الأحزاب: ...﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ (من الآية6).

أبي الإسلام لا أب لي ســـــواه إذا افـتخروا بـقـيـس أو تـميم

وإذا كان الإسلام أباه المفضل فجميع المسلمين إخوة له بحكم أبوة الإسلام للجميع.

وقد تجلى انتصار الأخوة الإيمانية على الأخوة العرقية في المعارك الحربية التي كانت تقوم بين العرب المسلمين والعرب المشركين بحيث لا يحس المسلم بأي حرج حين يقتل أو يقاتل أخاه أو ابنه أو أباه أو أحد أقاربه، في سبيل الإسلام.

وقد امتـن الله –تعالى– على قبيلتي الأوس و الخزرج (وهم الأنصار) بإطفاء نار العداوة التي كانت مشتعلة في قلوبهم، وإحلال التآلف والتآخي مكانها. وذلك هو قوله في سورة آل عمران: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِّ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُّ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:103)

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

افتتحت الجملة بالفاء للإيذان بأن أخوة الإيمان تقتضي الإصلاح بين المتنازعين ومحو ما في قلوبهم من ضغائن وأحقاد.

واستعملت صيغة المثنى ((أخويكم)) دون الجمع ((إخوتكم)) لأن أقل من يقع بينهم التنازع اثنان، ولئلا يتوهم متوهم أن الإصلاح المأمور به لا يكون إلا بين طائفتين، أو شبهت الطائفتان بالأخوين.

والإصلاح بين الإخوة المؤمنين من الخصال الحميدة التي ورد فضلها والمطالبة بها في غير ما آية كريمة وحديث شريف.

قال الله تعالى في سورة النساء : ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الآية114) .

وقال في سورة الأنفال:﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ 01.

وقال رسول الله ﷺ :" ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين" رواه أبوداود والترمذي.

وقال: "ليس بالكاذب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو نمى خيرا" أبوداود.

يستنتج من الآية الكريمة أن الأخوة بين المؤمنين وما تقتضيه من حب ووئام ووحدة وسلام وتعاون هي الأصل في حياة المسلمين، وأن التباغض والتنازع والتقاتل خروج عن ذلك الأصل، لهذا أوجب الله -عز وجل- على أولي الأمر من المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية منهم حتى تعود إلى الجماعة وتنسجم معها، وحينئذ يجب الكف عنها، وعدم ملاحقة الفارين منها وعدم الإجهاز على جريحها، وألا تؤخذ غنائمها.

وبناء على ذلك الأصل الذي يقتضي وحدة الأمة فإن فقهاء الإسلام يقولون: إذا بايع الناس إماما (حاكما) مبايعة حرة وليس فيها تزوير ولا إكراه، وخرج عليه رئيس آخر قتل هذا الأخير، أو قوتل هو وجماعته حتى يفيئوا إلى الصواب.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

الأمر بالتقوى موجه-بالأولى- إلى الذين يحاولون الإصلاح، والذين بغوا على إخوانهم، والذين بغي عليهم، كل بحسبه...

وقد بين الله لهم أن هذه التقوى تهيئهم لرحمته، فما أجدر المؤمنين أن يتسابقوا إليها بوسيلتها.

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (11)

المناسبة بين هذه الآية، والتي قبلها:

ذكر الله -تعالى- في الآية السابقة أن المؤمنين ما هم إلا إخوة في العقيدة الإسلامية، وفي ذلك تمجيد لهم أن يكونوا على تلك الصفة التي ارتضاها لهم ربهم. والأخوة تقتضي -فيما تقتضي- الإصلاح بين المتنازعين منهم. وفي هذه الآية اللاحقة ذكر بعض الأسباب التي توهن علاقة الأخوة بين أصحاب العقيدة الواحدة وتزرع الكراهية بينهم ألا وهي: السخرية واللمز والنبز.

أسباب النزول:

كانت هناك وقائع غير لائقة تحدث أحيانا بين المسلمين ، وهي بالمجتمعات الجاهلية أليق- لذلك أنزل الله -تعالى- في شأنها آيات بيّنات تنهى عنها حفاظا على وحدة الأمة وتماسكها، ومنعا لأسباب الشحناء التي لا خير فيها.

من هذه الوقائع أن وفد بني تميم- الذي سبق ذكره استهزءوا في أول إسلامهم- بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمار وخباب وبلال وصهيب،

وسلمان وابن فهيـرة وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوا من رثاثة حالهم، ووطأة الفقر عليهم.

ومنها أن أحد المؤمنين عير رجلا بأم له كانت في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه استحياء، ومنها أن عكرمة ﷺ شكا إلى رسول الله ﷺ أن بعض المسلمين إذا رأوه قالوا: "ابن فرعون هذه الأمة" (يقصدون والده أبا جهل).

ومنهـا ما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن صفية بنت حيي ابـن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : "يا رسول الله، إن النساء يعيرنني، ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين! فقال رسول الله ﷺ هلا قلت: (إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد!).

ثم إنه ﷺ أمر نساءه بأن يتَّقين الله في صفية.

ومنها أن أم سلمة (زوجة الرسول) عيرتها إحدى زوجات النبيﷺ بقصر قامتها.

والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب أو الأسباب، فالمؤمنون والمؤمنات معنيون بهذا النهي الإلهي منذ نزول القرآن إلى يوم القيامة.

وقد بلغ الأمر بالمؤمنين أن قال أحدهم -تأثرا بهذه الآية الكريمة-: لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع.

(لا يسخر) : لا: ناهية. و(يسخر) فعل مضارع مجزوم بها، ماضيه: سخر ومصدره: (السخر) (بفتح السين والخاء) واسم فاعله: ساخر، واسم مفعوله: (مسخور منه) والاسم منه (السخرية) (بضم السين).

يقال: سخر منه، أو: به: إذا استهزأ به، وضحك عليه احتقارا له.

والسخرية قد تكون بمحاكاة قول المسخور منه، أو فعله، أو بالإشارة إلى عيب فيه، أو الضحك على صنعته، أو رثاثة حاله، أو بالإشارة إلى عيب فيه، أو فقره أو غبائه أو تشنن جلده...إلخ.

ومن مشتقات (سخر) المستعملة في القرآن الكريم: (السخري) بمعنى المسخور منه. قال الله في سورة المؤمنون:﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾109-110.

وتأتي هذه الصيغة أيضا في القرآن الكريم بمعنى الرجل المسخر لخدمة غيره، أي المطوع لها. قال الله في سورة الزخرف:﴿...أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ 32

(قوم من قوم) القوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وواحده من معناه رجل، مثل لفظ (نساء) لا واحد له من لفظه، وواحده من معناه: امرأة، وهاهنا يطرح سؤال مؤداه: لم قال الله -تعالى- ﴿**قوم من قوم**﴾، ﴿**نساء من نساء**﴾، ولم يقل رجل من رجل، وامرأة من امرأة؟

أجاب عن هذا السؤال الوارد أبو القاسم محمود الزمخشري -رحمه الله- في تفسيره بقوله: « وإنما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم، وغير واحد من نسائهم على السخرية، واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه، ولأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى، ويستضحك على قوله، ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به، فيؤدي ذلك -وإن أوجده واحد- إلى تكثير السخرية، وانـقلاب الواحد جماعة وقوما".

﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾

(عسى): فعل ماض يفيد الرجاء (وهو في كلام الله -تعالى- يفيد التحقيق)، والغالب فيه أن يكون ناقصا من أخوات كان، وهو -هنا- تام لأنه اكتفى بفاعله، وتم معناه به. وفاعله: هو المصدر المسبوك من (يكون) المنصوب بـ(أن) وتقدير الكلام: عسى كونهم خيرا لهم.

والجملة تعليلية لأنها عللت النهي عن السخرية بأن المسخور منهم قد يكونون خيرا من الساخرين.

والمعنى: أن الله -تعالى- ينادي المؤمنين- بوصف الإيمان، الداعي إلى الامتثال- لينهى الرجال منهم عن السخرية بإخوانهم في الـدين، ويخبرهم بأن المسخور منهم ربما كانوا عنده أفضل من الساخرين، كما ينهى النساء منهم عن الاستهزاء بأخواتهن؛ فربما كان المستهزأ بهن أفضل من المستهزئات، فالعبرة ليست بالأشكال والأموال ولا بالقيم المادية التي اعتاد الناس أن يزنوا بها أنفسهم، وإنما هي بالقلوب وما تنطوي عليه، والأعمال وما تؤدي إليه.

قال رسول الله ﷺ : "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " أخرجه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة.

وقال ﷺ : "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره[1] "

1-ومعنى الحديث الشريف أنه قد يوجد في المجتمع البشري من يحقره الناس حين ينظرون إلى هيئتـه ولباسـه وشعر رأسه وذلك لضيق حاله ويدفعونه عن أبواب دورهم اشمئزازا منه، ولكنه محبوب عند الله ومقرب منـه حتى إنه لو حلف على الله أن يحقق له شيئا لأجابه ولم يحنثـه، وذلك لصدق إيمانه ومتانة خلقه، وليس المـراد بالحديث الشريف أن يتصنع الإنسان هيئة هذا الأشعث ويتشبه به ليكون مقبولا عند الله مستجاب الـدعوة، ويوهم الناس بأنه ولي من أولياء الله دون أن يقوم بما تقتضيه الولاية من إيمان قوي وعمل سوي، كما يفعلـه بعض المرائين والجاهلين، وليس المراد أيضا أولئك المختلون عقليا الذين يعدهم المغفلون من أولياء الله ، وحاش لله أن يتخذ أولياءه من أولئك المعتوهين

وقد بين الله -تعالى- لنا في محكم التنزيل أن السخرية من أخلاق أهل الكفر والنفاق، ومن ثم استحقوا العقوبة في الدار الآخرة، فلا يليق بالمؤمنين أن يتشبهوا بهم؛ قال الله -تعالى- في سورة البقرة: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ 212.

وقال في سورة المطففين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وقال في سورة التوبة: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾79.والأجدر بالمؤمن أن تشغله عيوب نفسه (ليصلحها)قبل أن تشغله عيوب غيره حتى لا يكون على حد قولهﷺ :"يبصر أحدكم القذى في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه " رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة.

وقد تأثر الشعراء المسلمون بهذا التوجيه القيم، فقال أحدهم :

لا تكشفن من عيوب الناس ماستروا فيهتــك الله سترا من مساويكا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكــروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكــا

وقال الآخــر:

لسانك لا تذكر به عورة امــرئ فكلك عورات وللناس ألســن

وعينك إن أبدت إليك معايبــا فدعها، وقل يا عين للناس أعين

ويحذر النبي ﷺ المؤمن الذي يعير أخاه بعيب فيقول:" من عير أخاه بعيب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به، ثم يفضحه فيه في الدنيا والآخرة "وفي رواية " من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله " رواه الترمذي عن معاذ بن جبل.

ومن القبائح التي تلفت النظر أننا نجد بعض الناس الأميين أو المتعالمين الذين لا علم لهم بأبسط قواعد الشريعة الإسلامية يضحكون على بعض المتعلمين الذين يتمسكون بالسنة النبوية ويحاولون إحياء ما أماته الجهل منها.

وقاتل الله الجهل المركب: جعل السنة بدعة، والبدعة سنة، وألبس الباطل ثوب الحق، والحق ثوب الباطل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(تلمزوا): فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، والواو: فاعل.

و (أنفسكم) مفعول به، ومضاف ومضاف إليه، والميم: علامة الجمع.

وماضي تلمز: لمز، ومصدره: اللمز، واسم فاعله: لامز، واسم مفعوله: ملموز وصيغة المبالغة منه: لماز أو لمزة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الهمزة:1.

ومعنى اللمز أن يعيب الشخص غيره، ويطعن فيه، أي يلصق به عيبا وينبه الناس إليه.والإنسان -في الواقع- لا يلمز نفسه، وإنما يلمز غيره، فكيف نهى الله المؤمنين أن يلمزوا أنفسهم.

والجواب أن المؤمنين جعلهم إيمانهم كالجسد الواحد في ترابط أعضائه كما قال رسول الله ﷺ :" مثل المؤمنين في تراحمهم و توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " كما جاء في الصحيح.

وعليه، فمن لمز أخاه في الدين فكأنما لمز نفسه، والعاقل لا يلمز نفسه، و إلا فهل وجدنا عضوا من أعضاء الجسد يعتدي على عضو آخر منه ؟.

ولذلك كان معنى الجملة: لا يلمز بعضكم بعضا، فنزل البعض منزلة النفس، على حد قوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾(من الآية29)، أي: لا يقتل بعضكم بعضا، وقوله تعالى في سورة

النور: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (من الآية61) أي: ليسلم بعضكم على بعض .

هذا وفي الآية احتمال معنى آخر مقبول، وهو أن الذي يلمز غيره يتسبب في لمز هذا الغير إياه، فيكون كأنه لمز نفسه.

ويؤيد هذا المعنى قوله -تعالى- في سورة الأنعام: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ 108 .

وقوله ﷺ في الصحيح "ملعون من سبّ والديه" قالوا يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: "يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه " أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ومن آية الأنعام هذه، ومن هذا الحديث الشريف وغيره من النصوص الشرعية استنتج العلماء القاعدة المهمة وهي: دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح.

والفرق بين السخرية -المتقدمة في الجملة السابقة- واللمز أن السخرية تكون بإظهار عيب في المسخور منه على وجه يثير الضحك عليه والاستهانة به، أما اللمز فيكون بإلصاق عيب في الملموز لتبغيضه للناس.

ومما يجدر التنبيه إليه -هنا- أن المزح (وهو الترويح عن النفوس ببعض الأقوال المرفهة) قد يتناوله النهي فيكون حراما في بعض الأحوال؛ كما إذا كان في قول المازح بعض الكذب، لقول رسول الله ﷺ : "ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له، ويل له " رواه أبو داود والترمذي، أو كان في قوله احتقار لأحد، لقوله -تعالى- في هذه الآية نفسها :﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْم ﴾ (من الآية11).

وقد يكون المزح ممجوجا إذا تجاوز الحد الذي وضعه له الحكماء.

قال الإمام علي رضي الله عنه "أعط الكلام من المزح مثل ما تعطي الطعام من الملح".

وقد صاغ بعض الشعراء هذا المعنى في قالب شعري فقال:

أفد طبعك المكدود بالجد راحة تفده وعلله بشيء من الـمزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

فإذا خلا المزح من تلك المحْظورات فهو مباح. وقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا.

ومن أمثلة مزحه ﷺ : أنه جاءه رجل يطلب منه أن يحمله على بعير، فقال له: (لا أحملك إلا على ولد الناقة)، فقال:يا رسول الله، ماذا أصنع بولد الناقة؟ فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق؟

وأنه جاءته امرأة فقالت إن زوجي يدعوك؟ قال: ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟ قالت: والله ما بعينه بياض، فقال: إن بعينه بياضا، فقالت: لا.والله، فقالﷺ: ما من أحد إلا بعينه بياض.

وهكذا كان مزحه ﷺ ومزح أصحابه؛ ليس فيه باطل ولا كذب ولا احتقار ولا ترويع ...إلخ.

ومما ذمه الله -تبارك وتعالى- من أخلاق المنافقين أنهم كانوا يلمزون النبي ﷺ في موضوع الصدقات: إذا أعطاهم منها رضوا عنه ومدحوه، وإذا لم يعطهم سخطوا عليه ولمزوه بألسنتهم.

قال الله -تعالى- في سورة التوبة:﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾58.

وروى الشيخان عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل فإنك لم تعدل!! فرد عليه ﷺ بقوله: "لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل!! ثم قال ﷺ وقد رآه مقفيا[1] - إنه يخرج من ضئضئ[2] هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم،

1 – مقفيا: راجعا.

2 – ضئضئ: أصل.

يمرقون[1] من الدين مروق السهم من الرمية[2]، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء.

ومن ألوان لمز المنافقين للنبي ﷺ ما ذكره الله -تعالى- في سورة التوبة حيث يقول :﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (61).

وقول المنافقين عن النبي ﷺ إنه أذن هو لمز له وطعن، لأنهم يعنون بذلك أنه يصدق كل كلام يسمعه، وقد كانوا في مجالسهم الخاصة يكثرون الطعن في الرسول ﷺ فإذا تخوف أحدهم وقال لهم: لو سمع ما نقول لعاقبنا أجابه الآخر بقوله: لا داعي للخوف لأنه حتى لو أخبره مخبر بأقوالنا فيه فإننا نأتيه ونحلف له ما قلنا ذلك فيصدقنا نحن أيضا كما صدق المخبرين لأنه أذن .

ولم يقتصر لمز المنافقين على الرسول ﷺ بل تناول أصحابه أيضا ومن أمثلة ذلك ما أخبرنا الله به عنهم -في معرض تعداد مساوئهم-:﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ[3] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ[1] فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة:79) .

---

1 – يمرقون: يخرجون

4 – الـــرمـيـــة: ما يرمى من الحيـــوان وغيره فيخترقه السهم

3 –المطوعين: المتطوعين بالشيء المتبرعين به.

فكان المؤمن إن تصدق بالشيء الكثير قالوا عنه (مُرَاءٍ) أي دفع الكثير ليراه الناس فيمدحوه، وإذا تصدق بالشيء القليل قالوا عنه: إن الله لغني عن صدقة هذا!

وهكذا لم يسلم المؤمن المخلص من ألسنتهم مهما كان تصرفه!

وهو الأمر الذي نلاحظه في مجتمعاتنا الحالية من أشخاص لا يفكرون في رجوعهم إلى الله، ولا يبالون بمحاسبته إياهم على إيذاء المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً[2] وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (الأحزاب 58)

وهم إذا رضوا عن شخص بالغوا في مدحه، وقلبوا سيئاته حسنات وإذا سخطوا عليه تجاوزوا الحد في ذمه، وقلبوا حسناته سيئات،ولله در الشاعر إذ يقول:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة[3] كما أن عين السخط تبدي المساويا

﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾

(تنابزوا) أصله: تتنابزوا (بتائين) فحذفت إحداهما للتخفيف وهو فعل مضارع مجزوم بـ: لا.الناهية. والواو فاعل.

---

1 -جهدهم: قدر طاقتهم.

2 -البهتان: أقبح الكذب

3 -كليلة: متعبة. والمراد أنها تتغاضى على العيوب.

والألقاب: جمع تكسير مفرده لقب. وهو الاسم الذي يدل على مدح صاحبه أو ذمه، ومن أمثلة الألقاب المادحة (الصديق) لأبي بكر -رضي الله عنه- و(الفاروق) لعمر ﷺ و(أسد الله) لحمزة -رضي الله عنه- و(سيف الله) لخالد ﷺ...إلخ.

ومن أمثلة ألقاب الذم (تأبط شرا) (أنف الناقة)...إلخ، وذلك لبعض العرب في الجاهلية.

و (النبز) بفتح الباء في الغالب يطلق على اللقب المكروه.

وصيغة(التـنابز) -على وزن (التفاعل)- تدل على تبادل النبز (بسكون الباء) أي كل واحد ينادي غيره بلقب يكرهه فيرد عليه هذا الغير نبزه .

ومعنى الجملة أن الله -تعالى- ينهى المؤمنين أن ينادي بعضهم بعضا بالألقاب المكروهة لديهم، المؤذية لهم، والأليق بهم أن يتنادوا بالألقاب المحبوبة لديهم.

ومن الأوصاف التي ألحقها العلماء بالألقاب التي يجب تجنبها وتحاشيها قول المؤمن لأخيه المؤمن: يا فاسق، يا كافر، يا يهودي...إلخ.

ومما نقله الإمام أبو عبد الله القرطبي عن ابن عباس ﷺ في معنى التنابز بالألقاب:أن يكون الرجل قد عمل السيئات،ثم تاب منها فنهى الله أن يعير بما سلف.

ثم قال (أي القرطبي) يدل عليه ما روي عن النبي ﷺ قال: "من عيَّـر مؤمنا بذنب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به، ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة"، وفي رواية عن معاذ بن جبل ﷺ "من عـيَّـر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله " **رواه الترمذي**.

وأخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبـيرة بن الضحاك قال: "كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعى ببعضها، فعسى أن يكرهه، فنزلت **﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾**.

تنبيــه:

قد يكون اللقب في أول وضعه مكروها ولكن بتقادمه واشتهاره يرضى به صاحبه، ولا يشمئز منه، وفي هذه الحالة لا ينهى عنه، وذلك: كالأعرج والأعمش وذي اليدين والأعور والأعمى.

وقد يكون للإنسان لقبان لقب يكرهه، ولقب يرضى به فالواجب أن ينادى بما يحبه ويرضى به[1].

1 - وإننا لنسمع في مجتمعنا ألقابا سمجة تزري بأصحابها، وقد استكان لها بعض أصحابها على مضض ثم ألفوها ولكن (من منظور إسلامي) ينبغي تغييرها بألقاب جميلة، كما كان رسول الله ﷺ يفعل: إذا طرق سمعه اسم قبيح لإنسان اقترح عليه تبديله باسم آخر جميل.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من حق المؤمن على المؤمن أن يناديه بأحب الأسماء إليه " .

﴿ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾

((بئس)): فعل ماض لإنشاء الذم، والذم -هنا- مسلط على ما نهى الله عنه في الجمل السابقة؛ من السخرية واللمز والنبز، وقد وصفت هذه الثلاثة بالفسوق (أي الخروج عن تعاليم الشريعة الإسلامية) لإشعار الناس بأنها من كبائر الذنوب التي تستوجب التوبة إلى الله منها، والتحلل من المتضررين بها.

ويفهم من البعدية في قوله -تعالى- ((بعد الإيمان)) أن فسوق الإنسان بعد إيمانه بالله ورسوله أشد قبحا، وأعظم جرما؛ فالإيمان الكامل لا يتناسب مع إيـــذاء الناس باحتقارهم وذكر عيوبهم ، ومناداتهم بأكره الأسماء إليهم.

وهذه البعدية -هنا- كالبعدية في قول العرب ((بئس الصبوة بعد الشيخوخة)) يعنون بالصبوة حالة الصبا أي الطفولة فتصرف الإنسان تصرف الصبيان -بعد كبره وبلوغه مرحلة الشيخوخة أشد قبحا، وأسخف عملا!

﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(من) اسم شرط يجزم فعلين. وهو اسم موصول يصلح للمفرد والجمع، فإذا روعي لفظه أعيد له ضمير المفرد (كما نراه -هنا- في جملة الشرط: ((يتب)) أي هو، وإذا روعي معناه أخبر عنه بصيغة الجمع (كما نراه في جملة جواب الشرط

(أولئك هم الظالمون)، ولو روعي لفظه فقط في جملتي الشرط والجواب لقيل (من لم يتب فذلك هو الظالم) ولو روعي معناه فقط في الجملتين لقيل: (من لم يتوبوا فأولئك هم الظالمون).

وبهذا التنبيه يزول الإشكال الذي يعترض بعض طلاب العلم من حيث عدم التطابق بين جملتي الشرط وجوابه، كما في هذه الآية وفي غيرها أيضا، كقوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ (124) .

ومن أمثلة التطابق بين الجملتين في القرآن الكريم قوله -تعالى- في سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ 97.

وغني عن البيان أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب فجاء على أساليبهم التي يستعملونها في كلامهم.

وإدخال ضمير الفصل (هم) في الجملة يفيد القصر أو الحصر أي حصر الظلم في أولئك الساخرين اللامزين المتنابزين، كـأنه لا ظالم غيرهم، وذلك على سبيل المبالغة من أجل التنفير من تلك الخصال التي صنف الله -تعالى- أصحابها في زمرة الظالمين لأنهم ظلموا الناس بالاعتداء عليهم وإيذائهم، وظلموا أنفسهم بتعريضها لعقوبة الآخرة مع إعطائهم فرصة التوبة في الدنيا فلم ينتهــــزوها.

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾(12)

سبب النزول:

قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما، فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل، فغلبته عيناه فنام ولم يهيء لهما شيئا، فجاءا فلم يجدا طعاما وإداما، فقالا له، انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعاما وإداما، فذهب فقال له النبي ﷺ "اذهب إلى أسامة بن زيد، فقل له: إن كان عندك فضل من طعام فليعطك" وكان أسامة خازن النبي ﷺ فذهب إليه فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان معه، ولكنه بخل، ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة[1] لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء؟ فرآهما النبي ﷺ فقال: "مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ؟" فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا

1 – بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء.

لحما ولا غيره، فقـــال:" ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية. عن تفسير القرطبي (نقلا عن الثعلبي).

قلت: إذا صحت هذه الرواية فإنها اشتملت على ثلاثة أمور منهي عنها في الإسلام: ظن السوء بأهل الخير والصلاح، والتجسس عليهم، واغتيابهم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾

(الظن): هو ما يحصل في ذهن الإنسان من تصورات مبنية على أمارات خارجية، وإذا قوي الظن في نفس الإنسان صار علما، وإذا ضعف صار وهما.

والظن قد يكون صادقا حين تظهر الأدلة الكاشفة ان ما تصوره الإنسان مطابق للواقع، وقد يكون كاذبا إذا كان مخالفا له.

(اجتنبوا): فعل أمر مسند إلى واو الجماعة. ماضيه: اجتنب ومضارعه: يجتنب. يقال: اجتنب فلان الشيء: إذا جعله جانبا أي تركه وابتعد عنه.

فمعنى: (اجتنبوا كثيرا من الظن) اتركوه، وابتعدوا عنه.

ومثل ذلك قوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ 31.

وفي سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ 90.

والظن الذي أمرنا الله باجتنابه -هنا- ظن السوء بأهل الخير والصلاح. لما قد ينشأ عنه من النتائج السيئة، كالاتهام بما هو باطل في نفسه والاغتياب، والطعن في الأعراض، وقد يؤدي إلى الاقتتال بين الجماعات ولذلك حذر النبي ﷺ أتباعه منه بقوله:"إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث" رواه أبوا داود وأحمد والترمذي.

وأخبر ﷺ بأن حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمة الكعبة؛ فقد روى ابن ماجة عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: رأيت النبيﷺ يطوف بالكعبة، ويقول :"ما أطيبك،وأطيب ريحك، ما أعظمك،وأعظم حرمتك،والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله، ودمه، وأن يظن به إلا خيرا ".

ومن نصائح أمير المؤمنين عمر الفاروق قوله: "...ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك إلا خيرا ، وأنت تجد لها في الخير محملا " عن ابن كثير.

والإبهام الموجود في لفظ (كثير) يفهم منه الاحتراس من الظنون، والاحتياط فيها حتى لا تكون من الظنون السيئة التي تستوجب العقوبة الإلهية.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾

هذه الجملة بيان لمضمون الجملة السابقة؛ فكأن الذي يستمع إلى قوله تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن) تتطلع نفسه إلى معرفة السبب فجاء بيانه بعدها وهو أن

بعض الظن إثم، أي ذنب كبير يستوجب العقاب لمن لم يتب منه، فقد يظن الإنسان في أخيه ظنا سيئا وهو بريء مما ظنه فيه- فيؤذيه بلسانه أو بيده، أو بيد غيره أو لسانه، وإيذاء المؤمن -بغير حق- إثم كبير. قال الله -تعالى- في سورة الأحزاب:﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾58.

وقد ورد عن النبي ﷺ أن سوء الظن من الخصال الثلاث الملازمة للإنسان اللاصقة به، ولما سئل عن كيفية التخلص منها أرشدهم إليها. وذلك قوله ﷺ فيما رواه الطبراني عن حارثة بن النعمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد، وسوء الظن"، فقال رجل:وما يذهبهن -يا رسول الله- ممن هن فيه؟ قال ﷺ :" إذا حسدت فاستغفر الله (وفي رواية :فلا تبغ[1]) وإذا ظننت فلا تحقق[2]، وإذا تطيرت فامض[3] "

والبعضية في الآية الكريمة تفيد أن بعض الظن لا إثم فيه.

1 - لا تبغ: لا تعتد على من حسدته بقولك أو فعلك

2 - إذا ظننت في أخيك ظنا سيئا فلا تحققه في الواقع؛ بأن تتكلم به، أو تفعل بمقتضاه.

3 - إذا تطيرت أي تشاءمت من شيء فاستمر فيما عزمت عليه، ولا تفشل

وذلك كالظن الذي لا إيذاء فيه للغير، وبالأحرى: الظن الحسن بالمؤمنين ، وقد أرشدنا الله إليه بقوله: ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ**[1] **ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ**﴾12

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "حسن الظن من حسن العبادة" رواه أبوداود، والحديث الشريف-بمعناه العام- يتناول حسن الظن بالله وبالمؤمنين.

وقد جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي).

وإذا كان ظن السوء بأهل الخير والصلاح ممنوعا في الشريعة الإسلامية فهو مباح لا إثم فيه، بالنسبة لأهل الفساد المجاهرين بالمعاصي .

أما الظن السيء بالأعداء الألداء للإسلام والمسلمين فهو واجب يقتضيه الحذر من شرهم، والاحتراس من مكرهم، وسواء أكان هؤلاء الأعداء في خارج البلاد أم في داخلها، وسواء أكانوا صرحاء في عدائهم أم كانوا منافقين، يروغون كما تروغ الثعالب.حفظنا الله منهم.

---

1 -الضمير المتصل وهو الهاء في (سمعتموه) يعود إلى حديث الإفك الذي اتهمت فيه السيدة عائشة زوجة الرسولﷺ بالزنا، فبرأها الله مما قالوا، وتوعد كبير المنافقين- الذي أشاع بين الناس هذا الكذب- بالعذاب العظيم،وعاتب المؤمنين في تصديق هذا الخبر الكاذب،وترديده بألسنتهم،وانظر قصة حديث الإفك،والآيات الواردة فيه في أحد التفاسير كتفسير المراغي مثلا.

ومن الأعداء الذين آذوا المسلمين أيما إيذاء بسبب حسن الظن فيهم اليهود الذين قال الله -فيهم-في سورة المائدة: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ من الآية 82.

وقد أثبتت التحريات أن اليهود كانوا وراء كثير من الحروب الخطيرة التي شنها الطغاة على المسلمين واحتلوا بلادهم من المغول إلى الصليبيين إلى الأوروبيين.

وقد بلغت الثقة بهم أن عين بعض حكام المسلمين عناصر منهم في مناصب إدارية مهمة متوهمين الاستفادة من خبرتهم، أو مستجيبين لأغراض شخصية غير مشرفة لهم ولا لوطنهم.

وهاهي فلسطين المنكوبة والتي نكب بنكبتها العرب أجمعون خير شاهد على أن بني إسرائيل خصوم ألداء لا يراعون في المسلمين ذمة ولا إحسانا، ومن ثم لا يؤمن شرهم ولا يجوز الثقة بهم.

وكمثال على مكرهم وعنادهم ومراوغاتهم أنهم بدءوا التفاوض مع إخواننا الفلسطينيين منذ سنين من أجل التخلص من احتلالهم لأرضهم التي اغتصبوها في حرب 1967 فقط ولكن هذه المفاوضات لم تأت بأية نتيجة جراء اللف والدوران والخداع.

قوله تعالى:

﴿ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ (من الآية 12)

(لا) ناهية. و(تجسسوا) فعل مضارع مجزوم بها. والواو: فاعل.

وأصل الفعل: تتجسسوا (بتاءين) فحذفت إحدى التاءين للتخفيف. والتجسس هو محاولة الاطلاع -خفية- على أحوال الناس التي يكتمونها عادة وذلك باستعمال حاسة السمع أو حاسة البصر أو هما معا.

والفرق بين التجسس -بالجيم- والتحسس -بالحاء- أن التجسس هو البحث عما يكتمه الناس، والتحسس هو طلب الأخبار والبحث عنها. كقوله -تعالى- (حكاية لقول يعقوب لبنيه):﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾يوسف 87.

وعلاقة الظن بالتجسس علاقة ظاهرة؛ فالذي يظن في غيره شيئا ما يريد أن يتحقق مما ظنه فيه بواسطة البحث والاستقصاء السري وذلك هو التجسس الذي تولد عن الظن.

وقد نهانا الله -تعالى- عن التجسس -سواء أكان ناشئا عن الظن أم كان ناشئا عن غرض آخر، لما ينجم عنه من كشف عورات الناس، وانتهاك حرماتهم، وخدش كرامتهم، ولما يزرعه في قلب المتجسس عليه من كراهية وحقد على المتجسس، وفي ذلك إضعاف للرابطة الأخوية بين المؤمنين.

أخرج أبوداود وغيره عن أبي برزة الأسلمي، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال:"يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته" أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ "من اطلع في بيت قوم -بغير إذنهم- فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه ".

وليس من التجسس المنهي عنه مراقبة المنتهكين لحدود الله، أو المتعاونين مع أعداء الأمة، حفاظا على سلامة المجتمع من شرهم.

روي أن عمر بن الخطاب ﷺكان يعس بالمدينة، ويحرس الناس ويكشف أهل الريبة منهم، فسمع صوت رجل في بيته يغني، فتسور عليه ووجد عنده امرأة وخمرا، فقال: يا عدو الله ظننت أن الله يسترك وأنت على معصية؟ فقال الرجل: وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، إن كنت عصيت الله في واحدة فقد عصيته أنت في ثلاث، فقال: وما هي؟ فقال: قد قال الله -تعالى- ﴿ولا تجسسوا﴾ وقد تجسست، وقال -تعالى-: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ وقد تسوَّرت من السطح، وقال: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾، وما سلمت، فقال أمير المؤمنين ﷺ فهل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال الرجل:

نعم. والله–يا أمير المؤمنين– لئن عفوت لا أعود إلى مثلها أبدا، فعفا عنه عمر وتركه.

وإذا كان لنا أن نستكشف ما في هذه الحكاية من دلالات رائعة فأولها سهر الحاكم على أمن الرعية، وحرصه على سلامتها من الآفات الاجتماعية وشعوره بالمسؤولية العظمى إزاء شعبه، وعدم استنكافه من القيام بمهمة الحارس الأمين لمجتمعه.

وثانيها: حرية التعبير التي كانت مكفولة أيام الخلافة الراشدة فقد روى لنا التاريخ عشرات الوقائع التي تصور محاورة المرءوسين لرؤسائهم، ومصارحتهم بآرائهم، فلا الحكام يتضايقون ويغضبون ولا المحكومون يتحرجون أو يخافون، وهكذا يجب أن تكون العلاقة بين المواطنين.

وثالثها: أن الحاكم لا ينبغي له أن يقر المفسدين في الأرض على فتح أوكار للفساد مهما كان نوع هذا الفساد ولا تقبل حججهم التي يحتجون بها تغليبا لمصلحة الجماعة على نزوات الأفراد.

قوله تعالى:

﴿ وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (من الآية12)

الجملة معطوفة بالواو على جملة (لا تجسسوا).

و(لا) ناهية: (يغتب) فعل مضارع مجزوم بها، وأصل الفعل: (يغتاب) التقى ساكنان هما الألف والباء فحذف الألف و(بعضكم) فاعل ومضاف إليه. و(بعضا) مفعول به.

يقال -في اللغة- اغتاب فلان فلانا، يغتابه- اغتيابا: إذا ذكره -في غيبته- بما يسوءه ويكرهه، لو سمعه.

والاسم منه: ((الغيبة)) بكسر الغين.

وقد عرفها النبي ﷺ بقوله -لمن سأله عنها- هي: "ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: "إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته"رواه أبوداود والترمذي عن أبي هريرة، ومعنى (بهته) افتريت عليه كذبا يبهت له ويندهش عند سماعه.

وقد كان النبي ﷺ يحذر من الغيبة، ويكشف عن آثارها السيئة على المغتاب في غير ما حديث.

من ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا (تعني هي قصيرة القامة) فقال ﷺ :"لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته".

وروى أبوداود عن انس بن مالك ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ "لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم".

والتعبير عن الغيبة بأكل لحوم الناس معروف في لغة العرب منذ القدم ومن ذلك قول الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾

الجملة استفهامية، والاستفهام فيها للتقرير، أي تقرير المخاطب بعدم حبه لأكل لحم أخيه وهو ميت؛ فالله -عز وجل- شبه الذي يغتاب أخاه المسلم بالذي يأكل لحم أخيه الميت، ووجه الشبه أن الذي يغتاب أخاه يمزق عرضه بلسانه كما يمزق اللحم بأسنانه.

وفي الآية عدة منفرات: الاستفهام التقريري، وتشبيه الغيبة بأكل لحم الإنسان، وجعل هذا الإنسان أخا للمغتاب، وجعل هذا الأخ ميتا.

والفاء في (فكرهتموه) تفصح عن ثبوت الكراهة -في نفوس الناس- لأكل لحم الإنسان الميت، كأن الناس لما سمعوا السؤال الوارد في الآية الكريمة أجابوا بقولهم (لا) وبذلك تقررت كراهتهم، فأعلن عنها بصيغة الماضي أي سئلتم عن حبكم لأكل لحم الميت فأجبتم بالنفي، وعليه: فكما كرهتم أكل لحم الميت طبعا، فاكرهوا الغيبة شرعا.

وتفظيع الغيبة وتقبيحها بهذا الأسلوب دليل على أنها من كبائر الذنوب التي لا يتخلص المغتاب من إثمها إلا بالتوبة التي تتحقق بالكف عنها، والندم على ما فات منها، والعزم على عدم الرجوع إليها، ثم باستحلال من اعتدى على عرضه بواسطتها؛ بأن يطلب منه العفو والتجاوز، إن أمكنه ذلك، وإن لم يمكن -لخشيته من عداوة الذي اغتابه، أو لموته، أو غيبته- طولب بالاستغفار له، والالتجاء إلى الله -تعالى- أن يرضيه عنه. ويمدحه في المجالس التي كان يذمه فيها، أو لدى من اغتابه عنده .روى البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال "من كانت عنده لأخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته".

والغيبة قد تصيب الذي وقعت عليه في دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقته أو زوجته أو ولده أو ماله أو لباسه أو عرضه، وقد تكون صراحة أو كتابة أو إشارة، وكل ذلك حرام، وأكثرها إثما ما تعلق بعرض الإنسان وشرفه.

وقد حرم الله -تعالى- الغيبة لما فيها من الضرر البالغ على العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

روى أبوداود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: "كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"

وأهم أسباب الغيبة: الحسد، والأنانية، وحب المفاكهة، والتملق؛

فالحاسد يرى نعمة أنعم الله بها على أخيه، فيغتاظ لذلك، ويحاول أن يطفئ غيظة باختراع الأكاذيب لمحسوده ونشرها بين الناس، ليحط من قيمته في المجتمع.

والأناني الذي يفرط في حب ذاته، ولا يرى فضلا لغيره يحاول أن يعلي قيمته بتحقير غيره، وإشاعة عيوبه.

والمفاكه يريد أن يضحك السامعين بذكر عيوب الغائبين.

والمتملق يطمع في كسب شيء من الذي يتملق إليه فيحاول أن يرضيه بذكر عيوب عدوه أو خصمه.

والواجب على المسلم -إذا سمع أحدا يغتاب غيره- أن يكفه عن ذلك وأن يدافع عن الغائب، وألا يكتفي بالسكوت لأن في السكوت خذلانا للمظلوم، قال رسول الله ﷺ :" ما من امرئ يخذل امرأ مسلما في موضع تـنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في مواطن يحب فيها نصرته " أخرجه أبو داود.

وأخرج أحمد -بسند صحيح- عن عامر بن وائلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله -تعالى- فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت! والله لننبئنَّه، ثم قالوا: يا فلان -لرجل منهم- :قم فـأدركه وأخبره بما قال، فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله، فقال: قد قلت ذلك، فقال ﷺ: (لم تبغضه؟) فقال: أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط، إلا هذه الصلاة المكتوبة، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني أخرتها عن وقتها؟ أو أسأت الوضوء لها؟ أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله، فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئا؟ فسأله عنه فقال: لا. فقال: والله ما رأيته يعطي سائلا ولا مسكينا قط، ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي

يؤديها البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني نقصت منها، أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها؟ فسأله فقال: لا. فقال ﷺ للرجل: "قم فلعله خير منك".

تنبيــــه:

في بعض الأحوال تكون الغيبة مباحة، لا إثم فيها، إذا كانت هناك مصلحة راجحة لفرد أو جماعة. كالأحوال الآتية:

- التظلم؛ فمن ظلم يجوز له أن يشكو من ظلمه إلى من يظن أنه يقدر على إزالة مظلمته أو تخفيفها. قال رسول الله ﷺ "إن لصاحب الحق مقالا " متفق عليه.

وقال ﷺ "لـيُّ الواجـد[1] يحل عرضه وعقوبته" رواه أبوداود والنسائي.

- الاستعانة غلى فاعل المنكرات بمن يقدر على إزالتها.

- الاستفتاء؛ بأن يقول المستفتي للمفتي: إن فلانا قال: كذا وكذا أو فعل كذا وكذا هل يجوز ذلك؟

- تحذير المسلمين من الضرر الذي قد يصيبهم من الذين لا يوثق بهم كجرح الشهود والرواة والمتصدين للإفــتاء من غير أهلية لذلك.

1 -الــلي: المماطلة في إرجاع الدين، والواجد: الغني الذي عنده ما يسدد به دينه.

- النصيحة؛ كأن يستشيرك أخوك في شأن رجل يريد أن يربط معه علاقة مصاهرة أو تجارة أو سفر أو يضع عنده أمانة...

روي أن فاطمة بنت قيس خطبها معاوية وأبو الجهم، فاستشارت النبي ﷺ فيهما، فقال:" أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته". عن القرطبي في تفسيره.

- أن يكون الشخص الذي تقع عليه الغيبة فاجرا مستهترا، أو لا يؤمن شره، كذلك الرجل الفاجر الذي استأذن على رسول الله ﷺ فقال: "ائذنوا له بئس أخو العشيرة". وقد جاء في الأثر: "من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ".

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (من الآية12)

جملة: (اتقوا الله) تعقيب على الجمل السابقة وتقوى الله-هنا- تكون بالبعد عما نهى الله عنه؛ من ظن السوء، والتجسس والغيبة.

وجملة (إن الله تواب رحيم) تعليل لما تضمنته الجملة التي قبلها؛ فقد عللت الأمر بالتقوى بأن الله -تعالى- تواب (أي كثير القبول لتوبة عباده إليه) وبأنه رحيم (أي لطيف بمن تاب إليه).

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (13)

شرح الألفاظ:

الشعوب: جمع تكسير، مفرده: شعب (بفتح الشين) وهو مجموعة من القبائل تنتسب إلى جد واحد.

والقبائل: جمع تكسير-أيضا- مفرده: قبيلة، وهي مجموعة من العمائر تنتمي إلى جد واحد.

وطبقات النسب عند العرب هي على الترتيب الآتي:

الشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل.

واللام في (لتعارفوا): لام التعليل، والمضارع بعده منصوب بأن مضمرة وأصل الفعل: تتعارفوا (بتاءين) حذفت إحداهما للتخفيف.

والمعنى: جعلكم الله شعوبا وقبائل من أجل حصول التعارف بينكم كأن يقال-مثلا- هذا فلان بن فلان من قبيلة كذا، أو شعب كذا.

أكرمكم عند الله: أشرفكم عنده وأرفعكم درجة. فأكرم اسم تفضيل .

أتقاكم: أكثركم تقوى. وهي الامتثال لأوامر الله -تعالى- والبعد عن نواهيه. (فأتقى) اسم تفضيل أيضا.

التحليل:

بعد أن نهى الله ﷻ المؤمنين عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وظن السوء والتجسس والغيبة شرع يبين للناس كافة أنهم كلهم متفرعون من أصل عرقي واحد، أبوهم جميعا واحد، هو آدم، وأمهم جميعا واحدة هي حواء. ومن ثم فهم متساوون في النسبة الطينية لآدم وهم كلهم إخوة في الإنسانية، والأخ لا ينبغي له أن يحتقر أخاه، ولا أن يفخر عليه، ولا أن يؤذيه بقول أو فعل. وهذه هي التربية الإسلامية العالية المناقضة للتربية الجاهلية التي كان أهلها يتفاخرون ويتفاضلون بالنسب والحسب والمال والأولاد وقوة العضلات.

وقد سجل الأدب العربي بعض مفاخرهم في ذلك.

- قال أحد شعرائهم(هو عمرو بن كلثوم):

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

- وقال آخر:

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدماء

وروى أبوداود أن رسول الله ﷺ أمر بني بياضه (وهم من الأنصار) أن يزوجوا أبا هند (وهو من مواليهم) امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: تزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله –عز وجل-:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات:13).

ومعنى الجملة أن الله–تعالى- ينادي الناس جميعا- على اختلاف أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم- ليخبرهم أنه خلقهم من ذكر واحد وأنثى واحدة، وبأنه جعلهم شعوبا وقبائل من أجل أن يقع التعارف بينهم لا من أجل التناكر والتفاخر والتعالي. وذلك يعد انحرافا عن الحكمة المقصودة من جعلهم شعوبا وقبائل.

روى أبو بكر البـزار عن حذيفة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ :"كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان".

ومما يجدر التنبيه عليه-هنا- أن الاهتمام بمعرفة النسب من أجل صلة الأرحام أي الإحسان إلى الأقارب مطلوب شرعا.

فقد روى الترمذي عن أبي هريرة-ﷺ-أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال، منسأة في الأثر "، أي تثري المال وتطيل في العمر.

وروى البخاري ومسلم عن أنس -ﷺ- أن رسول الله ﷺ قال: "من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه".

وكما أن الاهتمام بمعرفة النسب- لتحقيق الحكمة الشرعية منه- مطلب شرعي فكذلك الاهتمام بالمحافظة على طهره، والحذر من اختلاطه، وهو من مقاصد الشريعة الإسلامية.

ومن دلائل ذلك تحريم الزنا الذي ينتج عنه أولاد لا ينسبون إلى أحد، أو ينسبون نسبة مزيفة إلى رجال لم يتخلقوا من مائهم، وفي ذلك من الجناية ما تأباه الشريعة الإسلامية، ويمجه الذوق السليم!!

ومن الجنايات التي تنجم عن تلك العلاقة المحرمة بين الرجل والمرأة أن ينشأ الطفل المتولد عنهما ذليلا يحس بالحقارة والهوان بين أترابه حين يرى كل ترب ينتسب إلى أبيه، ويعتز به إلا إياه. فأبوه مجهول. أما إذا كان له أب معلوم ولكن معلوميته مزيفة فإن في ذلك من ضياع الحقوق وخرق الحرمات ما فيه كأن يزاحم الورثة الشرعيين في أنصبتهم، فيأخذ ما لا يستحق، وقد يحرم من يستحق حرمانا تاما بحجبه حجب إسقاط.

ومن ذلك أنه يصير محرما لأفراد عائلة هو أجنبي عنها، فينقلب الحرام حلالا والحلال حراما من حيث التزاوج والتحجب وكشف العورات.

وقد امتن الله -تعالى- على قبيلتي الأوس والخزرج بردهم إلى الحكمة التي جعل الناس- بمقتضاها- شعوبا وقبائل وهي التعارف والتآلف، بعد أن كانوا أعداء يضرب بعضهم رقاب بعض.

قال -تعالى- في سورة آل عمران: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (من الآية103).

وجملة : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ تفيد أن الشيء الذي يجدر بكم أن تتفاضلوا فيه، وتتنافسوا في تحصيله إنما هو التقوى. فمن كان منكم أكثر تقوى فهو الأكرم عند الله، والأكمل نفسيا.

وهذه العندية المفهومة من -عند الله- توحي بأن ما عند الناس من اعتبارات يتباهون بها لا قيمة لها إذا لم توافق رضا الله.

وقد وردت نصوص نبوية تشرح هذا المعنى:

منها ما جاء في خطاب رسول الله ﷺ بمنى وسط أيام التشريق حيث قال: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا

بالتقوى! ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم قال: فليبلغ الشاهد الغائب" رواه الطبري في آداب النفوس.

ومنها ما جاء في خطابه ﷺ يوم فتح مكة:"يا أيها الناس، إن الله أذهب عنكم عبية[1] الجاهلية، وتعظمها بآبائها؛ فالناس رجلان: رجل بر تقي، كريم على الله، ورجل فاجر شقي، هين على الله، إن الله -**عز وجل**- يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

وقد تلقف هذا المعنى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فسكبه في قالب شعري، فقال:

الناس في عالم التمثيل أكفـاء ... أبوهم آدم والأم حـــواء

نفس كنفس وأرواح مشاكلـة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والمـاء

وقال آخر:

1- العبية (بضم العين أو كسرها وتشديد الباء المكسورة وفتح الياء) : الكبر والفخر.

وأعجب شيء إلى عاقل أناس عن الفضل مستأخرة
إذا سئلوا ما لهم من علا أشاروا إلى أعظم نخــرة

تنبيه أول:

احتج الإمام مالك –رحمه الله– بهذه الآية الكريمة على عدم اشتراط النسب والحسب وغيرهما في الكفاءة المتعلقة بالزواج، واعـتبر الكفاءة في الدين فقط، وهو ما كان معمولا به في عهد الرسول ﷺ ؛ فقد تزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف، وتزوج سالم (وهو مولى) بهند بنت الوليد بن عتبة، وتزوج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش (بنت عمة الرسول ﷺ).

تنبيه ثان:

هنالك ناس يتقاعسون عن العمل الصالح، ويزهدون في الطاعات، ولا يلتزمون بأحكام الشريعة الإسلامية التي أكرم الله بها عباده، والتي جاءت على لسان الرسول الأعظم سيدنا محمد–ﷺ– ومع ذلك يتكلون على أنسابهم معتقدين أن أجدادهم يشفعون لهم عند الله، ويجنبونهم غضبه وعقابه فلا ينالهم السوء، ولا هم يحزنون، وهم في ذلك مخطئون؛ فهذا رسول الله ﷺ والانتساب إليه أشرف الانتسابات– يحذر أقاربه من الاتكال عليه دون تقوى الله؛ فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة–رضي الله عنه– قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله– عز وجل– ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء 214)

قال: "يا معشر قريش(أو كلمة نحوها) اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا،ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا".

وإذا كان الرسول ﷺ لم يضمن لأقاربه النجاة من غضب الله -إن لم يتقوه- فما بال الآخرين المنتسبين إلى غيره من الأجداد ؟؟

ملاحظـــة:

حينما نتأمل في خلق الله للنوع الإنساني نجده أربعة أنواع:

- الأول: خلقه من تراب (من غير ذكر ولا أنثى) وهو أبو البشر آدم عليه السلام.

- الثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى وهي أم البشر حواء التي خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم.

- الثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر، وهو عيسى عليه السلام.

- الرابع: خلقه من ذكر وأنثى، وهو سائر الآدميين.

﴿إن الله عليم خبير﴾

ذيلت الآية بهذه الجملة لإخبار الناس بأن الله -تعالى- واسع العلم بمن هم متصفون بالأكرمية الحقة، أو الأكرمية الباطلة، وهو -تعالى- كثير الخبرة

بأحوالهم وبواطنهم، ومن ثم يكرم من يستحق الإكرام، ويهين من يستحق الإهانة. وفائدة هذه الجملة دفع الناس إلى تزكية نفوسهم وتطهير نواياهم، وتحسين تصرفاتهم.

والخلاصة أن الآية الكريمة تشتمل على حقيقتين ثابتتين يجب على كل إنسان تصورهما ليكون سلوكه في حياته ناشئا عن تمثلهما ذلك التمثل الذي يعصمه من الاغترار باعتبارات تزين له التكبر على الآخرين، واحتقارهم، وتوقعه في أوهام تشبه السراب الذي يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

الحقيقة الأولى: أن الناس متساوون في أصل الخلقة، مرجعهم جميعا إلى التراب.

والحقيقة الثانية: أن الأكرمية-في ميزان الله - لا تكون إلا لمن اتقاه فالتزم شرعه أمرا ونهيا، كما قال رسول الله ﷺ : "من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله".

والله -تعالى- يقول: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ المؤمنون 101-103.

تلكما الحقيقتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة (وهما وحدة الأصل الإنساني ووحدة الميزان الذي على أساسه يكرم المرء أو يهان) هما من الحقائق المهمة الثابتة التي أسهمت في توسيع رقعة الإسلام في الأرض، وسرعة نفوذه إلى أفئدة الناس على اختلاف طبقاتهم وألوانهم ولغاتهم وأوطانهم، كلهم يجدون أنفسهم ضمن العقيدة الإسلامية التي تجمع بين أفراد النوع الإنساني، وتؤلف بينهم، وتكسر الحواجز الوهمية بين البشر.

قوله تعالى:

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) ﴾

سبب النزول:

سبب نزول هذه الآية والآيات التي بعدها إلى آخر السورة أن جماعة من قبيلة بني أسد جاءوا من البادية إلى المدينة المنورة في سنة مجدبة (وهي السنة التاسعة للهجرة التي سميت عام الوفود، لكثرة الوفود التي جاءت النبي ﷺ من أطراف الجزيرة العربية إلى المدينة المنورة).

التقى الأسديون هؤلاء برسول الله ﷺ ليخبروه بإيمانهم، ويمنوا عليه بذلك ويطلبوا منه أن يتصدق عليهم، ومن أقوالهم في ذلك: (أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان).

شرح الألفاظ:

الأعراب: هم سكان البادية من العرب، وهو اسم جمع لا مفرد له، وإذا أريد الإخبار عن واحد منهم أتي بياء النسبة فقيل: أعرابي، وفي المؤنث أعرابية. أما لفظ العرب فيدل على الحضريين والبدويين.

الإيمان والإسلام: المراد بالإيمان -هنا- التصديق بما جاء به رسول الله ﷺ ومحله القلب، ولا يكون كاملا إلا إذا كان عن يقين، ولم يخالطه أي شك، أما الإسلام فهو -هنا- الاستسلام الظاهري بإخضاع الجوارح لأعمال الإسلام وعدم محاربة أهله، وذلك لا يمنع أن يكون الاستسلام نفاقا يظهر صاحبه الإيمان، ويبطن الكفر.

لما: هي أخت (لم) لأن كلا منهما تنفي معنى الفعل في الزمن الماضي غير أن هناك فرقا بينهما من حيث الدلالة؛ فـ(لما) تفيد أن النفي بها مستمر إلى زمن التكلم، مع توقع حصول المنفي بها في المستقبل، بخلاف (لم) فهي لا تفيد ذلك؛

فإذا قلت:(لما يحضر فلان) كان معنى الجملة: أن فلانا هذا لم يحضر إلى الآن، ولكن حضوره في المستقبل متوقع.

ومن أمثلة (لما) في القرآن الكريم قوله -تعالى- في سورة ص:﴿... بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (من الآية8)، عذاب: مضاف إلى ياء المتكلم التي حذفت من أجل التخفيف ومراعاة للفواصل. والمعنى أن هؤلاء الكفار لم يذوقوا عذاب الله إلى ساعة التكلم ولكنهم سيذوقونه في المستقبل، وقد ذاقوه فعلا بعد هجرة النبي ﷺ قتلا وأسرا وإهانة كما وقع لهم يوم بدر ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

﴿لا يلتكم﴾: يلت: مضارع: لات، وهو مجزوم لأنه جواب شرط (إن)؛ يقال: لاته حقه، يليته، ليتا: إذا أنقصه إياه (وهو معتل أجوف) ، ويصح أن يكون الفعل: (يلت) مضارع:(ولت) (وهو من المعتل المثال) ومعنى الفعلين واحد. ومثلهما في المعنى: ألت -يألت- ألتا وقد استعمل في سورة الطور حيث يقول الله -تعالى: ﴿...وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الآية21.

التحليل:

الأعراب الذين قالوا للنبي ﷺ آمنا، وردّ الله مقالتهم هم نفر من بني أسد فقط وليس كل الأعراب؛ فمنهم المؤمنون الصادقون الذين شهد الله لهم بالإيمان وبشرهم بأنه سيدخلهم في رحمته، كما شهد لغيرهم بالكفر والنفاق. قال الله -تعالى-في سورة التوبة:﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا

أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٧-٩٩)

وبما أن النفاق أو الشك والتردد كان يخامر قلوب أولئك الأعراب الذين أتوا النبي ﷺ كذبهم الله -تعالى- في قولهم: آمنا، وأمر رسوله ﷺ بأن يقول لهم: لم تؤمنوا، ولكن قولوا: أسلمنا لأنهم جاءوا مستسلمين في ظاهر أمرهم، خاضعين خضوعا علنيا لأحكام الإسلام دون أن يستقر الإيمان في قلوبهم، وذلك من أجل الخوف على دمائهم وأموالهم والخوف من أسرهم، ثم إنهم يطمعون فيما يتصدق به رسول الله ﷺ عليهم.

وبذلك علمهم الله -تعالى- الفرق بين الإذعان القلبي لأحكام الإسلام وهو الإيمان الصحيح الكامل، والإذعان الظاهري وهو مجرد الانقياد والاستسلام الذي لا يفيد.

كما أنه أخبرهم بعدم استطاعتهم مغالطة الرسول ﷺ ومخادعتهم إياه، لأن ربه الذي يعلم السر والنجوى يكشف له سريرتهم ويعصمه من تضليلهم.

واستعمال (لما) التي تفيد أن المنفي بها يتوقع حصوله في المستقبل يدل على أن الإيمان الكامل يستقر في نفوسهم مستقبلا. وقد كان ذلك.

وإذا كان لنا-نحن أبناء هذا الزمان- أن نستخلص درسا قيما من هذه الآية الكريمة فهو ألا نكتفي بالأعمال الظاهرة التي تميز شريعة الله في الأرض دون أن تكون صادرة عن إيمان عميق تسري حرارته في الأفعال والأقوال سريان الدم في الأجسام، حتى لا تكون عباداتنا وسائر تصرفاتنا حركات وهيآت جوفاء لا مصداقية لها ولا أجر. وسحقا ثم سحقا للجهل الذي يجعل المسلم يعتقد أنه يحسن صنعا بنفسه ومع الله والواقع خلاف ذلك كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الطبراني عن ابن عمر وأحمد عن ابي هريرة : "رب قائم حظه من قيامه السهر، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ".

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾الآية14

أخبر الله -تعالى- هؤلاء الأعراب أنهم إن يطيعوه ويعملوا بما يدعوهم إليه رسوله يعطهم أجر أعمالهم كاملا غير منقوص ويمح ذنوبهم مهما تعاظمت لأنه كثير الغفران لعباده التائبين ورحيم بهم بحيث لا يضيع أجر من أحسن عملا.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(15)﴾

ما تضمنته هذه الآية هو تعليل لما تضمنته.سابقتها التي نفت الإيمان عن أولئك الأعراب الذين قالوا: (آمنا)؛ فالعلة في نفي الإيمان عنهم هي أن الإيمان الذي يقبله الله هو الذي لا يخالطه شك ثم يبرهن عليه أصحابه بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وهم ليسوا كذلك.

ولفظ (إنما) يفيد الحصر، أي الإيمان المقبول محصور في هؤلاء الذين وصفتهم الآية الكريمة.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾

يرتابوا: فعل مضارع مجزوم بـ (لم). و(واو الجماعة) : فاعل، وماضيه: (ارتاب) ومصدره: (ارتياب) واسم فاعله: (مرتاب) يقال: ارتاب فلان في كذا: أي وقع في قلبه شك منه.

فمعنى (لم) يرتابوا: لم يقع في قلوبهم ارتياب وتردد فيما يدعوهم إليه الرسول ﷺ في المعتقدات والشرائع.

وقد استعملت مادة (ارتاب) في غيرما آية من القرآن الحكيم كقوله – تعالى– في سورة الحديد:﴿...**وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ**﴾(من الآية14).

والفعل المجرد منه: (راب) يقال: رابه الشيء -يريبه- ريبا: إذا أوقعه في الريب أي الشك.

ومن ذلك قوله -تعالى- في سورة البقرة: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (2) ، ومنه قوله -ﷺ- :"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" رواه أحمد والنسائي والطبراني.

وعطفت جملة (لم يرتابوا) على جملة (آمنوا) بحرف العطف ((ثم)) الذي يفيد التراخي بين المعطوف والمعطوف عليه لأن الإيمان قد يعتريه الارتياب في المستقبل، بسبب الوساوس الشيطانية، فأفاد حرف التراخي أن الإيمان المعتد به عند الله هو الذي يستمر مع مدعيه قويا لا يشوبه ريب. ويؤيد هذا المعنى قوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ (137)، ونظير الآية قوله -تعالى- في سورة فصلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (30).

والشاهد في قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

جاهدوا: فعل وفاعل. والمفعول محذوف، تقديره (الأعداء) ومعنى جاهدوا الأعداء بذلوا جهدهم أي طاقتهم وقوتهم في دفع الأعداء عن المسلمين، أو عن الوقوف في طريق الدعوة إلى الإسلام.

في سبيل الله: في الطريق التي تؤدي إلى مرضاته، أي العمل بمقتضى شريعته.

وقد ورد -في غير ما آية- أن الجهاد يكون بالمال وهو إنفاقه من أجل تزويد المجاهدين بما يحتاجون إليه من مئونة وعتاد، كما يكون بالنفس من أجل الفوز بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، قال الله -تعالى- في سورة التوبة: ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ** ﴾ (52).

وقد ورد في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية عشرات الأحاديث التي ترغب في الجهاد، وتحذر من تركه فقد قال ﷺ (فيما يرويه الإمام النسائي): "مثل المجاهد في سبيل الله- والله أعلم بمن يجاهد في سبيله- كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد ".

وقال -فيما يرويه الأئمة مالك والبخاري ومسلم وغيرهم: (ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى اللون لون دم، والريح ريح مسك).

وفي لفظ آخر: (كل كَلم[1] يكون يوم القيامة كهيئتها يوم طعنت تفجر دما، اللون لون دم، والعَرف[2] عرف مسك).

وقال ﷺ محذرا من ترك الجهاد والإخلاد إلى الراحة المذلة :"ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب " رواه الطبراني.

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال :" إذا تبايعتم بالعينة[3] وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم ".

ومما يجدر ذكره في هذا العصر أن الثورات المسلحة التي قام بها المسلمون قديما وحديثا تجاه أعدائهم الذين احتلوا بلادهم وسفكوا دماءهم وانتهكوا أعراضهم وسلبوا أموالهم وغصبوا أرضهم هي نوع من الجهاد المقدس، ولو

---

1 الكلم (بفتح الكاف) : الجرح

2 العرف (بفتح العين): الرائحة

3 – العينة (بكسر العين) أن يبيع الإنسان شيئاً لغيره إلى أجل، ثم يشتريه منه بأقل من الثمن الذي باعه به معجلاً.

سماها المعتدون إرهابا، والقائمين بها إرهابيين، وإلا فهل يمكن إخواننا في فلسطين أن يحرروا بلادهم ويسترجعوا كرامتهم التي داستها أقدام اليهود بغير الجهاد؟ وهل يمكن إخواننا في جامو وكشمير أن يطردوا الهندوس من بلادهم بغير الجهاد؟ وهل يطمع إخواننا الشيشان في التحرر من ربقة الاستعمار الروسي بدون الجهاد؟ وهل في إمكان إخواننا البوسنيين أن ينالوا حقوقهم في وطنهم كاملة بدون الجهاد؟

وهل كان في استطاعة الشعوب الإسلامية التي كانت ترزح تحت وطأة الأعداء من المغرب الأقصى إلى آندونيسيا أن تحرر بلادها بغير الجهاد؟ الذي يسميه الأعداء إرهابا؟ كلا ثم كلا.

فالجهاد الذي أذن الله فيه للمسلمين ثم أمرهم به أمرا جازما إنما كان لرد العدوان عليهم وعلى دينهم. قال -تعالى- في سورة الحج: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ** ﴾(39-40).

وقال في سورة التوبة: ﴿ **انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (41).

وليس الجهاد من أجل الشوق إلى سفك دماء الآخرين، والاعتداء على حرماتهم وأموالهم وأوطانهم. قال الله تعالى في سورة البقرة:﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ**

اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (190).

وليس من أجل إجبارهم على الدخول في الإسلام قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (من الآية256) .

وقال في سورة يونس:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (99).

ولكن لماذا يقتل المرتد؟

قد يتساءل غير المسلم عن وجه الجمع بين هذه الآية التي تنفي إكراه الناس وإجبارهم على الدخول في دين الله (وهو دين الإسلام) وبين الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ :" من بدل دينه فاقتلوه » رواه أحمد والبخاري عن ابن عباس.

والجواب أن الإنسان ما دام حرا في اعتناق الإسلام أو البقاء على الكفر فدخوله في الإسلام، ثم خروجه منه يعد تشويشا على الناس، وتشكيكا لهم في صلاحيته، وأول من فعل ذلك طائفة من بني إسرائيل في عصر النبوة، فمن جملة ما تفتقت عنه ذهنيتهم (في مجال المكر بالإسلام والمسلمين) أن أمر أحبارهم بعض أتباعهم بأن يدخلوا في الإسلام ويصلوا مع المسلمين في المسجد أول النهار، ثم يخرجوا منه آخره ليفتنوا المسلمين عن دينهم بأن يقول أحدهم: إن اليهود علماء، وهم أهل كتاب سماوي، ولم يرتدوا عن الإسلام إلا لأنهم وجدوه غير صالح

للحياة وأنه من عند محمد وليس من عند الله، وبذلك يستطيعون (بزعمهم) أن يزرعوا الشك في قلوب المؤمنين فيرجعوا عن دينهم، وقد أخبرنا الله -تعالى- في القرآن الكريم بهذا التدبير اليهودي فقال في سورة آل عمران: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ 72.

وهل يدعو الإسلام إلى الإرهاب؟

قد يجد المغرضون أو غير المتأملين شبهة في آية كريمة يتوهمون معها أن القرآن الكريم يدعو أهله إلى إرهاب الآخرين.

والآية هي قوله -تعالى- في سورة الأنفال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ 60.

والحقيقة في غير توهمهم، إذ المعنى الجلي فيها أن المقصود من إرهاب الأعداء بواسطة إعداد القوة المسلحة وغيرها هو لمنعهم من مهاجمة المسلمين في عقر دارهم لأنهم حين يعلمون ما عند المسلمين من قوة حربية يرهبونهم فيكفون أيديهم عنهم وذلك ما يسمى في العصر الحديث بـ(السلم المسلح) أو: (الرعب المتوازن).

ومن أراد أن يتأكد من هذا المعنى المقصود فليقرأ الآيات 58،57،56،55 (قبل الآية المعنية) و62،61 (بعدها).

ومما يرشد إلى أن الإسلام دين سلام وأنه يؤثر العافية لأهله -إلا إذا فرضت عليه الحرب- قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال:61).

وما رواه الإمام مسلم عن عبد الله ابن أبي أوفى -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: "يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال: اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم".

من أسباب هزائم المسلمين:

ونحن حينما نستعرض أحوال المسلمين في واقعهم التاريخي وواقعهم المعيش ونستجلي أسباب سقوط دولهم، وهزيمتهم أمام أعدائهم نرى في مقدمة الأسباب تهاون أولي الأمر في العمل بمقتضى تلكم الآية الكريمة التي تأمرهم بإعداد ما يستطيعون من قوة حربية واقتصادية وعلمية إلى جانب التضامن فيما بينهم حتى لا يكونوا صيدا سمينا لأعدائهم فيسلبوهم أرضهم وديارهم وأسباب عزهم ويمسخوا عقولهم وأرواحهم، ويشتتوا شملهم، ويتحكموا في

اقتصاد بلادهم، وسياسة دولهم، وقد بلغ الطغيان ببعض الدول الكبرى (في ظل استخذاء حكام المسلمين) أن يطالبوا بإعادة النظر في برامج التربية والتعليم في البلاد الإسلامية. والأصل في هذا البلاء اتباع الهوى الذي يزين للناس حب الرفاهية، والإخلاد إلى الشهوات البهيمية والتنازع على ما لا يستحق التنازع، وعدم الاكتراث بما ينتظرهم من مصائب، وصدق رسول الله ﷺ فيما يروى عنه:"جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم" عن الراغب الأصفهاني في مادة:(جهد).

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تدعو إلى إرهاب المتربصين من الأعداء فإنها في لوقت نفسه تحرم إدخال الرعب على الأبرياء الآمنين المسالمين، ولو كانوا غير مسلمين.

قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: "لا يحل لمسلم أن يروع مسلما". وقال ﷺ فيما رواه الطبراني :"من أخاف مؤمنا كان حقا على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة ".

وهذا إذا لم يؤد الترويع إلى قطع الطريق على المسافرين لسلب أموالهم أو سفك دمائـهم، أو إلى اقتحام بيوتهم عليهم لإلحاق الأذى بهم أو إلى الإفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وإلا فإن الشريعة الإلهية قد جعلت لهؤلاء المفسدين المعتدين عقوبة قاسية رادعة تضمنتها الآية الخامسة والثلاثون من سورة المائدة، وهي قوله –تعالى-:﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي

الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ 33-34.

وقد حدثت في عهد الإسلام الأول وقائع في المجتمع العربي اقتضت إنزال هذا الحكم القاسي من أجل ضمان الأمن العام.

منها أن جماعة من الأعراب دخلوا المدينة المنورة ليبايعوا الرسولﷺ على الإسلام فأصابهم مرض في بطونهم، فعرض عليهم أن يخرجوا إلى البادية مع راعي إبل الصدقة ليستشفوا بألبان النوق وأبوالها فقبلوا، ولما استرجعوا صحتهم ارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي ومثلوا به، وساقوا معهم الإبل ولما أخبر الرسولﷺ بما فعلوه نادى فرسان المسلمين بالخروج إليهم واتباع آثارهم ولم يلبثوا أن أرجعوهم إلى المدينة فأمر بقطع أطرافهم، وسمل عيونهم، وظلوا منبوذين خارج البلد حتى ماتوا فأنزل الله -تعالى- هذه العقوبة التي تضمنتها الآية الكريمة لينفذها حكام المسلمين بعد رسول اللهﷺ على كل من يفعل ما يشبه فعلهم.

وقد وصف الله -عز وجل- المفسدين في الأرض بأنهم يحاربون الله ورسوله؛ محاربون لله لأنهم استحلوا ما حرمه الله ومحاربون رسول الله لأنه مبلغ عن الله ﷻ.

أصناف الكفار:

ومما تقتضيه المناسبة أن الله تعالى قد صنف الكفار من حيث تعامل المسلمين معهم- إلى صنفين: صنف مسالم لا يضمر الشر للمسلمين، وهذا يجب أن يعامل بالحسنى، ولا بأس بالتعاون معه في مجالات الحياة الدنيوية، وصنف محارب أو متربص غير مأمون أو مظاهر لأعداء المسلمين وهذا يجب الحذر منه، وعدم الركون إليه والاستعداد لرد عدوانه، قال الله -تعالى- في سورة الممتحنة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (8-9)

موالاة غير المسلمين:

ومن عجائب هذا العصر أننا نرى بعض الحكومات الأجنبية الطاغية تكيل الإهانات تلو الإهانات للدول العربية وشعوبها، ومع ذلك يستمرون في موالاتها واستجدائها، ولا يقومون برد الفعل الذي تستوجبه الكرامة والشرف، مما جعلنا نتصور أن قادة العرب كأنهم يشعرون بأنهم هم المعنيون بالوصية الواردة في الإنجيل عن السيد المسيح عليه السلام، وترجمتها:((من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر))[1] بينما التربية الإسلامية تتجلى في الحديث الشريف

1 - قال الشاعر: شعب إذا ضرب الحذاء بوجهه صاح الحذاء بأي ذنب أُضرب ؟

الآتي "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ فقال: لا تعطه مالك، قال: فإن قاتلني، قال: قاتله، قال: فإن قتلني، قال: أنت شهيد، قال: فإن قتلته، قال: هو في النار" رواه مسلم .

وهكذا يربي الإسلام معتنقيه على عدم الخنوع للظلم إلا إذا لم يكن هناك مناص، والدول العربية لها أكثر من مناص إذا أرادت.

تخاذل المسلمين إزاء إخوانهم:

ومما يحز في القلوب الحية أنه في الوقت الذي ترغم فيه أنوف العرب شعوبا وحكومات، ويصب اليهود العذاب صبا على ذوي قرباهم في فلسطين وغيرها تنبعث من العالم العربي إذاعات مرئية ومسموعة تصور للعالمين أن العرب ماضون في أفراحهم ومهازلهم وخلاعتهم واستهتارهم ورقصهم وغنائهم غير عابئين بالإهانات، ولا بآهات المستغيثين والمستغيثات، أما التوجيه الإسلامي الذي يدعو إلى التراحم بين المسلمين، والتألم لآلام بعضهم فهو حبيس الكتب والرفوف، الأمر الذي يصيب المضطهدين منا بمزيد الأسف والإحباط، ويشجع الصهيونيين وغيرهم على الاستمرار في إذلال العرب وقهرهم وتقتيلهم وهدم ديارهم على رءوسهم، ويجعل الحياديين من الأجانب يحتقرون العرب، ويتعجبون من خستهم وهوانهم على أنفسهم، ولله در أبي الطيب المتنبي حين يقول:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بـميت إيلام.

ولنعد إلى الآية الكريمة التي نحن بصددها، والتي قال الله فيها: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم﴾ لنقول: هل هناك جهاد بغير الأموال والأنفس ؟ والجواب: نعم. هناك جهاد بالألسنة أخبر عنه رسول الله ﷺ بقوله:" جاهدوا المشركين بأموالكم وأقوالكم وأنفسكم" رواه الأئمة النسائي وأبوداود وأحمد. وبقوله ﷺ أيضا "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر " رواه أبوداود.

وبقوله -أيضا- سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله" رواه الحاكم في المستدرك.

فالجهاد بالأقوال لا يقل أهمية عن الجهاد بالأموال والأنفس، ولكل وقته ومكانه ومناسبته.

والجهاد بالأقوال يدخل ضمن ما يسمى في عصرنا بـ(الإعلام) الذي تنوعت وسائله، وعم نفعه وضرره، وبه تيسر الاتصال بين سكان المعمورة حتى لكأنهم مواطنون في قرية واحدة؛ فمن إذاعة مرئية إلى إذاعة مسموعة إلى مواقع (الانترنت) بالإضافة إلى الوسائل المألوفة من قبل هذه المخترعات: من كتب ومجلات وصحف وأشرطة.

ولما لوسائل الإعلام من تأثير بالغ في النفوس نستطيع أن نجزم بأنها تدخل ضمن (القوة) التي أمرنا الله بإعدادها للظالمين في قوله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ

دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (لأنفال 60) .

وإلا فكيف يتسنى للمسلمين أن يدفعوا عن دينهم أباطيل خصومه الألداء من يهود ومسيحيين وملاحدة زرعوا في نفوس الناس الكراهية والبغضاء لكل ما هو منسوب إلى الإسلام بصفة عامة وإلى العرب بصفة خاصة، ولعل أكثر القارات تأثرا بتلك الدعايات المضادة للإسلام أوربا وقارة أمريكا حيث يملك اليهود معظم وسائل إعلامها إن لم نقل كلها؛ فالواجب على علماء المسلمين ومن ورائهم دولهم أن يتصدوا لتلك الطعون التي نالت من العرب والمسلمين أي منال، وأن يخاطبوا الأمم باللغات التي يفهمونها لتفنيد أقوال المزورين، ولإيضاح حقائق الإسلام ومزاياه.

والاقتصار على ذكر الجهاد في الآية دون غيره من الأعمال لا يفهم منه أن ما عداه من الأعمال الأخرى لا عبرة به في تقويم الإيمان، وإنما خص بالذكر لاقتضاء المناسبة إياه، وهي الحديث عن الأعراب الذين كانوا يزعمون أنهم آمنوا،ولكنهم إذا دعوا إلى الجهاد مع الرسولﷺ يتلكئون ويعتذرون بأعذار واهية غير مقبولة. وذلك كما نقرأه في الآيتين 11و12 من سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ

أَرَادَ بِكُمْ نَفعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ إلى أن يقول الله–تعالى– :﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾.

والدليل على أن المناسبة هي التي تقتضي أحيانا ذكر عنصر أو عناصر مهمة في تقويم الإيمان، والاكتفاء بها، ما نقرؤه في سورة النور حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ 62.

وما نقرأه أيضا في سورة الأنفال، حيث يقول الله –عز وجل–: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾2–4.

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

هذه الجملة التي تخللها ضمير الفصل (هم) وعرف خبر المبتدأ فيها بـ(ال)تفيد القصر، أي أولئك الذين آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان وبذلوا نفوسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله هم الصادقون في قولهم آمنا (كأن الصدق قاصر عليهم) وليس أولئك الذين خضعوا لأحكام الإسلام خضوعا ظاهريا، ولم يبرهنوا على إيمانهم بالجهاد مع رسول الله ﷺ.

وما أكثر الذين يزعمون أنهم مؤمنون، لكن لا يظهر أثر الإيمان في أعمالهم (شأن المنافقين والمنافقات في كل زمان ومكان).

وأقبح من هؤلاء أولئك الذين يتعمدون الإساءة إلى الإسلام بنقض بعض أحكامه المهمة جدا، ولا يؤدون فرائض الإسلام من صلاة وصيام وغيرهما ومع ذلك يتبجحون أو يتبجح لهم بأنهم مسلمون. و يا للعجب من مستهترين لا يستحيون من الله ولا من عباد الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (16)

أعيد الأمر للنبي ﷺ بـ(قل) لطول الفصل بين الجمل المترابطة بالجمل الاعتراضية التي لولاها لكان الكلام هكذا (...قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا : أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم...أتعلمون الله بدينكم؟)

و(التعليم) الإعلام والإخبار بالشيء.

ولكن الفرق بين صيغتي (التفعيل والإفعال) أن الأولى تدل على حصول الشيء بقوة كـ((التكسير) و(التنويم) مثلا. وليس كذلك صيغة (الإفعال) فقولنا (علمه تعليما) أبلغ من قولنا: (أعلمه إعلاما) .

وهؤلاء الأعراب كانوا يلحون على النبي ﷺ في إخباره بأنهم آمنوا ويجتهدون في نفي الشك من قلب الرسول ﷺ.

ولذلك أوثر التعبير بـ(تعلمون) على التعبير بـ(تعلمون) وجملة: (أتعلمون...) وما بعدها: استفهامية والمراد بالاستفهام التوبيخ والإنكار.

وجملة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ حالية والمعنى: هل تخبرون الله بإيمانكم، والحال أنه يعلم ما يدور في السماوات وما في الأرض؟ فالذي يعلم كل ما يجري في العوالم لا يخفى عليه ما يدور في قلوبكم من إيمان أو كفر أونفاق.

وجملة: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل يفيد أن علم الله محيط بكل شيء مهما بلغ من الخفاء أو الدقة أو البعد.

ونظائر الآية كثيرة في القرآن الكريم من ذلك ما نقرأه في سورة أل عمران عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (5).

وقوله في سورة الحديد: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الآية4.

قوله تعالى:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (17-18)

المنّ المفهوم من (يمنون) معناه أن تذكر الذي أحسنت إليه بإحسانك ليقر لك بالفضل، إذلالا له، أو افتخارا عليه، أو تسخيرا له. وهو من الإنسان للإنسان مذموم شرعا وعرفا.

قال الله -تعالى- في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (من الآية 264).

وقال العرب في أمثالهم(المنة تهدم الصنيعة) والمنة هي المن. ومعنى المثل: أن الإنسان إذا افتخر على أخيه بما صنعه له هدم ذلك الصنيع، وجعل أخاه ينكر فضله ويحتقره.

وليس من المن المذموم ما يذكر به الآباء والأمهات أبناءهم وبناتهم إذا رأوا منهم تقصيرا في أداء الحقوق الشرعية التي فرضها الله للوالدين، أو شاهدوا عقوقا منهم. وكذلك ما يذكر به المعلمون والمعلمات طلابهم وطالباتهم والأزواج أزواجهم وأمثال هؤلاء من المحسنين والمحسنات الذين يرون الجحود

من الذين أحسنوا إليهم،ولم يقابلوا الجميل بالجميل،كما قال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (60).

والمن من الله على عباده يجب أن نتلقاه -نحن معشر المؤمنين- بالرضاء التام،والقبول المطلق، لأنه لا يريد به إلا الخير لنا، من حيث إن تذكيره إيانا بأنعمه علينا يحرك في نفوسنا التوجه إليه بالحمد والشكر والتعبد الخالص من شوائب الشرك، والتبرؤ من الكفر،وتلك هي أسباب السعادة الدائمة التي ينشدها كل عاقل!ومن أمثلة منِّه -تعالى- على المؤمنين ما ورد في سورة آل عمران حيث يقول: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (164).

والفعل الماضي:(أسلم) المسبوق بـ(أن) المصدرية يسبك بمصدر مجرور بـ(الباء) والتقدير: يمنون عليك بإسلامهم.

والخطاب في (عليك) للرسولﷺ ، وضمير الجماعة وهو الواو في (يمنُّون) عائد إلى قبيلة بني أسد الذين منُّوا على الرسول ﷺ بإسلامهم.

ولفظ (إسلامكم) في جملة (لا تمنوا علي إسلامكم) منصوب بنزع الخافظ والتقدير: لا تمنوا علي بإسلامكم.

و(بل) في جملة:(بل الله يمن عليكم) تفيد الإضراب الإبطالي لأنها أبطلت المعنى الذي تضمنته الجملة السابقة عليها، وهو من الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم، وأثبتت في الوقت نفسه المعنى الذي تضمنته الجملة بعدها، وهو أن الله -عز وجل- هو الجدير بالمن عليهم.

والفعل الماضي (هدى) المسبوق بـ(أن) يسبك بمصدر مجرور بلام التعليل، والتقدير: بل الله هو الذي له المن عليكم بسبب هدايته إياكم للإيمان.

والعرب المخلصون في إيمانهم كانوا دائما يعترفون لله ورسوله بالفضل عليهم. ومن دلائل ذلك ما جاء في السيرة النبوية عن الأنصار الذين اجتمع بهم رسول الله ﷺ فور انتهائه من غزوة حنين بعد أن سمع أن في قلوبهم شيئا من أثر حرمان الرسول إياهم من الغنائم، وإغداق الكثير منها على حديثي العهد بالإسلام. قال ﷺ لهم:" يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟" كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن.

بعد ذلك قال رسول الله ﷺ:" ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟" قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المن لله ورسوله. قال:" والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك". فقالوا: المن لله ورسوله.

وذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿إن كنتم صادقين﴾ لتوحي بأنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان.

وجواب شرط (إن) محذوف. وتقدير الكلام: إن كنتم صادقين فلله المنة. أي على فرض صدقكم في ادعاء الإيمان فالله هو الذي يحق له أن يمن عليكم وليس أنتم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (18)

يعلم ما غاب فيهما، وما استتر فيهما عن أعينكم، وهو خبير بما تعملونه لا يخفى عليه شيء منه.

قال الله تعالى في سورة ق :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (16).

ومن نظائر هذا الفكر الأعرابي عندنا في هذا العصر أن بعض المسلمين قد يبتليهم الله ببعض المصائب أو يدعونه فلا يستجيب لهم فينزعجون ويبدأون في التساؤل: كيف أصابهم الله بتلك المصائب؟، أو كيف لم يستجب لهم؟ وقد يحملهم ذلك على الزهد في بعض الطاعات، كأنهم يمنّون على الله -تعالى- بتعبدهم، وما يدرون أن ذلك الابتلاء إذا صبروا عليه يهيئهم لرضوان الله، ثم الخلود في جنة النعيم، ومن ثم فالله هو الذي يحق له أن يمن عليهم.

قال الله -تعالى- في سورة العنكبوت: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ 2-3.

أتممت ما قصدت إليه من تفسير سورة الحجرات في ربيع الأول 1424

الموافق لشهر ماي2003م

ولله الحمد والمنة

وأرجو من الله العون على خدمة كتابه العزيز.

سورة الحشر

مُقَدِّمَة

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى. أما بعد:

فهذا الكتاب يمثل حلقة من سلسلة الكتب التي تناولت فيها تفسير بعض سور القرآن الكريم، أقدمه لأبنائنا وبناتنا راجيا أن يسهم – كما أسهمت الكتب التي سبقته – في تذليل الصعاب التي تعترضهم أثناء محاولتهم الفهم العميق لمرامي الآيات الكريمة بلغة مبسطة تيسر لهم اقتناص المعاني، وبأسلوب عبروا عن ارتضائه مرارا، وباختصار يناسب عصر السرعة الذي يظلنا وبالاستعانة بالنحو أحيانا أي عند الحاجة إلى ذلك، وبالاقتصاد في البحث تارة والتوسع والاستطراد النافع تارة أخرى...

والذي رغَّبني في اختيار هذه السورة بالذات اشتمالها على عينات من المكر اليهودي الموجه منهم إلى سيدنا رسول الله ﷺ والمؤمنين معه، وعلى فضائح مخزية ارتكبها المنافقون من العرب الذين كفروا بقلوبهم، وآمنوا بألسنتهم، فهم يتعاملون مع المسلمين في ظاهر الأمر كأنهم منهم **﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم، وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون﴾** التوبة36، ويتعاونون مع اليهود في الكيد للإسلام وأهله في باطن الأمر.

وبما أن التاريخ يعيد نفسه أحيانا، كما يقال، فإن من ينظر إلى ما يمارسه اليهود الصهيونيون، ومن ورائهم منافقو العرب في داخل فلسطين وخارجها،

ضد الفلسطينيين في أرضهم يتبين له أن كراهية اليهود للمسلمين وما نتج وينتج عنها من جرائم شنيعة ليست وليدة عصرنا الحاضر، بل هي ممتدة من عصر النبوة المحمدية إلى زمننا هذا، على مدى أربعة عشر قرنا ونيفا، مما يتضح معه أن اليهود هم اليهود والخونة هم الخونة.

وإذا كان اليهود منطلقين في عداوتهم للإسلام والمسلمين من عقيدة راسخة فاسدة آثمة توارثوها أبناء وأحفادا عن آباء وأجداد فإن خونة العرب لا همَّ لهم إلا الحصول على المغانم المادية التي يدرها عليهم التعاون المقيت معهم. والتاريخ العربي قد سجل لنا أن تلك المغانم التي باع بها بعض العرب ضمائرهم أسهمت إسهاما كبيرا في احتلال اليهود لأرض فلسطين إلى جانب ذلكم الثلاثي الشرير المؤلف من حكومات بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا الذين أنشئوا ما سموه دولة إسرائيل وأمدوها بأسباب البقاء الدائم في نظرهم من أسلحة جهنمية متطورة لا يملك العرب –مجتمعين– ما يماثل القليل منها، ومن تأييد سياسي دائم وتأييد عسكري في كل حرب وقعت بينهم وبين الدول العربية...

والتاريخ حدثنا أيضا، والواقع المعيش، أن المسلمين سرعان ما ينسون عداوة اليهود الشديدة لهم، ولم يكتفوا بذلك النسيان بل قربوهم ووفروا لهم الأمان التام، ووثقوا بهم إلى حد تنصيب بعضهم في المناصب الوزارية في بعض الدول.

وفي مقابل ذلك النسيان الذي يسرع إلى قلوب المسلمين بداعي التسامح الذي طبعهم به دينهم وأخلاقهم فإننا نجد اليهود لا ينسون حقدهم المعجون بدمائهم على كل ما يمت بصلة إلى الإسلام، مما يذكرنا بطباع الذئاب والثعالب التي لا يمكن أن تتخلص مما جبلت عليه !!

وإلا فما بال ذلك التقتيل الوحشي لأصحاب الوطن الشرعيين وتدمير بيوتهم على رؤوسهم لا يرحمون صغيرا ولا كبيرا ولا رجالاً ولا نساء؟ وما بال ذلك الغصب العنيف للأراضي من ملاكها، وطردهم من ديارهم لاحتلالها؟ وما بال تلك السجون والزنازن الملأى بالبُرءاء الذين يعذبون فيها ليلا ونهارا بأبشع أنواع العذاب؟

وما بال تلك الأعمال المستمرة في الحفر تحت المسجد الأقصى لإزالته من الخريطة؟ وما بال ذلك القصف العنيف بالصواريخ على غزة وأهلها بواسطة الطائرات مما نجم عنه موت المئات وإصابة الآلاف وتشريدهم، إلى آخر ما هنالك من منكرات؟

وكان آخر ما أفرزته الوحشية الصهيونية التي لا حد لابتكاراتها العدوانية أنهم يقتلون بعض الفلسطينيين ليشقوا بوطنهم ويستخرجوا منها أعضاء مهمة يتاجرون بها. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كل ذلك كان مكافأة من الصهيونيين للمسلمين الذين ظلوا يحسنون جوارهم خلال القرون العديدة.

ولكن رغم كل ذلك الطغيان الصهيوني فإن وعيد الله إياهم بالعودة إلى عقوبتهم إن عادوا إلى إفسادهم لا بد أن يتحقق، ولعله لا يتحقق قبل أن يعود العرب إلى رشدهم، ويستمعوا إلى هدي ربهم، فيقلعوا عن تخاذلهم ويترفعوا عن أهوائهم، والله المسئول ألا يؤاخذهم بما فعل سفهاؤهم...

ولا يخدعنك – أيها القارئ الكريم- ما تراه من طغيان الكيان الصهيوني وعلوّه في الأرض، وهيمنته على البلاد والعباد! فإن ذلك لم يكن ذاتيا فيه وإنما هو مكتسب من غيرهم، كما يشير إليه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾، أي لا تزول عنهم الذلة التي كتبها الله عليهم أين ما وجدوا إلا في حالتين:

الحالة الأولى: أن يجددوا عهدا مع الله بالإيمان به والتمسك بأحكامه (وهو المعبر عنه بالحبل) وقد فعل ذلك بعض أسلافهم، وآمنوا برسالة سيدنا محمد بن عبد الله في عهد النبوة كعبد الله بن سلام وجماعة منهم رحمهم الله.

الحالة الثانية: أن يكون عهد بينهم وبين غيرهم من الناس كما حصل لهم في ظل الخلافة الإسلامية التي وفرت لهم الأمن التام والحرية الواسعة...

وفي هذه السنين أيضا بواسطة الحماية التي كفلتها لهم تلك الدول العظمى في أوروبا وأمريكا (الولايات المتحدة، ابريطانيا، فرنسا) ولولا تلك الحماية لما استطاع اليهود الصهيونيون أن يرفعوا رؤوسهم ويتحدوا كافة العرب.

فإخواننا في فلسطين يواجهون – في الواقع – ثلاث دول عظمى.

وهناك سؤال يبدر لأي إنسان يطلع على ما يضمره اليهود من حقد وكره للإسلام! مؤداه: لم هذا الحقد على الإسلام ومتبعيه، والكره الشديد للرسول العربي محمد بن عبد الله ﷺ ؟

والإجابة على ذلك نجدها في القرآن الكريم، حيث يقول الله –تعالى– عنهم في سورة البقرة: ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم** (باعوا به أنفسهم) **أن يكفروا بما انزل الله، بغياً**(حسداً) **أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ...**﴾ 89. وفيها أيضاَ عنهم: ﴿**ودَّ كثير من أهل الكتـــاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق...**﴾ 108. وفي سورة النساء: ﴿**... أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضـله...** 53 ﴾.

فالحسد والاستكبار هما الصفتان المولّدتان للحقد في قلوب الإسرائليين على خاتم الأنبياء والرسل، وما جاء به من وحي الله ﷻ، و على كل من اتبع هداه، من حيث اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار الأجدرون بتلقي الوحي من الله تعالى. فكيف يتبعون رسولاً أمياً من عرب

أمين، هم أحط مكانة من بني إسرائيل؟!! وكيف تنتقل الرسالة الإلهية من بني إسحاق إلى بني إسماعيل؟!

المؤلف

سُورَةُ ٱلْحَشْرِ

هي من السور المدنية، عدد آياتها أربع وعشرون.

سميت بسورة الحشر لورود هذا اللفظ فيها "... لأول الحشر ".

وبما أن أحداثها وقعت في المدينة المنورة يحسن التنبيه إلى من سمى المدينة بهذا الاسم، إنه النبي ﷺ وقد كانت تسمى "يَثْرِب" تَسمِيةً لها باسم أحد العمالقة، وقد وردت المتسميتان في القرآن الكريم.

قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ...** ﴾101، وقال فيها أيضا: ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ...** ﴾120، وقال –تعالى– في سورة الأحزاب: ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** ﴾13.

ويحسن أيضا التذكير بالتركيبة السكانية في ذلك العهد، حيث كانت هناك قبيلتان عربيتان استوطنتا يثرب هما الأوس والخزرج، وثلاث قبائل يهودية هن بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، ثم العرب المسلمون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وهم الذين سموا بالمهاجرين والعرب المسلمون من قبيلتي الأوس والخزرج، وهم الذين سموا بالأنصار، وهناك طائفة تكونت فيما بعد تعلن الإسلام وتبطن الكفر، وهم المنافقون.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(1)﴾

التفسير:

هذه السورة من السور الستة التي ابتدأها الله ﷻ بالتسبيح.

والتسبيح المفهوم من "سبح" معناه: تنزيه الله -تعالى- عما لا يليق بجلاله وكما له من الصفات التي يفهم منها النقص والاحتياج والعجز والجهل وغير ذلك:

- كاعتقاد شريك له في ملكه توجه إليه العبادة معه أو دونه ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الكهف 110.

- أو اعتقاد أن له ولداً: ﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يونس 68.

- أو اعتقاد جهله بما يقع في ملكه في سورة آل عمران ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء ﴾.

و"ما " اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل. وهي تستعمل –غالبا– لغير العاقل ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل96.

وقد تستعمل للعاقل ﴿...فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء...﴾ النساء3.

بخلاف " مَن" التي تستعمل غالبا للعاقل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصلت46، وقد تستعمل لغير العاقل ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ...﴾ النور45.

و"ما" في الآية الكريمة تفيد العموم أي العقلاء كالملائكة والإنس والجن، وغير العقلاء كالأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والجبال وغيرهن...

وإذا كان تسبيح العقلاء مفهوماً لدى الإنسان فمن أين لنا أن نتصور تسبيح غير العقلاء؟

والإجابة على هذا السؤال نجدها في القرآن الكريم حيث يقول الله – تعالى– في سورة الإسراء: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ 44، فلفظ "شَيْءٍ" هو أنكر النكرات يشمل كل موجود في السماوات وفي الأرض، سواء أكان عاقلا أم غير عاقل ولكي يزيل الله –تعالى– استغراب الإنسان من

تسبيح الكائنات غير العاقلة قال: "وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ" أي لا تفهمونه لأنه ليس بلغاتكم التي اصطلحتم عليها.

فقد ركز الله- تعالى- في كل مخلوق من الإدراك ما يتأتى معه الفهم الذي يدفعه إلى تسبيح من أوجده من العدم، وإلى التصرف وفق ما أعدَّه له .

ومن أمثلة ذلك ما قصه الله -تعالى- علينا في القرآن الكريم من تحذير النملة لبنات جنسها في وادي النمل من تحطيم سليمان وجنوده لهن إذا لم يدخلن مساكنهن. وقد فهم سليمان قولها، وتبسم لذلك .

قال الله -تعالى- في سورة النمل:﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ...﴾ النمل 17 – 19.

ومن ذلك ذهاب الهدهد إلى مملكة بلقيس ورجوعه إلى نبي الله سليمان ليخبره بما شاهده هنالك.

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿...**وتفقد الطير فقال: مالي لا أرى الهدهد، أم كان من الغائبين؟ لأعذبنه عذابًا شديداً.أو لأذبحنه أولياتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إني وجدت امرأة**

تملكم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وجدتها وقوما يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، ويعلم ما يخفون وما يعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ النمل 20-26.

- ومن سماع العقلاء وغير العقلاء للمؤذن حين يؤذن وشهادتهم له يوم القيامة، وفي ذلك يقول ﷺ:" **لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة** ".

- ومن ذلك خضوع الجمل الذي ندّ عن أصحابه إلى رسول الله ﷺ واستغراب أبي بكر ﷺ لذلك الخضوع حتى قال: كأنه يعلم أنك رسول الله! فقال ﷺ حينها:" نعم، ما بين لابتيها إلا ويشهد أني رسول الله".

- ومن ذلك قوله ﷺ عن الدواب "**اركبوها صالحة، ودعوها صالحة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله**".

- ومن ذلك تسبيح الحصا في يده ﷺ وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه رسول الله ﷺ بعد أن نحاه عن مكانه ولم يتوقف عن الحنين إلاّ بعد أن وضع يده الشريفة عليه.

- ومن ذلك قوله ﷺ "إني لأعلم حجراً بمكة يسلم علي كلما مررت عليه".

- ومن ذلك قوله ﷺ: "لجبل أحد حين صعد عليه مع أبي بكر وعمر وعثمان وارتجَّ: اثبت؟ أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان".

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

العزيز: ذو العزة والغلبة في ملكه، لا يعجزه شيء.

الحكيم: ذو الحكمة في صنعه، ليس في مصنوعاته أي خلل.

وهما من الأسماء الحسنى.

قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(2)﴾

تفسير :

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾

" هُوَ " : ضمير يعود إلى اسم الجلالة « اللهَّ » المذكور في الآية الأولى.

"**من أهل الكتاب**" من حرف جر يفيد تبين المراد من الذين كفروا وهم أهل الكتاب خاصة فهي أي "**مِنْ**" بيانية وأهل الكتاب في التعبير القرآني هم اليهود والنصارى لأن كلاً منهم له كتاب سماوي، كتاب اليهود هو التوراة المنزلة على نبيهم موسى عليه السلام، وكتاب النصارى هو الإنجيل المنزل على نبيهم عيسى عليه السلام.

و المقصود من أهل الكتاب هنا فريق من يهود يثرب كانوا يسمون بني النضير، وكانت ديارهم بإحدى ضواحي المدينة المنورة.

واللام في " **لِأَوَّلِ الْحَشْرِ** " هي لام التوقيت التي يؤتى بها لبيان الوقت الذي يبتدئ فيه عمل من الأعمال، وتفسر بـ " **عِندَ** " أي عند أول الحشر.

وإضافة " **أَوَّلِ** " إلى " **الْحَشْرِ** " هي من إضافة الصفة للموصوف أي عند الحشر الأول.

وقد وردت هذه اللام التوقيتية في آيات أخرى من القرآن الكريم، من ذلك قوله -تعالى- في سورة الإسراء: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** ...﴾78.

أي عند دلوك الشمس أي ميلها إلى جهة الغرب ، وهو وقت الظهيرة الذي تصلى فيه صلاة الظهر.

ويستمر الوقت الصالـح لإقامة الصلاة فيه إلى غسق الليل أي ظلمته، ويدخل في ذلك أربع صلوات: هن الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

أما صلاة الصبح فتدخل في قوله تعالى بعدُ: ﴿وَ قُرْآن الفَجْرِ إنَّ قُرْآن الفجر كان مَشْهُوداً ﴾ 78 وقد جاء التعبير عن الصلاة بقراءة القرآن خلالها من باب إطلاق جزء مهم فيها على الكل.

ومن ذلك قوله –تعالى– في سورة الطلاق: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...﴾ 1.

أي طلقوهن عند الوقت الذي يصح فيه ابتداء عدتهن وهو أن تكون في طهر لم يعاشرها زوجها فيه: فتطليقها في حالة الحيض حرام.

والحشر – لغة – جمع الناس لغرض من الأغراض، وهو مصدر الفعل: حشر: بمعنى: جمع .

والمراد بالحشر – هنا– حشر يهود بني النضير لطردهم من المدينة ، وقد توجه بعضهم إلى أذرعات بالشام وبعضهم إلى خيبر والحيرة.

ووصف الحشر بأنه الأول يفيد أن هناك حشراً آخر يقع لليهود، وقد وقع– فعلا– لجميعهم من جزيرة العرب على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تنفيذاً

لوصية الرسول ﷺ بأن لا يبقي دينان في جزيرة العرب فتوجه أكثرهم إلى الشام وبعضهم إلى العراق.

و معنى الآية أن الله -تعالى- أخبر بأنه هو الذي أخرج يهود يني النضير من ديارهم حوالي المدينة عند حلول الزمن الذي قدره لخروجهم الأول، وما قدره الله لا بد أن يكون.

وفي الآية توجيه المؤمنين إلى شكره -تعالى- على هذا النصر الذي آزرهم به على عصابة عنيدة قوية.

وفي الآية قصر يدرك بداهة من تعريف جزئي (الجملة الاسمية وهما المبتدأ والخبر « **هو الذي** » الأول ضمير، وهو من المعارف والثاني موصول وهو أيضا من المعارف بمعنى أن إخراج يهود بني النضير من ديارهم، وإجلاءهم عن المدينة مقصور على الله- تبارك وتعالى-، فلولاه ما استطاع المسلمون أن يجلوهم نظرا لقوتهم وتحصنهم).

سبب إخراج بني النضير من المدينة:

كان بنو النضير قد وقعوا صلحا مع النبي ﷺ بعد غزوة بدر الكبرى التي نصر الله فيها المسلمين على الكافرين نصرا مؤزرا وكان من جملة مواد هذا الصلح آلا يكونوا له ولا عليه، وإذا لزمت المسلمين أو اليهود دية قتل اشتركوا في جمعها لأولياء القتيل، وإذا هاجم العدو المدينة تصدوا إليه جميعا، وظلوا محترمين لهذا

العهد حتى كانت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة التي مُني فيها المسلمون بالهزيمة في آخرها بعد الانتصار في أولها كما هو معروف.

وكما هي عادة اليهود إذا أنِسُوا ضعفاً فيمن عاهدهم ورأوا مصلحتهم في غيرهم لم يترددوا في نكث عهدهم معهم والانضمام إلى عدوهم.

وانطلاقا من هذا الطبع الخبيث عند اليهود توجَّه زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة في أربعين فارساً ليتحالف مع المشركين لاستئصال الإسلام والمسلمين ولم يبال بالعهد الذي بينه وبين نبي الله محمد ﷺ ومن عجائب الزمان أن الاجتماع بين المتحالفين على الظلم قد وقع في بيت الله الحرام!!!

ولما علم الرسول بذلك قرر إعدامه بعد رجوعه من مكة فأرسل إليه محمد بن مسلمة مع مساعدين له فاغتالوه ليلا بعد أن استدرجه محمد من قصره جزاء له على نكث العهد، وعلى التشبيب بنساء المسلمين.

وكان من دلائل نقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ أنهم عزموا على اغتياله حين توجه إلى حيهم صحبة بعض أصحابه ليطالبهم بالاشتراك مع المسلمين في دفع دية قتيلين اغتالهما أحد القراء ظنا منه أنهما من الأعداء المحاربين، فالتزم الرسول ﷺ بدفع الدية لأوليائهما من بني عامر.

رحّب اليهود بالنبي ﷺ وأصحابه وشرح لهم ما جاء من أجله وهو التعاون على جمع دية لزمت المسلمين كما هو نص الاتفاق الحاصل بينهم فطلبوا منه أن يجلس إلى جدار أحد بيوتهم، وأوهموه أنهم يدخلون تلك الدار ليجمعوا له ما طلبه من مال، ولكنهم دخلوا ليتآمروا على قتله، قال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا فرصة تمكنكم من قتل محمد كهذه الفرصة، فمن يصعد منكم إلى السطح ليلقي عليه صخرة كبيرة تميته فنستريح منه، وقد أخذ أحدهم -فعلا- فردة رحى كانت في الدار ليلقيها على رأس النبي ﷺ ولكن الله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية أوحى إليه بما دبره اليهود، فغادر المكان راجعا إلى المدينة. وتفقده أصحابه فلم يجدوه. حتى جاء من أخبرهم بأنه رآه يدخل المدينة فالتحقوا به فأخبرهم أن اليهود همّوا بقتله ناقضين العهد الذي بينه وبينهم، فأرسل إليهم من يخبرهم بأن الرسول يأمرهم بالجلاء عن المدينة، عقوبة لهم على خيانتهم ، وأجلهم ثلاثة أيام، وقيل عشرة، وقد همّوا بالجلاء. ولكن رأس المنافقين: عبدالله بن أبيّ أرسل إليهم يشجعهم على البقاء في ديارهم، وألا يعبئوا بتهديد محمد إياهم، ووعدهم بأن معه ألفين من أصحابه مستعدين لنصرتهم، يضاف إليهم مقاتلون من قبيلة غطفان، فانخدعوا بهذا الوعد، وأرسلوا إلى النبي ﷺ من يخبره بأنهم يرفضون تهديده، ولْيفعل ما يشاء.

فقرر التوجه إليهم بجنوده لمحاصرتهم في حصونهم التي تحصنوا بها، وهم يأملون أن يهب المنافقون لنجدتهم وفك الحصار عنهم، ولما لم يروا شيئا من ذلك

استسلموا ووقع الصلح بينهم وبين النبي ﷺ على الخروج من ديارهم. وشرط النبي ﷺ عليهم ألا يحملوا السلاح معهم، وأن يأخذوا معهم من الأمتعة ما تحمله الإبل فقط، على أن يشترك كل ثلاث عائلات منهم في جمل ليَحمل أمتعتهم إلى مهجرهم وتوجه بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى أطراف الشام.

وكانت هذه الواقعة في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة.

وقد يتساءل البعض عن سبب مجيء بني إسرائيل إلى جزيرة العرب؟ واستيطانهم فيها؟

نترك الإجابة للإمام المحقق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره القيم للقرآن الكريم " التحرير والتنوير" - " الجزء 27 ، الصفحة 66".

قال - رحمه الله - " ....وقصة استيطانهم بلاد العرب أن موسى عليه السلام كان أرسل طائفة من أسلافهم لقتال العماليق المجاورين للشام وأرض العرب فقصروا في قتالهم وتوفي موسى قريباً من ذلك، فلما علموا بوفاته رجعوا على أعقابهم إلى ديار إسرائيل في أريحا، فقال لهم قومهم: أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا فخرجوا إلى جزيرة العرب، وأقاموا لأنفسهم قرى حول يثرب، وبنوا لأنفسهم حصوناً، وصاروا أهل زرع وأموال، وكان فيهم أهل الثراء مثل السموءل بن عاديا وكعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وكان بينهم وبين

الأوس والخزرج حلف ومعاملة، فكان من بطون أولئك اليهود بنو النضير وقريظة و خيبر ».

قوله تعالى:

﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾

التفسير:

الخطاب في " ظننتم " للمؤمنين، والضمير في " يخرجوا " لليهود، و " ما " نافية و « مانعة » اسم فاعل، " حصون " فاعل لاسم فاعل. وقد توارد الظنان ظن المؤمنين وظن اليهود على استبعاد خروج اليهود من حصونهم وديارهم، وذلك لأن المؤمنين كانوا يكبرون قوة عدوهم، ووفرة سلاحهم، وحصانة حصونهم، ويهود كانوا يعتمدون على حصونهم وسلاحهم ناسين نقمة ربهم.

و"لم يحتسبوا " لم يتوقعوا و"حيث " ظرف مكان مبهم، يفسر إبهامه الجملة التي بعده؛ فعدم الاحتساب المفهوم من جملة " لم يحتسبوا " وضحت الجهة التي أتاهم منها عقاب الله، وهي جهة قلوبهم التي بث الله فيها الرعب الذي لم يتصوروه.

و هذا كقولك لأخيك " اجلس حيث تصلي " فجملة تصلي وضحت المكان المبهم الذي يجب الجلوس فيه وقد وردت في القرآن عدة مرات.

و« القذف » المفهوم من قذف معناه الرمي، والمراد به هنا الجعل و" الرعب " الخوف الشديد.

والمعنى أنكم -أيها المؤمنون- ما كنتم تظنون أن يهود بني النضير يخرجون من ديارهم لشعوركم بقوتهم المادية.

واليهود كذلك كانوا يستبعدون هذا الخروج معتقدين أن حصونهم تمنعهم من تسلطكم عليهم، ولكن عقاب الله أتاهم من جهة لم يكونوا يتوقعونها وهي قلوبهم التي زرع فيها الرعب الذي جعلهم يستسلمون لحكم نبي الله بالجلاء عن المدينة.

وفي الآية تشبيه حال اليهود في ظنهم أن عقاب الله لا ينزل بهم بحال من شددوا الحراسة على أنفسهم، ظانين أن عدوهم لا يصل إليهم ولكن هذا العدو دخل عليهم من جهة لم يتوقعوا دخوله منها.

تنبيه:

ذلك الظن الذي كان متوارداً بين العرب المسلمين واليهود في المدينة المنورة على عهد رسول الله ﷺ قد تكرر في عصرنا هذا بين الفلسطينيين واليهود

الصهيونيين على أرض فلسطين العربية التي احتلها الصهيونيون منذ سنة 1948م إلى الآن.

فبعض الفلسطينيين يظنون أنه لا طاقة لهم بإخراج اليهود من أرضهم واليهود كذلك يستبعدون الخروج من فلسطين اعتماداً على ما لديهم من أسلحة مدمرة كثيرة تفوق ما لدى الدول العربية مجتمعة، منها السلاح العادي ومنها السلاح المتطور الجهنمي، ومنها السلاح النووي الخطير الذي لا يبقي ولا يذر. واطمئنانا إلى الدعم العسكري والسياسي والاقتصادي والإعلامي والمالي الذي يتوالى عليهم من حكومات بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا مع تواطؤ المنافقين من حكام العرب، وبقية العملاء من الخونة المأجورين على خيانتهم الذين ربطوا استمرار سلطتهم ونفوذهم والانغماس في شهواتهم ببقاء دولة إسرائيل المؤسسة على الاغتصاب والظلم والانتقام ممن أحسنوا إليهم طيلة القرون الأربع عشرة الماضية وحموهم من الاضطهاد العالمي وخصوصا الأوروبي منه، حتى إن التاريخ ليحدثنا أن المسلمين لما نكبوا في الأندلس، واضطر الناجون من المذابح الإسبانية إلى الرحيل إلى المغرب الإسلامي صحبهم اليهود فلم يجدوا منهم إلا المعاملة الحسنة والراحة الدائمة في طول البلاد الإسلامية وعرضها وقد بلغ تسامح بعض حكام العرب أن قلدوا رجالا من اليهود بعض المناصب الوزارية وهاهم الصهيونيون من اليهود الآن يردون الجميل لمن أحسنوا إليهم من العرب باضطهاد إخوانهم في فلسطين والفتك بهم، وتعذيبهم بأنواع من العذاب

الجسدي والنفسي ليلا ونهاراً في داخل الزنازين وفي خارجها، وتهديم البيوت على ساكنيها من رجال ونساء وأطفال .

ومن المنكرات التي لا يستسيغها إنسان سوي على وجه الأرض تعليق بعض المسجونين من أطرافهم في السقوف كما تعلق فرائس الحيوانات، وربطهم في الجدران كما تربط الكلاب، وتقييد أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، وإهانة المقدسات الدينية وفي مقدمتها المصحف الشريف الذي يدوسونه بأرجلهم، ويرمون أوراقاً منه في المراحيض، وانتهاك حرمة النساء بإخضاعهن للاعتداء الجنسي أمام أقاربهن، وتسليط التيار الكهربائي على الأماكن الحساسة من أجسام الرجال والنساء إلى غير ذلك من أنواع التعذيب الذي تشمئز منه النفوس . ومن أفانين اضطهادهم أن بعض جنودهم اجبروا بعض العرب الأسرى على شرب البول بدلاً من الماء المطلوب!!!

ولا ننسى الألوف من الفلسطينيين الذين طردوهم من أرضهم وديارهم ليحتلوها غصبا عنهم والذي نرجوه من المولى ﷻ أن يأتيهم عقابه من حيث لم يحتسبوا كما أتى أسلافهم من يهود بني النضير وقريظة وقينقاع وخيبر، وما ذلك على الله بعزيز إن استقام العرب على شريعة ربهم، والتزموا بقرآنهم، وهدي نبيهم، كما التزم أسلافهم فكانوا أهلا لنصر الله إياهم كفاء نصرهم لدينه. قال الله — تعالى-:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي

الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج 38-39.

والذي يقوي رجاءنا في الله-تعالى- أنه أوعد بني إسرائيل بعقاب شديد كلما عادوا إلى إفسادهم في الأرض ذلك إلا فساد الذي ألفوه واستمرءوه...

قال الله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا، عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾4-8.

وقد عادوا إلى إفسادهم للمرة الثالثة على عهد خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله عليهم الصلاة والسلام.

وكان من إفسادهم في الأرض محاولة اغتيال رسول الله ﷺ وتأليب العرب المشركين على الإسلام والمسلمين فسلط الله عليهم نبيه محمدا ﷺ ومن معه من المؤمنين فقتلوا منهم وسبوا، ثم أجلوهم – نهائيا – من جزيرة العرب وهاهم للمرة الرابعة يعودون إلى الإفساد في الأرض أرض فلسطين، ولا شك أن الله-

تعالى- سينفذ وعيده فيهم، قال ﷺ: " لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلوهم، حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعالى فاقتله» أو كما قال عليه الصلاة والسلام".

قوله تعالى:

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾

يخربون: فعل مضارع يعود ضمير الجماعة فيه إلى اليهود وهو من « أخرب » على وزن أفعل كما قرأه الجمهور وقرئ « يخربون » بالتضعيف على وزن فعّل المضعف ومعنى الصيغتين واحد، وهو هدم البناء وإسقاطه وقد تداول على الإخراب المؤمنون من الخارج واليهود من الداخل، وقد علمنا مما سجله لنا كُتَّاب السيرة النبوية أن اليهودي كان يعجبه باب بيته، أو عمود في سقفه فيهدم الجدار أو السقف من أجل نزعه ليحمله على بعيره إلى مُهاجَره حتى لا ينتفع به المؤمنون.

وقد أسند إخراب البيوت إلى المؤمنين لأن اليهود كانوا هم السبب في تخريب المؤمنين بيوتهم، فأسند إليهم على سبيل المجاز، فلو لم يتآمر اليهود على اغتيال الرسول حين توجه إليهم، ولم يتحالفوا مع كفار العرب على محو الإسلام، والقضاء على المسلمين لما التفت المؤمنون إليهم.

قوله تعالى: ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾.

الفاء تفريعية فقد فرعت مضمون الجملة التي بعدها على مضامين الجمل التي قبلها.

و الاعتبار المفهوم من فعل الأمر "اعتبروا " الذي خوطب به أولو الأبصار يعني الاتعاظ بما حصل لليهود من عقاب الله الذي نالهم بسبب طغيانهم، والاغترار بقوتهم وتعاونهم مع أهل الباطل على أهل الحق غافلين عن انتقام رب العزة منهم. وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ابراهيم44.

وأولو الأبصار أصحابها. والأبصار جمع بصر. وهو يطلق على القوة المدركة التي ركزها الله -تعالى- في العيون كما يطلق على القوة المدركة التي خلقها الله - تعالى- في قلوب بني آدم. وتسمى هذه بصيرة، وجمعها بصائر.

وتوجيه الأمر إلى أولي الأبصار خاصة لأنهم هم الذين ينتفعون بالاعتبار.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(4)﴾

لَوْلَا : وردت في القرآن الكريم بمعنيين: المعنى الأول أنها حرف امتناع لوجود أي يمتنع حصول ما تضمنه جوابها لوجود ما تضمنه شرطها. فإذا قلت:

لولا رحمة الله بالناس لهلكوا. فمعنى ذلك أن هلاك الناس قد امتنع ولم يحصل لوجود رحمة الله بعباده .

وهذا هو المعنى الذي تفيده **"لَوْلَا "** في هذه الآية أي لم يقع عذاب الله ليهود بني النضير لوجود الجلاء عن ديارهم بحيث لو لم يقدر الله عليهم الجلاء عن ديارهم لعذبهم فيها بقتل رجالهم وسبي نسائهم مع أطفالهم.

كما وقع لبني قريظة على يد المؤمنين.

وبديهي أن الجلاء أهون عليهم من قتل رجالهم وسبي نسائهم.

ومن خصائص « لولا » هذه أن يأتي بعدها جملة اسمية محذوفة الخبر، وإعرابها في هذه الآية كالآتي:

لولا: حرف امتناع لوجود – أن: حرف مصدر

كتب: فعل ماض – فاعله: اسم الجلالة

والمبتدأ –هنا– هو المصدر المسبوك من الفعل الواقع بعد أن المصدرية، وهو «كتْب» وخبره محذوف وتقدير الجملة: لولا كتْب الله عليهم الجلاء موجود لعذبهم في الدنيا.

ومثل لولا هذه في سورة الحشر « لولا » في سورة سبأ ﴿ **يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين** ﴾31، أي لولا أنتم منعتمونا من الإيمان في الدنيا لكنا مؤمنين.

والمعنى الثاني لـ « لولا » أنها تحضيضية. والتحضيض : الترغيب في الشيء بإلحاح. ومثالها قوله –تعالى– في سورة التوبة: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إن ارجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ 122.

و "لولا" هذه التحضيضية، تأتي بعدها جملة فعلية كما في المثال السابق بخلاف لولا الشرطية.

والجلاء: خروج جماعة من الناس من بلدهم إلى بلد آخر ليستوطنوه. يقال جلا القوم عن وطنهم –يجلون– جلاء إذا خرجوا من تلقاء أنفسهم، وأجلاهم غيرهم، إذا أخرجهم مكرهين. ومن هنا اسم الجالية للجماعة التي تغادر وطنها إلى وطن آخر.

وقد يطلق الجلاء على صقل الشيء وتلميعه.

أما الجلاء بكسر الجيم فلا يدل إلا على الصقل والتصفية؛ يقال: جلا الرجل سيفه أو جلت المرأة مرآتها.

وقوله –تعالى- : ﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ أي جزاؤهم في يوم القيامة على فسوقهم عذاب جهنم زيادة على عذاب الدنيا إن لم يتوبوا والله أعلم.

وقوله –تعالى-:﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾، الإشارة بـ « ذلك لعذاب الدنيا والآخرة.

والباء في « بأنهم » سببية، وما بعدها يسبك بمصدر مجرور. والتقدير. ذلك العذاب بسبب مشاقتهم لله ورسوله. والمشاقة المخالفة والمعاداة كأن كلا من المتعادين واقف على شق مقابل لشق عدوه.

﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾

من : اسم شرط يجزم فعلين الأول: يشاق، وهو فعل الشرط وعلامة جزمه السكون المقدر على الحرف المدغم فيه، وجواب الشرط محذوف تدل عليه الجملة المذكورة بعد الفاء. والتقدير : ومن بشاق الله يعاقبه.

و يلاحظ أن كلا من الفعلين « شاق» في الماضي و« يشاق» في المضارع جاء بالإدغام أي إدغام القاف الأول في القاف الثاني. بينما نقرأ فعل « يشاق» في سورة النساء بفك الإدغام **﴿ومن يشاقق الرسول من بعدما تنبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى...﴾**115.

وقد قرئ قوله –تعالى– في سورة المائدة : ﴿**ومن يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله يقوم يحبهم ويحبونه**﴾54، هكذا بفك الإدغام وقرئ « يرتد» بالإدغام وكلاهما مستعمل في اللغة العربية.

قوله تعالى:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ(5)﴾

التفسير:

ما شرطية تجزم فعلين و"قطع" فعل الشرط مبني على الفتح في محل جزم. "فبإذن الله": فبرضاه ومشيئته وهو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: قطعُه بإذن الله، والجملة جواب الشرط. ويصح أن تكون ما "موصولة" مبتدأ خبره الجار والمجرور " فبإذن الله "

و"من" بيانية، فقد بينت المراد من الشيء الذي قطعه المسلمون و هو نخل بني النضير.

و"لينة" النخلة الكريمة تكون في علوها من الأرض قدر قامة الإنسان أو أعلى قليلا، وتسمى أيضا الجبارة. و فوقها الباسقة (**والنخل باسقات لها طلع نضيد**) و الخطاب في قطعتم للمسلمين.

قائمة على أصولها: واقفة على جذوعها من غير قطع.

يخزي: يذل و يهين.

الفاسقين: وصف لبني النضير لفسوقهم أي خروجهم عن أحكام الشريعة الإلهية التي تحرم الظلم والاعتداء على الناس و فسوق بني النضير محاولتهم اغتيال رسول الله ﷺ والتحالف مع القبائل العربية المشركة على محاربة الإسلام والمسلمين.

والمعنى أن الله -تعالى- خاطب المؤمنين ليعلمهم برضاه عن قطع نخيل بني النضير وأشجارهم ليضطروهم إلى الاستسلام كما هو راض عن تركهم النخيل والأشجار واقفة على جذوعها فلا إثم عليهم في القطع ولا في الترك.

وذلك لإذلال اليهود وإهانتهم.

والآية نزلت تطمينا للمؤمنين بعد أن أحسوا بالحرج و خافوا من الإثم حين نادى اليهود النبي ﷺ من أعلى حصونهم قائلين: يا محمد؛ زعمت أنك تريد الإصلاح أمن الإصلاح قطع الشجر، و قطع النخل؟ فهل وجدت -فيما زعمت أنه أنزل عليك- الفساد في الأرض ؟

فوجد المسلمون في أنفسهم شيئا مما قال اليهود، وخشوا أن يكون ما فعلوه إفسادا، فطمأنهم الله ﷻأن ما فعلوه ليس إفساداً، ومن ثم فلا إثم عليهم.

وقد استدل فقهاء الإسلام بهذه الآية الكريمة على أن عدو المسلمين إذا احتل بلادهم ليحتل أرضهم و يستبد بخيراتها، ويتحكم في رقاب أهلها، ورأوا أنه لا يخرج إلا بتخريب ممتلكاته، وقطع أشجاره وحرق زروعه جاز لهم ذلك بل نقول يجب عليهم ذلك وهذا ما كان يفعله المجاهدون أيام الاستعمار الأوروبي الاستيطاني وما يفعلونه الآن مع اليهود الصهيونين الذين احتلوا فلسطين وما يقومون به ضد الطغاة الذين استحوذوا على أجزاء مهمة من الأوطان العربية .

و هاهنا يثور سؤال مؤداه :

ما يفعله بعض المنتسبين إلى الإسلام بإحاطة أنفسهم بأخزمة ناسفة في وسط جمهور من الناس ليقتلوا عددا من الأبرياء رجالا و نساء و بنين و بنات.

وما يقوم به بعضهم من تدمير مؤسسات الأمة لتسقط أنقاضها على الموظفين فيها بواسطة السيارات المفخخة أو القنابل الموقوتة وما يقع للأسر من تذبيح كامل لأفرادها.

هل هذا التصرف جائز في الشريعة الإسلامية اعتمادا على هذه الآية الكريمة؟

والجواب كلا ثم كلا. فإن الآية الكريمة واردة في حق اليهود المحاربين، وقاس العلماء عليهم غيرهم في أي عصر من العصور. أما غير المحاربين سواء أكانوا يهودا أم غير يهود فلا حق لأي مسلم في الاعتداء عليهم.

وإذا كان الإسلام يمنع من الاعتداء على الكافرين المسالمين فما معنى الاعتداء على المسلمين الأبرياء الآمنين.

يبدو أن الفكر الخارجي الذي يصوّر لأصحابه أنّ كل من يخالف مذهبهم هو كافر يحل سفك دمه هذا الفكر هو الذي يدفع معتنقيه إلى ارتكاب الحماقات وقد برز الخوارج بفكرهم هذا أيام خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فأعمل فيهم السيف واستمر الخلفاء من بعده في تعقبهم حتى ظن الناس أنهم انتهوا ولكن هاهم الآن يطلون على المجتمعات الإسلامية بجرائمهم الفظيعة التي لا يقرها دين ولا قانون.

و إلى جانب هذا الفكر الخارجي الممقوت ظهر أيضا في مجتمعاتنا فكر ممجوج تنتشر رائحته المنتنة بين المواطنين والمواطنات، وتنجم عنه آثار سيئة جداً. إنه الفكر العنصري الذي يوهن روابط المودة و الأخوة بين الطوائف. ويزرع الكراهية بين الجماعات ويحيي النعرات الجاهلية التي يبرأ من أصحابها رسول الله ﷺ بقوله ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية.

ولو أن هذه الدعاوي الجاهلية قام بها أناس ليسوا مسلمين ضد المسلمين لكان الأمر مفهوما أما أن يقوم بها من يدعون الإسلام ويصلون ويصومون ويحجون فهذا غير مفهوم ولا مقبول.

و على ذوي الكفاءة من أبنائنا وبناتنا أن ينشروا وسط مجتمعاتهم الوعي الإسلامي المضاد لتلك الأفكار الهدامة. و كان الله معهم بتسديده و عونه.

قوله تعالى:

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(6)﴾

مقدمة بين يدي هذه الآية:

كان المجاهدون على عهد رسول الله ﷺ حينما ينتصرون على عدوهم ويأخذون ما لديهم من أسلحة و أمتعة وغيرها لا يخلو ما يأخذونه من أمرين، إما أن يحصلوا علية بالحرب، وهذا يسمى غنيمة، وإما بالصلح أو بالرعب وهذا يسمى فيئاً.

والغنيمة تقسم إلى خمسة أقسام خُمس لله ورسوله، ولذي القربى « أي قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم » واليتّامى والمساكين، وابن السبيل أي المنقطع في طريق سفره لا يجد ما يوصله إلى بلده.

قال الله –تعالى-: **﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾41 الأنفال**. والأخماس الأربعة تقسم على المجاهدين، أما الفيء فلا يقسم على المجاهدين. وإنما يختص به النبي ﷺ وأقاربه واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وموضوع هذه الآية والتي بعدها هو الفيء.

شرح المفردات:

وما أفاء الله : أصل مادة الفيء : هو الرجوع. و يسمى ما يأخذه المجاهدون فيئا باعتبار أن الله تعالى أفاءه أي أرجعه إلى رسوله بدون قتال ولا تعب بعد أن كان في يد غيرهم.

وقد ورد الفيء - بمعناه اللغوي- في القرآن الكريم بصيغ مختلفةا منها - قوله تعالى- في سورة البقرة: ﴿لِلَّذِينَ يؤلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعة أَشْهُرٍ، فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمْ 226 وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾227، وقوله -تعالى- في سورة الحجرات: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ...﴾9، وقوله تعالى في سورة النحل:﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونْ ﴾48، وقوله -تعالى- في سورة آل عمران ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اِلْتَقتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ...﴾ 13.

أوجفتمْ : يقال في اللغة: وجف الحصان، يجف، وجفا و وجيفا: إذا أسرع في سيره. وأوجفه راكبه: إذا حثَّه على السير ليسرع. ومضارعه: يوجف، ومصدره الإيجاف. ونقرأ في القرآن الكريم الواجفة: " قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ". أي سريعة النبض يوم القيامة من أثر الهلع والخوف الشديد.

من خيل: من: حرف جر زائد للتوكيد.

فلفظ " خيل " مجرور لفظا، منصوب على أنه مفعول به تقديرا وتقدير الكلام: ما أوجفتم عليه خيلا.

والركاب الإبل التي تركب. ويعبرِ عنها بالركب ومنه قوله -تعالى - في سورة الأنفال: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾42.

ويسلط: يغلب.

ومعنى الآية: أن الله -تعالى- خاطب أصحاب رسول الله ليخبرهم أنّ ما أرجعه إلى رسوله من أموال بني النضير لم يُتْعِبوا أنفسهم، ولم يتعبوا خيلهم ولا ركابهم من أجل تحصيله، ولكن الله ﷻ هو الذي سلط رسوله عليهم فاستسلموا له وسلّموا أموالهم و أملاكهم كشأنه -تعالى- في تغليب رسله على من يشاء من عباده وذلك لأن الله -تعالى- متَّصفٌ بالقدرة التامة التي لا يستعصي عليها شيء.

قوله تعالى:

﴿مَّا أَفَاء اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ﴾

التفسير:

-أهل القرى في ذلك الوقت هم سكان خيبر وفدك و الصفراء ووادي القرى وقريظة ويلحق بها البلدان المفتوحة فيما بعد.

-دولة: بضم الدال: ما يتداوله الناس فيما ببينهم أي يتعاقبون عليه كالنقود وسائر الأشياء. والمراد بها هنا الأموال.

أما الدولة بفتح الدال فهي الغلبة و التسلط ومن ذلك الدولة القائمة في أمة من الأمم .

ومن ذلك قول العرب "داول الله الأيام بين الناس" أي صرفها بينهم بحيث تكون الغلبة لهؤلاء مرة ولهؤلاء أخرى .

ومنه قوله -تعالى-: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** آل عمران 140 .

والمعنى أن الله -تبارك وتعالى- حكم بأن يوزع الفيء المأخوذ من الأعداء على رسول الله ﷺ وذوي قرابته من بني هاشم واليتامى والمساكين و ابن السبيل. و ذلك لأجل ألا يكون المال محصورا في أيدي الأغنياء يتداولونه فيما بينهم ليبقى الفقراء محرومين منه.

والحكم بعدم حصر المال في طبقة معينة من الأمة هو أصل من الأصول الاقتصادية في الشريعة الإسلامية ومن ذلك نظام الزكاة المفروض في أموال الأغنياء لتنتفع به الطبقة الضعيفة في المجتمع. ومن ذلك صدقة التطوع التي رغبت فيها شريعة الله قال الله -تعالى-: **﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه...﴾** الحديد 7.

كما نفرت من الشح بالمال قال الله -تعالى-: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** الحشر 9.

ومن مشمولات ذلك الأصل الاقتصادي تحريم احتكار السلع حتى لا يزداد الأثرياء ثراء على حساب الضعفاء.

قال ﷺ: **" لا يحتكر إلا خاطئ"**.

ومن مشمولات ذلك الأصل تحريم الربا لأن فيه استغلال حاجات الضعفاء. قال الله -تعالى-: **﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله و ذروا ما بقي من الربا، إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله...﴾** البقرة 278-79.

ومن ذلك الأصل الكفارات عن الذنوب التي يرتكبها المسلم ككفارة الحنث في اليمين وكفارة الإفطار في نهار رمضان عمدا بدون عذر، وكفارة القتل الخطأ، وكفارة الظهار، وكفارة ترك واجب من واجبات الحج أو ارتكاب محظور من محظورات الإحرام بالحج أو العمرة.

ومن ذلك الأصل نظام المواريث .. الخ

وفي هذه الآية إبطال لما تعارف عليه العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بامتيازات كبيرة. وقد جمعها أحد الشعراء في بيت من الشعر مدح به أحد القادة من قبيلة بني شيبان:

لك المرباع منه و الصفايا   و حكمك و النشيطة و الفضول

والمرباع: ربع الغنيمة الذي كان يستأثر به قائد الجيش.

والصفايا: الأشياء الثمينة جدا التي تتعذر قسمتها.

وحكم القائد: هو ما يحكم به على عدوه من مال يدفعه.

والنشيطة: ما يوجد في طريق الجيش قبل وصوله إلى أرض المعركة .

والفضول: ما يفضل أي يبقى بعد قسم الغنيمة مما لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة كبعير أو فرس مثلا.

والنظام الإسلامي بهذه القاعدة الاقتصادية. في توزيع الثروات يخالف كلا من النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي.

قوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(7)﴾

التفسير:

هذه الآية معترضة بين قوله -تعالى-:﴿ **كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ وقوله -تعالى -: ﴿**للفقراء المهاجرين** ﴾ والخطاب في " **آتاكم** " للمسلمين وأولهم الذين شاركوا في حصار بني النضير. **والفعل** " آتى" بمعنى أعطى فهو يتعدى إلى مفعولين. يقول العرب في كلامهم : آتى فلان فلانا شيئا، يؤتيه، إيتاء. وقد ورد هذا الفعل بصيغ مختلفة في القرآن الكريم، منها هذه الآية في

صيغة الماضي، وقوله –تعالى– في سورة ص ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ 20. ومنها قوله –تعالى– في صيغة المضارع ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ البقرة 269.

ومنها قوله –تعالى– في صيغة المصدر ﴿ ... و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ الأنبياء 73. ومنها قوله –تعالى– في صيغة الأمر ﴿ إذ قال موسى لفتاه آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ الكهف 62. ومنها قوله –تعالى– في صيغة اسم الفاعل ﴿...والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة﴾ النساء162.

وما هو الشيء الذي آتاه الرسول ﷺ المؤمنين؟

يدخل في ذلك مال الفيء أي فيء بني النضير الذي وزعه الرسول ﷺ على المهاجرين، ولم يعط منه الأنصار إلا رجلين أو ثلاثة لشدة فقرهم، والسبب في تخصيص المهاجرين بهذا الفيء هو تعويضهم عن أموالهم وديارهم التي تركوها في مكة ليلتحقوا بالرسول ﷺ في المدينة المنورة .

والآية تفيد أن ما آتاه الرسول بعض القوم ينبغي أن يأخذوه وما نهاهم عن أخذه ينبغي أن يتركوه. وفي ذلك تطييب لخواطر الأنصار، وتنظيف لقلوبهم مما عساه أن يخامرها من حزازات. نتيجة لحرمانهم من مال الفيء.

والواقع أثبت طهارة قلوبهم وسمو نفوسهم.

والآية الكريمة كما تتناول مال الفيء لأنها ذكرت في سياقه تتناول أيضا كل الأوامر وكل النواهي التي تأتي من عند الرسول ﷺ وقرينة ذلك وورود النهي في مقابل الأمر.

والتعبير بالإيتاء عن الأوامر والنواهي الإلهية الآتية على ألسنة الرسل معهود في القرآن الكريم.

قال الله -تعالى- في خطابه لبني إسرائيل بواسطة رسول الله إليهم وهو موسى عليه السلام ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة...﴾ البقرة 63 .

والذي آتاه الله بني إسرائيل وأمرهم بأخذه بقوة هو التوراة المشتملة على الأوامر والنواهي.

وقد كان علماء الصحابة -رضوان الله عليهم- يفهمون من هذه الآية الأمر العام والنهي العام. فهذا سيدنا عبد الله بن مسعود يقول: "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق الله - تعالى- فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ﷻ فقالت: لقد قرأت مابين لوحي المصحف فما وجدته! قال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت قوله -تعالى-: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾؟ قالت: بلى قال: فإنه قد نهى عنه.

والذي يجب اعتقاده أن ما ثبت في سنة رسول الله ﷺ ثبوتا قطعيا إنما هو من عند الله الذي شهد لرسوله بأنه لا ينطق عن هوى في نفسه. قال تعالى في سورة النجم: ﴿**ما ضل صاحبكم، وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى...**﴾ 2-4 .

وأن طاعته ﷺمن طاعة الله ﷻ الذي يقول في حقه ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله...**﴾ النساء 80.

وبما أن السنة النبوية الصحيحة مستوحاة من عند الله -تعالى- فهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد المصدر الأول وهو القرآن الكريم، فكلاهما مرجع للمسلمين.

عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال:كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي، و لا آلو...(أي لا أقصر في اجتهادي) .

قال: فضرب رسول الله على صدرهأوقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله.

ومما يؤكد مرجعية السنة وحجيتها في الشريعة الإسلامية قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون**

لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾3، وقوله - تعالى- في سورة النساء:﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضية ويسلموا تسليما** ﴾65.

وقوله -تعالى- أيضا في سورة النساء ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا؟ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا..** ﴾ 60-61.

و مع هذه الأدلة الشرعية القطعية في ثبوتها ودلالاتها التي تؤكد أن ما جاء في السنة النبوية الصحيحة هو من عند الله نسمع عن طائفة نبتت في العالم الإسلامي وبالتحديد في لاهور بالباكستان، ثم انتشرت في العالم الإسلامي وغيره يدعي أصحابها الاكتفاء بما في القرآن الكريم، ولا حاجة تدعو إلى العمل بما في السنة ويطلقون على أنفسهم أنهم قرآنيون، أو أنهم أهل القرآن ويؤيدون سخفهم هذا باستدلالات لا تنطبق على زعمهم وشبهات مضللة تؤدي إلى هدم الإسلام من أساسه لو تركوا ورأيهم الفاسد.

ومن ذلك استدلالهم على ترك السنة النبوية بقوله -تعالى-:﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ الأنعام 38، وبقوله -تعالى-:﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**﴾ النحل89، ويتعامون عن قوله -تعالى- في القرآن أيضا ﴿ **وأنزلنا**

إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ النحل44، فالسنة مبينة للناس ما في القرآن من معان، وكاشفة عن مراد الله في آياته من أحكام، ومفصلة لما فيه من إجمال، ومخصصة لما فيه من عموم، ومقيدة لما فيه من إطلاق.

ومن شبهاتهم قولهم: إنا نجد في الأحاديث النبوية الموضوع والضعيف والصحيح فمن الأسلم واللائق أن نطرح الجميع، ونكتفي بالقرآن الذي لم يتطرق إليه الكذب!

وقد تنبأ رسول الله ﷺ بوجود هذه الطائفة في زمن مّا، من ذلك قوله ﷺ : **﴿إني أوتيت الكتاب و ما يعدله، يوشك شبعان على أريكته أن يقول: بيني وبينكم هذا الكتاب، فما فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه، ألا و إنه ليس كذلك﴾** رواه أبو داود و الترمذي وابن ماجة و غيرهم.

وقد حكم علماء الإسلام الأتقياء على هذه الطائفة التي تستبعد السنة النبوية، وتدعو إلى تركها بالزندقة والكفر. وادعاؤهم بأنهم قرآنيون ما هو إلا كلمة يراد بها خداع المغفلين.

وهنالك طائفة أخرى ظهرت آثارها السيئة في العالم الإسلامي أخطر من تلك الطائفة التي تحارب السنة النبوية

إنهم الذين يحاربون القرآن والسنة معا بدعوى العلمانية التي يتكئون عليها لمقاومة الانتماء الإسلامي.

وعلى سبيل المثال لا الحصر يقول القرآن الكريم – في معرض الحديث عما يجب على المرأة من آداب إزاء الأجانب عنها " **وليضربن بخمرهن على جيوبهن**" والخمر: جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها من اللباس. والجيوب: جمع جيب والمراد به هنا فتحة الفستان التي تدخل منها المرأة رأسها أو تخرجه. وضرب الخمار على الجيب يقصد به ستر الصدر والثديين و العنق بأطراف الخمار. ومعلوم أن ضرب الخمار إنما يكون فوق الرأس لتغطية شعره ثم يسدل على الأعضاء المذكورة.

واللام في "ليضربن" لام الأمر الدالة على الوجوب الذي يثاب فاعله ويعاقب تاركه.

ومعنى الآية أن الله تعالى يأمر المرأة المسلمة بأن تستر صدرها و عنقها بخمارها.

والحكمة من وراء ذلك أن تحمي المرأة المسلمة نفسها من عيون الفساق وألسنتهم وتتبعهم، وأن توحي لهم بحجابها الشرعي أنها شريفة لا شأن لها بجلب أنظار الرجال إليها، ولا باستهواء قلوبهم نحوها.

وذلك هو مصداق قوله -تعالى-: ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك و بناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وكان الله غفورا رحيما**﴾ الأحزاب 59.

ففي هذه الآية إشارة لما كان عليه العرب من احترام للمرأة الحرة، أما المرأة المملوكة-وهي الأمة- فكان الفساق يتعرضون لها بالكلام القبيح ويؤذونها ولا يتحرجون من ذلك وكانت النساء في المدينة يخرجن لقضاء حاجتهن البشرية ليلا فيقع الالتباس بين الحرة والأمة، فميز الله -تعالى- الحرائر بهذا الحجاب الشرعي الذي يعرفن به فلا يتعرض لهن أحد بالإيذاء.

وهذا ما يقوله القرآن العظيم في مسألة الحجاب الشرعي الذي يرمز إلى العفة والطهارة وعلو الهمة.

ومما يروى في هذا الموضوع عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن أسماء بنت أبي بكر الصديق دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه.

ومع هذين النصين في الكتاب والسنة ونظائرهما من النصوص الصريحة القطعية في ثبوتها ودلالاتها تمنع في بعض البلاد الإسلامية طالبة العلم من الدخول إلى الجامعة إلا إذا كشفت محاسنها أو مفاتنها للذئاب البشرية المسعورة....

ولا يسمح للمرأة المتحجبة بالعمل في بعض الإدارات إلا إذا نزعت حجابها الذي يرمز إلى الطهر والعفاف ويصرف عنها العيون الهابطة إلى مستنقع

القذارة والنذالة مما ييسر للمنحرفين والمنحرفات أن يحوّلوا بعض الجامعات العلمية إلى بؤر للرذائل الخلقية والعياذ بالله.

وأساطين العلمانية المتعصبون حين يحكمون على طالب العلم أو طالبته بالتجرد من كل شعار يرمز إلى عقيدته أو انتمائه لحضارته فحكمهم هذا مفهوم بالنسبة لوطن يسكنه شعب متعدد العقائد والأعراف والأجناس.

أما وطن يسكنه شعب كله مسلم فليس من المنطق أن يفرض عليه ما يفرض على شعوب أخرى يوجد فيها التعدد المذهبي أو الديني.

ولذلك لا نلوم الذين يتهمون هؤلاء العلمانيين باتخاذ العلمانية وسيلة لمقاومة تعاليم الإسلام، وتهميش قوانينه من الحياة المدنية.

والعلمانيون يملئون الآذان بأنهم ديمقراطيون! وهل من الديمقراطية أن يجبروا فتاة مسلمة أو امرأة مؤمنة على نزع لباس أمرها به دينها؟ وهل أضرت أحدا بهذا اللباس؟

ولكنه التقليد الأعمى للأجانب، الذين يشرعون لأنفسهم ما تمليه عليهم أهواؤهم والعياذ بالله.

قوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهَّ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(8)﴾

التفسير:

للفقراء: بدل من المصارف الأربعة الذين استحقوا مال الفيء وهم ذوو القربى و اليتامى والمساكين وابن السبيل. أي مال الفيء للفقراء من هؤلاء.

وفائدة البدل: أ- مدح المهاجرين على هجرتهم من دار الكفر "وهي يومئذ مكة"، إلى دار الإيمان، وهي المدينة المنورة بعد أن انتشر فيها الإيمان.

ب- والتنويه بخروجهم من ديارهم وأموالهم راجين فضل الله عليهم، وهو ما يرزقهم به مستقبلاً، ورضواناً أي رضاء تاما من ربهم في الدنيا والآخرة والآخرة.

ج- والإشادة بتحملهم المشاق في سبيل نصر الإسلام بالجهاد مع رسول الله ﷺ.

ونظير هذا التركيب اللفظي في كلامنا، أن يقول القائل مثلاً: تمنح الجوائز لطلاب العلم "هكذا بصيغة التعميم". ثم يخصص طائفة منهم بأسلوب: بدل البعض من الكل فيقول: ... للمتفوقين منهم الذين واصلوا العمل ليلاً ونهاراً من أجل التحصيل العلمي الذي ينفعون به أمتهم...

ثم ذُيِّلت الآية بجملة فيها معنى الحصر المستفاد من توسط ضمير الفصل "هو" بين المبتدأ و الخبر، فصدق الإيمان محصور فيهم أي كأن صدق الآخرين لا يعتد به إذا قورن بصدقهم الذي برهنوا عليه بعظم أفعالهم بخلاف المقصرين أو المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وقد أخبر الله عنهم في القرآن الكريم بقوله : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون...﴾ القرة 8-10.

وقد أشاد الله –تعالى- بأولئك المهاجرين في غير ما آية من القرآن الكريم، منها قوله –تعالى-: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند اله، وأولئك هو الفائزون﴾. ويطلعهم على جزائهم عنده بقوله: ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدا، إن الله عنده أجر عظيم﴾التوبة 20-22، ومنها قوله – تعالى- :﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا، ثم جاهدوا وصبروا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ النحل 110.

وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة قبل الفتح شرطاً في الإسلام لا بد منه إلا أصحاب الأعذار المقبولة فقد أعفاهم الله منها كما جاء في كتابه الكريم: ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في

الأرض. قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيرا، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله غفوراً رحيما، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ النساء: 96-98.

ومما يروى في هذا المقام أنه لما أنزلت على الرسول ﷺ هذه الآيات بعث بها إلى مكة، فتليت على المسلمين الذين كانوا فيها إذ ذاك فسمعها رجل من بني ليث، وهو شيخ كبير مريض، فقال: والله ما أنا ممن استثنى الله، فإني لأجد حيلة، ولي من المال ما يبلغني إلى المدينة وأبعد منها، والله لا أبيتن في مكة، أخرجوني فخرجوا به على سرير حتى أتوا به التنعيم، فأدركه الموت، فصفق بيمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك رسولك. ثم مات، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم و أوفى أجرا و ضحك منه المشركون، وقالوا : ما أدرك ما طلب، فنزل قوله -تعالى-: ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ النساء 99، عن حاشية الشيخ أحمد الصاوي على تفسير الجلالين.

وقد استنتج العلماء من هذه الآية الكريمة أن من قصد أي طاعة، ثم عجز عن إتمامها يكتب له ثوابها بناء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد جاء في الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ " **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**". قال ابن كثير : وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال.

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله فخر عن دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله"**. وقال الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " من خرج حاجاً فمات كتب له اجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة".

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(9)﴾

التفسير

بعد أن مدح الله -تعالى- المهاجرين في الآية الثامنة بتلك الخصال العظيمة، مدح الأنصار بما ذكر في الآية التاسعة.

وهل هذه الآية معطوفة على الآية السابقة، أو مقطوعة عنها؟ احتمالان، الله أعلم بأصحهما.

وعلى احتمال العطف فقوله -تعالى- "والذين تبوءوا " معطوف على الاسم المجرور قبله، وهو قوله -تعالى- "للفقراء" أي مال الفيء للفقراء المهاجرين، والذين تبوءوا الدار والإيمان. وعلى هذا التأويل فجملة "يحبون..." في محل النصب على الحال. وعلى احتمال القطع فاسم الموصول وهو "الذين" مبتدأ خبره جملة جملة: يحبون.."

ولكن الذي يهمنا نحن معشر المسلمين أن نعلم الخصال التي مدح الله بها المهاجرين والأنصار لنقتدي بهم فيها، فننال شيئا مما نالوه من عند ربهم، وفقنا الله إلى ذلك.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾

التبوء المستفاد من الفعل الماضي"تبوأ" معناه النزول في مكان ما واتخاذه مباءة أي منزلا يبوء إليه صاحبه في كل مرة. والدار التي تبوأها الأنصار قبل المهاجرين هي المدينة المنورة وتبوؤ الدار "وهي مكان" مفهوم، لكن تبوء الإيمان "وهو معنى" يحتاج إلى تأويل، ولذلك تعددت فيه إجابات العلماء.

إحداها أن لفظ الإيمان ليس منصوبا بفعل " تبوأ " ولكنه منصوب بفعل مقدر تقديره "أخلص" أي أخلصوا الإيمان على حد قول أحد العرب "علفتها تبنا وماء باردا " أي و سقيتها ماء، وعلى حد قول الآخر: تقلد سيفا ورمحا أي و أمسك رمحا.

وثانيها: أن فعل تبوأ ضمن معنى "لزم" أي لزموا الدار والإيمان.

و ثالثها: أن الإيمان لشدة تمكنه من قلوبهم كأنه حصن يحويهم.

و رابعها: أن لفظ "الإيمان" مفعول معه أي تبوءوا الدار مع الإيمان على حد قول العرب استوى الماءِ والخشبةَ وعلى حد قوله –تعالى-:﴿...**فأجمعوا أمركم وشركائكم**﴾ يونس 71 ، أي مع شركاءكم.

والجار والمجرور من قبلهم متعلقان بفعل " تبوأ " أي تبوءوا الدار من قبل هجرة المهاجرين إليها.

"يحبون من هاجر إليهم" إخبار من الله ﷻ عن الحب الصادق من الأنصار للمهاجرين على خلاف المعتاد عند الناس وهو أن الضيف النازل عند المضيف إذا تجاوز أياما معدودة عنده فإنه يتضايق منه ويود رحيله عنه.

وكان لهذا الحب الصادق آثارٌ رائعة في واقع الناس منها ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال للأنصار: إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم فقالوا: أموالنا بيننا قطيعة، فقال رسول الله ﷺ أو غير ذلك؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم، وتقاسمونهم الثمر، فقالوا نعم يا رسول الله.

وقد أغدق الأنصار على المهاجرين من الإحسان ما جعل المهاجرين يلهجون بالثناء عليهم، والاعتراف بفضلهم لرسول الله ﷺ قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير!! لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ[1]، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال ﷺ:" لا. ما أثنيتم عليهم، ودعوتم لهم" رواه أحمد عن أنس.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾

ضمير الجماعة في يجدون عائد إلى الأنصار. وضمير الجماعة في أوتوا عائد إلى المهاجرين. وهو نائب فاعل .. والفاعل للإيثار هو الرسول ﷺ.

---

[1] – المهنأ: ما يحصل عليه الإنسان من طعام وغيره بلا مشقة.

وماذا أعطى رسول ﷺ للمهاجرين؟

أعطاهم فيء يهود بني النضير. دون الأنصار إلا ثلاثة منهم لشدة فقرهم.

والمعنى أن الأنصار لم يجدوا في أنفسهم حزازة وحسدا وغيظا من أجل إعطاء مال بني النضير للمهاجرين دونهم ومن دلائل ما أخبر عنه المولى جل وعلا عن الأنصار ما روي أن المهاجرين كانوا في دور الأنصار، فلما غنم ﷺ أموال بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم منازلهم، و إشراكهم إياهم في الأموال، ثم قال ﷺ: إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير، بينكم وبينهم وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكن في مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا فقال ﷺ :" **اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار**" وأعطى رسول الله ﷺ المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلا الثلاثة المتقدم ذكرهم.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

الإيثار المفهوم من يؤثرون: تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الدينية. والخصاصة شدة الاحتياج.

والمعنى أن الله تعالى مدح الأنصار بتفضيلهم إخوانهم المهاجرين على أنفسهم في كل شيء ولو كانوا في أشد الحاجة إلى هذا الشيء ومن إيثارهم المهاجرين ما روي في الصحيح أن النبي ﷺ دعا الأنصار ليقطع لهم قطائع بنخل البحرين فقالوا: لا. إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها.

ومن إيثارهم ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل في نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الأنصار وهو أبو طلحة فقال أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ: "لا تدخريه شيئا، فقالت: والله ما عندي شيء إلا قوت الصبية قال فإن أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، فإذا دخل الضيف، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج ترى كأنك تصلحينه فأطفئيه وأريه أننا نأكل فقعدوا وأكل الضيف فلما أصبحوا غدا على النبي ﷺ فقال: قد عجب الله ﷻ من صنعيكما بضيفكما الليلة!

ومما يروى عن الإيثار الذي كان شائعا في المهاجرين والأنصار أنه أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات، ثم عادت إلى الأول.

وفي موطأ الإمام مالك انه بلغه عن عائشة زوج النبي ﷺ أن مسكينا سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه، فقالت ليس لك ما تفطرين عليه. فقالت أعطيه إياه، قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي لنا: شاة وكفنها فدعتني عائشة فقالت: كلي من هذا، فهذا خير من قرصك...

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن عند تفسيره لهذه الآية: قال علماؤنا: هذا من المال الرابح والفعل الزاكي عند الله –تعالى– يعجل منه ما يشاء، ولا ينقص من ذلك مما يدخر منه، ومن ترك شيئا لله لم يجد فقده. وعائشة ﷺ، في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة، وأن من فعل ذلك فقد وقي شح نفسه، وأفلح فلاحا لا خسارة بعده.

ومعنى "شاة و كفنها" فإن العرب أو بعض العرب أو بعض وجوههم كان هذا من طعامهم يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غطوه كله بعجين البُر، وكفنوه به، ثم علقوه في التنور، فلا يخرج من وركه شيء إلا في ذلك الكفن، وذلك من طيب الطعام عندهم. انتهى.

وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة، ثم قال للغلام: اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلكأ ساعة في البيت تنظر ما يصنع بها

فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجاتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، وقال اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتلكأ -انتظر- في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجاتك، فقال رحمه الله و وصله، وقال يا جارية، اذهبي بكذا إلى بيت فلان، وبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن مساكين فأعطنا، ولم يبق في الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر عمر بذلك وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

هذا غيض من فيض مما يتعلق بإيثار الغير بالمال أما إيثار الغير بالنفس فحدث و لا حرج.

ومن أروع ما أنقله هنا ما جاء في الصحيح: أن أبا طلحة ترّس على النبي ﷺ يوم أحد، وكان النبي ﷺ يتطلع ليرى القوم فيقول له أبو طلحة: لا تُشرف يا رسول الله ..لا يصيبوك، نحري دون نحرك، ووقى بيده رسول الله ﷺ فشلت.

وقال حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي لي ومعي شيء من الماء، وأنا أقول إن كان به رمق سقيته فإذا أنا به فقلت له: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول آه آه. فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فسمع آخر يقول: آه آه.

فأشار هشام أن أنطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

يوق فعل مضارع مجزوم بـ"من" الشرطية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة. الذي هو الألف.

والفعل مبني للمجهول، وهو من قول العرب: وقاه يقيه وقاية: إذا حفظه ومنعه من شيء يضره.

ومن ذلك قوله -تعالى- :﴿**فوقاهم الله شر ذلك اليوم**﴾ الإنسان11 .

والشح بضم الشين وكسرها غريزة في النفس تجعل المتصف بها يحرص على ما عنده أشد ما يكون الحرص، و يجد صعوبة في بذل الخير لمستحقيه.

وقد يبلغ به الشح أن يطمع فيما عند الآخرين مما ليس له فيه حق، كما قال ابن عمر –**رضي الله عنهما**- "ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشح أن تطمع عين الرجل فيما ليس له".

وهو بهذا المعنى يختلف عن البخل الذي هو مجرد الإمساك عن البذل.

الآية تدل على أن الشح صفة راسخة في النفس أودعها الله فيها ومثلها في ذلك قوله –تعالى: ﴿..**وأحضرت الأنفس الشح**﴾ النساء 128 .لذلك لا يتخلص الإنسان منه، ومن آثاره السيئة إلا بمجاهدة النفس ومكابدتها.

والآية الكريمة تنادي بأن الشح من الأخلاق المذمومة التي يجب على المؤمن أن يتطهر منها. وقد قال ﷺ فيما رواه النسائي "لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا"، أخرج أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: "**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، و اتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش والتفحّش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**".

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال"**شر ما في رجل شح هالع وجبن ضالع**".

والمفلحون: جمع المفلح وهو الفائز الذي ينال ما يرغب فيه.

وجملة " أولئك هم المفلحون" جملة قصرية، أي كأن الفلاح مقصورٌ على هؤلاء الذين وقاهم الله جل و علا شح أنفسهم. و الذي أفاد القصر توسط ضمير الفصل "هو" بين المبتدأ وخبره.

وتذييل الكلام بقوله –تعالى-:**﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** يوحي بأن إيثار الأنصار إخوانهم المهاجرين على أنفسهم دليل على أن الله تعالى وقاهم شح أنفسهم.

قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(10)﴾

شرح المفردات:

الذين جاءوا من بعدهم: هم المؤمنون الذين خلفوا المهاجرين والأنصار، وساروا على نهجهم.

اغفر: فعل يراد به الدعاء للسابقين واللاحقين بالغفر أو الغفران فمعنى غفر الله ذنب فلان: ستره فلم يؤاخذه عليه، ولم يكشفه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

الغِل: بكسر الغين – انطواء القلب على الحقد والحسد والغش.

رءوف: صيغة من صيغ المبالغة على وزن " فعول" تدل على كثرة الرأفة.

رحيم: صيغة من صيغ المبالغة - أيضا - تدل على كثرة الرحمة، وتفسير الرحمة -بالنسبة للإنسان- هي رقة وحنان في القلب يدفع صاحبه إلى مساعدة المحتاج، واللطف به.

وتفسيرها بالنسبة لله ﷻ هي الإحسان إلى مخلوقاته وإيصال الخير إليهم. لأن الله - تعالى- منزه عن الانفعالات التي هي من خصائص البشر

و الرأفة هي شدة الرحمة: فهي أبلغ منها.

شرح المعاني:

الواو في " والذين " فيها احتمالان كالاحتمالين المذكورين في جملة : **"والذين تبوءوا..."**

وقد مدح الله -تبارك وتعالى- في الآيتين السابقتين (الثامنة والتاسعة) المهاجرين والأنصار بما أتوا به من خصال، وفي الآية العاشرة أثنى على الذين جاءوا من بعدهم وهم التابعون وتابعو التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة ومناط مدح التابعين هو:

أ- أنهم يستغفرون الله لأنفسهم ولإخوانهم الذين سبقوهم إلى الخير، والإسلام كله خير.

ب- أنهم يدعون الله ﷻ ألاّ يجعل في قلوبهم غلا وحقدا للذين آمنوا - سواء المتقدمون منهم والمصاحبون لهم- وهذا الدعاء من التابعين للمتبوعين دليل

على حبهم لإخوانهم السابقين، هذا الحب الذي يربط بين الأجيال السابقة واللاحقة، ويجعل منهم قوة متراصة منسجمة تستعصي على كل من يريدها بسوء، أو يحاول إيقاف رسالتها التي شرفها الله بها لتنشرها في الأرض.

و يستفاد من الآية الكريمة أن الله -تعالى- يحبب إلينا دعاءه و هاهو الرسول ﷺ يقول -فيما رواه أحمد عن النعمان بن بشير- " إن الدعاء هو العبادة" ثم قرأ: "**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**".

كما يستفاد منها أن الغل لا ينبغي أن يسكن قلب المؤمن. عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: "**قيل يا رسول الله، أي الناس أفضل، قال: كل مخموم القلب، صدوق اللسان، قالوا: نعرف صدوق اللسان فما مخموم القلب؟ قال: كل تقي نقي لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل ولا حسد** " رواه ابن ماجة والبيهقي.

واستغفار التابعين لمتبوعيهم ودعاؤهم ألا يجعل الله حقدا في قلوبهم لإخوانهم دليل على اعترافهم بالفضل لمن سبقهم، والاعتراف بالفضل لأهله من الأخلاق السامية الرفيعة الدالة على سلامة الفطرة، ونقاوة السريرة.

قال ﷺ :"**من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له**"، وهل هنالك معروف أسداه إلينا سلفنا أعظم من حملهم العقيدة الإسلامية إلينا

مع ما لاقوه في سبيل إيصالها إلينا من مشاقّ جسيمة وتضحيات مضنية وذلك لنسعد نحن وإياهم في الدنيا والآخرة. فجزاهم الله خيرا.

والآية الكريمة توجهنا إلى حب المهاجرين والأنصار واحترامهم والكف عن ذكرهم بالسوء من القول كفاء إحسانهم إلينا وقد حذر النبي ﷺ من إيذائهم والانتقاص من قدرهم وقد قال فيما قال- وقد سمع من يذم بعضهم- " **دعوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه** " أخرجه البخاري وجاء في سنن الترمذي ومسند أحمد عن عبد الله بن معقل. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:" **الله، الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه** ".

ويروى أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع رجلا يسب مهاجرا (هو عثمان رضي الله عنه) فقرأ عليه:" **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾** وقال: **أأنت منهم؟** قال :لا.فقرأ عليه :**﴿و الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة﴾** وقال هؤلاء الأنصار أأنت منهم؟ قال :لا .

وقرأ عليه ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ وقال: أأنت منهم ؟ قال: أرجو أن أكون منهم. قال: لا والله ليس من هؤلاء من سب هؤلاء.

ويروى عن جابر ﷺ أنه قيل لعائشة ﷺ إن ناسا يتناولون الصحابة حتى أبا بكر وعمر، فقالت:وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل، وأحب الله ألا ينقطع عنهم الأجر.

ومما يحز في نفس كل مؤمن نظيف الفكر سليم العقيدة في هذه الأمة الإسلامية أن فرقا فيها تدعي الإسلام لكنها لا تتورع عن سب الصحابة وتجريمهم و الحط من قدرهم كغلاة الشيعة -مثلا- الذين يخطئون سادة هذه الأمة أبا بكر الصديق، و عمر الفاروق، وعثمان ذا النورين، وعائشة أم المؤمنين، وكالخوارج الذين يخطئون عليا بن أبي طالب بل ويكفرون غيرهم من صحابة رسول الله ﷺ الذين أبلوا البلاء الحسن في ترسيخ العقيدة الإسلامية في الأوطان ومحاربة المناوئين لها من ذوي الطغيان.

وإن ننس فلا ننس -بهذه المناسبة- الفرق الضالة التي مرقت من الإسلام، وأصبحت أداة طيعة في أيدي الأعداء من صليبيين وصهيونيين لضرب الإسلام باسم الإسلام وذلك بمحاولة تغيير معالمه، وتشويه شرائعه، و الطعن في علمائه.

كالقاديانية والبهائية وما إليهم. من الفرق التي أنشأها وما زال يرعاها ويشجعها المحتلون الأجانب بغرض تطويع المسلمين لقبول احتلال بلادهم ونهب خيرات أوطانهم، اللهم ادفع شرهم عنا، ولا تؤاخذنا بما يفعله السفهاء فينا

وقد يتساءل البعض فيقول إن التابعين لم يكونوا حاضرين في المدينة المنورة حين نزول الآية التي تعنيهم فكيف صح التعبير عنهم بصيغة الماضي "جاءوا" عوض "يجيئون" بصيغة المضارع الدال على المستقبل؟

والجواب أنهم كانوا –ومازالوا- حاضرين في علم الله الذي لا يتقيد بزمان ولا مكان، فالماضي والحاضر والمستقبل سواء بالنسبة لعلم الله ﷻ. بخلاف علم البشر المحدود بالزمان والمكان.

وإذا كان الله -تعالى- قد أثنى في هذه السورة على المهاجرين والأنصار والذين جاءوا من بعدهم فقد أخبرنا في سورة التوبة برضاه عنهم، وبما أعده لهم في جنات النعيم، فقال:﴿... **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم، و رضوا عنه، و أعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم**﴾100.

وهكذا يتبين لنا من خلال القرآن الكريم أن المسلمين أصناف ثلاثة، مهاجرون، وأنصار (وقد مضوا) وتابعون لهم بإحسان وهم الذين جاءوا من بعدهم إلى يوم القيامة.

وفي ذلك إشارة إلى الترابط الأخوي الذي يجب أن يكون بين الأجيال السابقة، والأجيال اللاحقة، ذلكم الترابط الذي يقتضي الحرص على معرفة التاريخ الإسلامي، وما زخر به من أحداث..

وقوله -تعالى- حكاية لدعاء التابعين : ﴿**ربنا إنك رءوف رحيم**﴾ هي جملة تعليلية ختم بها الداعون دعاءهم أي استجب يا الله دعاءنا لأنك رءوف رحيم بنا و بمن سبقنا.

ومما يلاحظ في القرآن الكريم أن الله -تعالى- تارة يصف نفسه بالرأفة والرحمة معا كما في هذه الآية وغيرها، وتارة يصف نفسه بالرأفة وحدها كما في قوله -تعالى- : ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد**﴾ البقرة207. وتارة يصف نفسه بالرحمة فقط كما في قوله -تعالى- ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيما**﴾. الأحزاب43.

.وسبحان الذي يضع كل كلمة في مكانها المناسب.

وقد يتساءل الإنسان أين نجد مظاهر رأفة الله بعباده و رحمته بهم؟

والجواب أنها من الكثرة بحيث لا تحصى.

ومنها مضاعفة الحسنات، وعدم مضاعفة السيئات .

قال الله -تعالى- في سورة الأنعام : ﴿**من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون**﴾160، وقد تضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف أو أكثر كما جاء في قوله -تعالى- :﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾ البقرة 161.

ومنها أن كل ما خلقه الله -تعالى- في الأرض هو من أجل بني آدم. قال الله -تعالى- في سورة البقرة:﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا**﴾29. و نجد تفصيل ذلك في ثنايا القرآن الكريم قال الله -تعالى- في سورة النحل: ﴿**والأنعام خلقها لكم، فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرءوف رحيم...**﴾5-7.

ويقول الله-تعالى- في السورة نفسها ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾78.

وقد يتساءل الإنسان فيقول وهذه العقوبات القاسية التي أوجبها الله -تعالى- على قاتل أخيه عمدا وعلى السارق وعلى قطع الطريق على المسافرين من أجل غصب أموالهم وعلى القاذف لغيره بدون بينة هل تتفق مع رأفة الله بعباده ورحمته بهم؟ والجواب السريع : نعم.

فالله ﷻ يريد أن يتحقق الأمن الشامل بين جميع الناس بحيث يأمن الإنسان على نفسه فلا يتعرض للقتل ويأمن على ماله فلا يتعرض للسرقة، ويأمن على عرضه فلا يتعرض للتهم، ويأمن على دمه وماله حين يسافر من بلد إلى بلد. لذلك أوجب القصاص في القتل العمد والقطع ليد المعتدين والجلد لمن يقذف غيره بفاحشة بدون بينة وخيّر إمام المسلمين بين قتل قطّاع الطريق أو صلبهم أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم من الأرض فهذه العقوبات ظاهرها قسوة ونتائجها رحمة ورأفة ورحم الله من قال:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما *** فليقس أحيانا على من يرحم.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(11)﴾

التفسير:

تمهيد: بعد أن ذكر الله ﷻ أحوال يهود بني النضير وما جرى لهم، وبين أحكام الفيء المأخوذ منهم ومن غيرهم من أهل القرى أعقب ذلك بكشف

أحوال المنافقين، والتعجيب من تعاونهم السري مع أعداء الإسلام والمسلمين من اليهود.

شرح الألفاظ:

"ألم تر": هي جملة مصدرة بهمزة الاستفهام، بعدها حرف نفي وهو "لم" فالاستفهام فيها تقريري.

والرؤية –هنا– المفهومة من " تر": رؤية علمية، أي ألم تعلم؟

وفي ذلك تحريض للمخاطب على العلم بأحوال المنافقين. ومن هو المخاطب في هذه الآية إنه النبي ﷺ وكل من يتأتى مخاطبته.

والغرض من الاستفهام التقريري –هنا– التعجيب أي اعلم وتعجب من سلوك هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون بنبوتك ورسالتك الإلهية، ومع ذلك يتآمرون عليك مع أعدائك ويشجعون اليهود على عدم طاعتك، والامتثال لأمرك.

"نافقوا":استعملوا النفاق. والنفاق بمعناه اللغوي العام إظهار شيء وإخفاء غيره. ومنه نافق اليربوع، وهو أن يحفر جحرا تحت الأرض، ويجعل له فتحتين الأولى ظاهرة سميت " القاصعاء" والثانية مخفية سميت "النافقاء" أوالنفقة بوزن "الهمزة". ومن حيله أنه يترك الفتحة المخفية مغطاة بطبقة رقيقة

من التراب حتى إذا دخل عليه حيوان مؤذ أسرع إلى تلك الطبقة المخفية الرقيقة فضربها برأسه فتنفتح فيمرق منها ويهرب.

والمراد بالمنافق في الآية: الذي يظهر الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ ويشهد بلسانه أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويأتي بأعمال الإسلام، لكنه يخفي الكفر بذلك في قلبه، فهو يشبه اليربوع في إظهار شيء وإخفاء شيء آخر.

و"الذين نافقوا" هم جماعة من العرب المشركين الذين استوطنوا المدينة وما حولها وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، ومنهم عبد الله بن نبتل، ورفاعة...

وإخوان المنافقين هم الذين كفروا من أهل الكتاب وهم يهود بني النضير.

والأخوة التي كانت تربط بين المنافقين وأولئك اليهود ليست أخوة نسب ولكنها أخوة كفر وحقد على الإسلام ومن جاء به.

وبما أن التاريخ يعيد نفسه -كما يقال- في بعض القضايا فإن ما يحدث الآن، وما حدث للفلسطينيين منذ أن احتل اليهود الصهيونيون بلادهم ظلما وعدوانا بتأييد خفي من بعض حكام العرب المنافقين -يذكرنا ذلك بما كان يحدث في زمن رسول الله ﷺ من تآمر بين منافقي العرب واليهود على محق الإسلام وأهله، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون.

وهاهم الحكام الصهيونيون يفضحون عملاءهم من العرب المتآمرين معهم على غزة وأهلها، ويعلنون أنهم تلقوا الضوء الأخضر -أيضا- من بعض حكام العرب للقضاء على المقاومة الإسلامية في غزة والإسراع بذلك حتى لا تقوم لها قائمة. بقطع النظر عما يصيب الأبرياء من البلاء العظيم المتمثل في القتل الفظيع للناس لا فرق بين شيبهم وشبابهم ونسائهم وأطفالهم وقد تجاوز عدد الشهداء حتى كتابة هذا الدرس ألفا وثلاثمائة وفاق عدد المجاريح خمسة آلاف وخمسمائة وتقدر المساكن الساقطة على أهلها بالآلاف.

ويضاف إلى هذه المصائب المتوالية منع الغذاء والدواء والوقود وقد اضطر الأهالي إلى المكث في العراء ليلا ونهارا في هذا البرد القارس في فصل الشتاء، وفي هذا الجو المرعب من جراء القصف الجهنمي حتى بالقنابل المحرم استعمالها دوليا وهل لبني إسرائيل حدود لقسوتهم وكراهيتهم للمسلمين؟

وها هو الله ﷻ يخاطبهم بما توارثوا عن أسلافهم بقوله في سورة البقرة ﴿...**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشد قسوة**﴾.

وقد يتساءل الإنسان: لم هذه القسوة في قلوب اليهود على غيرهم؟ وخاصة على المسلمين. ولم هذا الولع بسفك دماء الأبرياء، وانتهاك الحرمات، والاستهتار بالقوانين الإلهية والبشرية، والاستعلاء على الناس أجمعين؟

والجواب أن ذلك ناشئ عن معتقداتهم الدينية الفاسدة بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأن الله وعد يعقوب ألا يعذب أبناءه، ومن ثم يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم، ويحق لهم ما لا يحق لغيرهم، وأن تكون لهم السيادة المطلقة على بني آدم يتصرفون معهم تصرف الأسياد مع عبيدهم.

وقد فند الله -تعالى- معتقداتهم الفاسدة بأن ذكر مقالتهم عن أنفسهم مع مقالة النصارى ثم زيفها، وذلك هو قوله تعالى في سورة المائدة من القرآن الكريم ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل: فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾18، واليهود يعترفون بهذا التعذيب الإلهي لهم، ولكن يدّعون أنه لا يتعدى أياما قليلة، كما حكاه الله عنهم في سورة البقرة ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة** ﴾ ويأتي الرد عليهم بقوله -تعالى-: ﴿ **قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون؟ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ 80-81.

ومثل هذه الآية قوله -تعالى- في سورة آل عمران ﴿... **ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون...**﴾24.

ومن افتراءاتهم أنهم أحباء الله، والحبيب لا يعذب محبوبيه تعذيبا دائما وشديدا.

والراجح أن الأيام المعدودات التي يعنيها اليهود هي الأربعون يوما التي عبد فيها أسلافهم العجل الذي صنعه لهم السامري في غياب نبي الله موسى عليه السلام.

ومن الافتراءات التي يلقنها حاخامات اليهود قومهم: " اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وهم من عنصر الله كما الولد من عنصر أبيه ، فمن يصفع اليهودي كمن يصفع الله.

ومن ذلك قولهم " حينما يطلب الله من سائر الأمم الخضوع للقوانين الخاصة بالعدل والفضيلة فإن القوانين لا تنطبق على اليهود".

ومن ذلك قولهم: "قتل ألفي مدني من العدو أفضل من نزع شعرة من رأس جندي يهودي".

ومن ذلك قولهم:" إن قتل اليهودي لغير اليهودي لا يعتبر جريمة".

ومن ذلك قولهم: إن قتل العرب الأبرياء بغرض الانتقام يعتبر فضيلة يهودية".

ومن ذلك قولهم عن الأقوام الآخرين حين يتغلبون عليهم " امحقوهم عن آخرهم، أبيدوا حرثهم ونساءهم".

﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم﴾

هذه الجملة والتي بعدها هي جملة مقول القول "يقولون" واللام في "لئن" وفي "لنخرجن" هي اللام الداخلة على جواب القسم المحذوف. تقديره -مثلا- والله لئن أخرجتم والله لنخرجن معكم.

والإخراج: إنما هو من المدينة المنورة.

وفعل أخرج مبني للمجهول. وفاعل الإخراج المحذوف من الكلام هو النبي -ص- وأصحابه. ومعنى الجملة أن المنافقين حلفوا لليهود أنهم إذا أجبرهم محمد على الخروج من المدينة طردا لهم منها يخرجون معهم نصرة لهم.

﴿ ولا نطيع فيكم أحدا أبدا﴾

أي أن المنافقين أخبروا أصدقاءهم من اليهود أن أي أحد من محمد وأتباعه يأمرنا بخذلانكم وترككم تخرجون وحدكم لا نطيعه فيكم أبدا فكونوا مطمئنين.

﴿وإن قوتلتم لننصركم﴾

أي إن قاتلكم محمد وأتباعه نقسم لكم بالله أن ننصركم عليهم. ونمنعكم

منهم.

﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾

يشهد بمعنى يخبر: أي يخبر الله ﷻ ويعلن أن هؤلاء العرب المنافقين كاذبون في دعاويهم لليهود بأنهم يخرجون معهم من المدينة إن أخرجوا منها، وينصرونهم.

و قد ظهر للناس صدق الله -تعالى- فيما أخبر به عن المنافقين في حقيقة أمرهم، كما توضحه الآية التالية.

قوله تعالى:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ(12)﴾

﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ﴾

هذه الآية الكريمة جاءت تفصيلا لما ذيلت به التي قبلها أي قوله -تعالى-: **﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾**

فجملة " لئن أخرجوا..." رد لقولهم" لئن أخرجتم.." وجملة "لئن قوتلوا.." تكذيب لقولهم " وإن قوتلتم .." وجملة "ولئن نصروهم " تتميم لتكذيبهم.

واللام في "لئن" في الجمل الثلاث هي لام القسم المحذوف تقديره -مثلا- " تالله لئن أخرجوا .." وفعل "أخرج" مبني للمجهول. والفاعل المجهول أي غير المذكور في الكلام هو المؤمنون بقيادة النبي ﷺ.

وضمير الرفع وهو الواو في "أخرجوا" يعود إلى اليهود.

والمعنى أن الله –تعالى- أقسم على أن المؤمنين إذا أخرجوا اليهود من ديارهم بالمدينة لا يخرج معهم المنافقون على خلاف ما وعدوهم به.

وقد أظهر الواقع ما أخبر الله به فلم يخرج المنافقون مع اليهود حينما أخرجوا.

﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾

ضمير الرفع –وهو الواو في قوتلوا– عائد إلى اليهود.

والواو في "ينصرونهم" عائد إلى المنافقين و الهاء ضمير عائد إلى اليهود.

والمعنى أن الله ﷻ أقسم على أن المنافقين لا ينصرون اليهود إذا نشب بينهم وبين المؤمنين قتال، وكذالك كان ...

﴿و لئن نصروهم ليولّن الأدبار، ثم لا ينصرون﴾

ضمير الرفع وهو الواو في نصروهم عائد إلى المنافقين، أما ضمير النصب وهو الهاء فهو عائد إلى اليهود.

ونصر المنافقين لليهود في هذا المقام إنما هو على الفرض والتقدير وليس نصرا فعليا.

و"يولّنّ": فعل مضارع. وهو من الأفعال الخمسة، مؤكد بنون التوكيد الثقيلة. وقبل توكيده كان "يولون" ولما دخلت عليه نون التوكيد صار "يولونن" فالتقى ثلاث نونات: نون الرفع، ونون التوكيد التي هي في الحقيقة نونان أدغمت إحداهما في الأخرى، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فالتقى ساكنان هما الواو والنون المدغمة فحذف السابق منهما وهو الواو، حسب القاعدة النحوية المشهورة (إذا التقى ساكنان حذف السابق منهما).

و"الأدبار": جمع مفرده دبر (بضم الدال و الباء) أو "دبر" بسكون الباء.

وأصل كلمة الدبر مؤخر الشيء، وضده القبل، ومنه قوله –تعالى-: ﴿... **ويولّون الدبـر**﴾ القمر45. والمراد بالأدبار –هنا- ظهور المقاتلين.

وتولية الأدبار: كناية عن هزيمة المقاتلين لأن المنهزمين يعطون ظهورهم للغالبين في حال فرارهم وملاحقة عدوهم لهم.

ومعنى الجملة أن المنافقين على فرض انضمامهم لليهود من أجل نصرهم فسرعان ما ينهزمون مع اليهود لشدة جبنهم وخوفهم من المؤمنين الصادقين.

والتعبير عن الانهزام بتولية الأدبار قد كرر عدة مرات في القرآن الكريم. ومن ذلك قوله –تعالى-:﴿ ... **فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله، و مأواه جهنم وبيس المصير**﴾ الأنفال 15-16.

وفي قوله -تعالى-: "**ثم لا ينصرون**" بشارة للمؤمنين بمقتضى حكم الله على اليهود بالذلة والمسكنة وذلك ما يشهد به التاريخ على مدى أربعة عشر قرنا.

قال الله -تعالى- في سورة آل عمران عن اليهود ﴿**... وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار، ثم لا ينصرون، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا، إلا بحبل من الله، وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ 111-112.

قوله تعالى:

﴿**لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ(13)**﴾

التفسير:

الضمير في "أنتم" عائد إلى المؤمنين.

والضمير في "صدورهم" عائد إلى اليهود و منافقي العرب.

والمراد بالصدور: القلوب. من إطلاق المحل و إرادة الحال فيه كما يقول علماء البلاغة.

و"الرهبة" : الخوف.

والمعنى أن الله –تعالى- خاطب المؤمنين الصادقين ليقول لهم إن خوف اليهود وإخوانهم منكم أشد و أعظم من خوفهم من الله ﷻ.

والإشارة "بذلك" إلى الخوف المعبر عنه بالرهبة.

والفقه المفهوم من "يفقهون" معناه الفهم الصحيح الدقيق يقال: فقه – بكسر القاف– –يفقه بفتحها: إذا فهم الشيء فهماَ عميقًا.

وفقه –بضم القاف–يفقه– بضمها أيضا: إذا صار فقيها والباء في "بأنهم" سببية. والمعنى أن خوف اليهود والمنافقين منكم كان أشد من خوفهم من الله بسبب عدم فقههم، ولو فقهوا لقدروا الله حق قدره وكانت رهبتهم منه أشد من رهبتهم منكم.

ونظير هذه الآية قوله –تعالى– في سورة النساء: **﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، و قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال، لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾**77.

هذه الآية الكريمة تسحب ذيلها على أولئك الذين يرهبون المخلوقين أكثر من رهبتهم الخالق العظيم الذي له ملك السماوات والأرض.

ومن هذا الباب خضوع بعض السياسيين من بعض العرب إلى السياسيين الأقوياء من الأجانب حفاظا على مناصبهم ومكاسبهم....

ولو كان في ذلك تدمير للأمة التي ينتسبون إليها، وتجميد لطاقاتها وتعطيل لمسيرتها نحو النهوض والازدهار.

ومن هذا الباب أيضا تجرؤ بعض الناس على إصدار فتاوى يبيحون بها ما حرمه الله -تعالى- ويحرمون ما أباحه الله تعالى إرضاء للمخلوق، ولا عبرة لديهم بإغضاب الخالق..

ولو كان هؤلاء وأولئك يفقهون ما ينتظرهم عند الله -تعالى- من جزاء مؤلم لما أقدموا على تلك التصرفات التي تدل على موت ضمائرهم وتبلد مشاعرهم.

قوله تعالى:

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ(14)﴾

التفسير:

جميعا: من حيث الإعراب هو حال مؤول ب"مجتمعين".

القرى المحصنة: البلاد التي اجتهد ساكنوها في تحصينها بما يمنع العدو من دخولها، كالأسوار المتينة العالية، والخنادق العميقة الواسعة المحفورة حولها، والأسلاك الشائكة ونحو ذلك.

الجدر: جمع جدار وهو الحائط.

بأسهم: البأس –بفتح الباء– له معان متقاربة وقد استعمله القرآن في معنى القوة الحربية، قال الله –تعالى– حكاية لقول مستشاري الملكة بلقيس لها حين أخبرتهم بمضمون الكتاب الذي أرسله إليها سليمان ﷷ: **﴿...نحن أولو قوة، وأولو بأس شديد...﴾** النمل33، كما استعمله للدلالة على قوة الإضرار قال الله –تعالى– في سورة الحديد: **﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس﴾**25.

وقد استعمله في سورة الأعراف للدلالة على عذاب الله النازل على الظالمين، قال الله –تعالى– **﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون؟ أو أمن أهل القرى بأسنا ضحى وهم يلعبون؟﴾**97–98.

وقد عبر عنه في سورة المائدة بالعداوة والبغضاء. قال الله –تعالى– (عن اليهود): **﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، و يسعون في الأرض فسادا، والله لا يحب المفسدين﴾**64.

وهذا المعنى هو المقصود من البأس في سورة الحشر والله أعلم. والقرآن يشرح بعضه بعضا.

وإتماما للفائدة أقول: إن الإمام عليا ﷺ استعمل البأس في الدلالة على سخونة المعركة الحربية. قال ﷺ:" كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ..."

أما "البؤس" –بضم الباء– فهو شدة الاحتياج والفقر.

واسم الفاعل منه"البائس" قال الله -تعالى-:**﴿وأطعموا البائس الفقير﴾** الحج28.

تحسبهم جميعا: تظنهم متآلفين متحابين.

قلوبهم شتى: قلوبهم متفرقة متقاطعة مشتتة الأهواء لا توافق بينهم. وقد جاء الشت في سورة الزلزلة بصيغة الجمع بمعنى تفرق الناس بأبدانهم، قال الله -تعالى- **﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم...﴾** 8.

والإشارة ب"ذلك" إلى البأس الذي بينهم.

والباء في "بأنهم" سببية، أي وجود بأسهم بينهم وتنافرهم كان بسبب عدم استعمال عقولهم.

ومعنى الآية أن الله -تبارك وتعالى- بين طريقة اليهود في حربهم مع المؤمنين، وهي أنهم لا يقاتلونهم في حال تجمعهم إلا إذا كانوا في داخل قرى اجتهدوا في تحصينها حتى لا يستطيع عدوهم دخولها أو يقاتلونهم من خلف الحيطان والحواجز لشدة جبنهم، وخوفهم على حياتهم التي يحرصون عليها أشد الحرص، ولو كانت حياة ذليلة كما قال الله عنهم في سورة البقرة: **﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين، ولتجدنهم أحرص الناس**

على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، والله بصير بما يعملون﴾96.

تلك حالتهم مع أعدائهم، أما حالتهم مع أنفسهم فهي متسمة بالعداوة والبغضاء والمنازعة، يخيل لمن يراهم مجتمعين أنهم متآلفون منسجمون، لكنهم بقلوبهم متنافرون، والسبب في ذلك أنهم لا يستعملون عقولهم فيفكرون فيما يعود عليهم بالنفع

تعليق:

حين يقرأ المسلم الغيور هذا المقطع من الآية الكريمة وهو قوله -تعالى- "..**بأسهم بينهم شديد** ..." تمتلئ جوانحه بالأسف على ما آل إليه أمر المسلمين من اتصافهم بالصفات التي ذم الله بها بني إسرائيل، ومنها البأس الشديد الذي يتعاملون به فيما بينهم، وتجمعهم بأجسامهم وتفرقهم بقلوبهم، وطغيان خلافاتهم، واستفحال خصوماتهم، واستغلال الخلافات المذهبية لإذكاء الفتنة الطائفية بينهم والعياذ بالله.

وقد تبلغ بهم الخصومات إلى استعمال العنف مع بعضهم واستخدام السلاح لتحقيق أهدافهم.

ومن مظاهر ذلك ما تقوم به تلك الفرق المضللة من اعتداءات على الأبرياء من رجال ونساء وأطفال وشيوخ وتخريب المؤسسات، وإحراق المنشآت.

وكل ذلك يدخل في باب الإجرام القبيح، وأقبح منه أن ينسب إلى الإسلام فيسمى جهادا مما جعل غير المسلمين ينفرون من الإسلام، ويتصورونه دينا يدعو إلى الإرهاب والترويع مع أنه دين سلام يمنع الاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وينهى عن ترويع الآخرين بدون موجب، وبأي نوع من أنواع الترعيب حتى لو كانوا غير مسلمين، فقد حبب المسلمين في الإحسان بهم، وتجنب الإساءة إليهم.

قال الله -تعالى- :﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾ الممتحنة 8-9.

وقال ﷺ:"**كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**"، وقال ﷺ:" **لا يحل لمسلم أن يروع مسلما**"رواه أبو داود.

وقال ﷺ:"**من أخاف مؤمنا كان حقا على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة**" الطبراني

وقال ﷺ:" **من أشار إلى أخيه بحديده فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي، وإن كان أخاه لأبيه وأمه**" مسلم.

قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(15)﴾

التفسير

الكاف في "كمثل" حرف جر يدل على التشبيه.

والجار والمجرور والمضاف والمضاف إليه في "كمثل الذين" يتعلقان بمحذوف هو خبر المبتدأ المحذوف أيضا.

وتقدير الكلام: مثلهم حاصل كمثل الذين من قبلهم.

والضمير في "مثلهم" عائد إلى يهود بني النضير.

والذين من قبلهم هم يهود بني قينقاع (وهذا التأويل هو الأقرب) قريبا: ظرف زمان أو حال.

ذاقوا وبال أمرهم: الوبال: الوخامة. يقال "مرتع وبيل" أي وخيم مضر بالحيوان الذي يرعاه ويأكل من عشبه منخدعا بحلاوته.

وأمرهم: هو شأنهم الذي اعتمدوه.

ومعنى "ذاقوا وبال أمرهم" أصابهم سوء ما دبروه لأنفسهم وهو عداوتهم لرسول الله ﷺ التي نتج عنها العقاب الإلهي ووجه الشبه بين يهود بني النضير، ويهود بني قينقاع أن كلا منهما انخدع بما توهمه في نفسه من شجاعة، وصمود في

القتال، وبأس في السلاح، وحصانة في القصور، واعتماد على نصر المنافقين من العرب، فاعتدوا فنالوا جزاء اعتدائهم. وقد كان الزمن الفاصل بين عقوبة بني قينقاع وعقوبة بني النضير بطردهم من المدينة هو سبعة عشر شهرا وهو ما يفسر القرب في قوله تعالى: كمثل الذين من قبلهم قريبا.

ومما يدل على غرور بني قينقاع بأنفسهم أن تكالبهم على المسلمين وتطاولهم عليهم قد ازداد بعد نصر الله -تعالى- للمؤمنين في غزوة بدر على مشركي قريش.

وقد رأى اليهود أن إعلاء شأن المسلمين في المدينة يضعف نفوذهم فيها، وينال من مكانتهم الاجتماعية التي كانوا يسيطرون بها على جيرانهم العرب، ويصرفون الحياة بها حسب أهوائهم ويزرعون الفتن ويحيون النعرات القبلية بين قبيلتي الأوس والخزرج. وهاهو محمد جاء ليوحد العرب، ويجعل منهم قوة لا يستهان بها.

أراد النبي ﷺ أن يجعل حدا لاستفزازات اليهود بعدما عيل صبره فذهب إلى سوق بني قينقاع لينصحهم باحترام جيرانهم والكف عن إيذائهم. فماذا كان جوابهم؟.

قالوا له-على لسان أحد كبرائهم-: **"يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب .. فو الله لئن قاتلناك لتعلمن أننا نحن الناس"** فكظم النبي ﷺ والمسلمون غيظهم حتى كان ذلك اليوم الذي قصدت فيه امرأة عربية دكان صائغ

يهودي لتشتري منه بعض القطع الذهبية بعد أن باعت حليها في السوق فراودها ذلك الصائغ ومن معه من اليهود على كشف وجهها فأبت فتحين غفلة منها ليعقد طرف ذيلها في ظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها، فضحك اليهود منها فصرخت فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله فهجمت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. فوقع الشر بينهم. وحينئذ نفد صبر النبي ﷺ فأمر جنود الله بالتوجه إلى منازل بني قينقاع ليعاقبهم، ولما رأوه أسرعوا كالفئران المذعورة إلى حصونهم فحاصرهم فيها خمسة عشر ليلة حتى نزلوا على حكمه فيهم، فأمر بهم فكتفوا. وهنا تدخل في أمرهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي، فوهبهم له -مراعاة لظروف خاصة- ولكن أمرهم بالخروج من المدينة فخرجوا إلى أذرعات بالشام. وشرط عليهم أن يتركوا سلاحهم وكان ذلك يوم السبت منتصف شهر شوال من السنة الثانية للهجرة.

"ولهم عذاب أليم": بعد أن أخبر الله ﷻ عن الجزاء السيئ الذي أصاب اليهود وهو الطرد من المدينة، وما نتج عنه من مشقة وقهر وإذلال أخبر أيضا أنه أعد لهم عذابا مؤلما في الدار الآخرة.

قوله تعالى:

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17) ﴾

التفسير:

هذا مثل آخر ضربه الله –تعالى– ليهود بني النضير مع إخوانهم المنافقين من العرب، أي مثل اليهود في انخداعهم بوعد المنافقين لهم بالنصر، وإعانتهم على حرب المسلمين، ثم لم يوفوا بوعدهم، وتركوهم لمصيرهم السيئ كمثل الشيطان الذي زين الكفر للإنسان في الدنيا، واستمر على كفره حتى مات، فلما جاء يوم الحساب وهو يوم الحشر اعتذر الإنسان بأن الشيطان هو الذي زين له الكفر، وأضله عن سواء السبيل، ولكن الشيطان تبرأ منه وقال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، وقد حكم الله على كل من الضال (وهو الإنسان) والمضل وهو الشيطان بأن يرمى في نار جهنم ليخلد فيها مع الخالدين. وذلك جزاء الظالمين أي الكافرين، وبدهي أن الكفر هو أقبح الظلم. لأنه تعد على حق الله في العبادة الخالصة التي لا يشوبها شرك.

وبمناسبة ورود لفظ الشيطان في هذه الآية الكريمة يحسن أن نطرح هذا السؤال: **من هو الشيطان؟**

وتمهيدا للإجابة عنه أقول: إن الله -تعالى- خلق في هذا الوجود أجساما كثيفة تمكن رؤيتها، ومنها الإنسان والحيوان، وخلق أجساماً لطيفة لا يستطيع الإنسان أن يراها على صورتها الحقيقية. ومنها الجن أو الجنة، تسمية لها من الجن (بفتح الجيم) وهو الستر. يقال -في اللغة- جنه الظلام- جناً: إذا ستره عن الأعين.

وجماعة الجن فيهم المسلمون وفيهم القاسطون أي الجائرون الحائدون عن طريق الإسلام وهم الكافرون.

وقد أخبروا عن أنفسهم بذلك كما نقرؤه في سورة الجن من القرآن الكريم حيث يقول الله -تعالى- حكاية لمقالتهم: ﴿**وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا**﴾.

هؤلاء القاسطون – وهم أشرار الجن، المتمردون على حدود الله- هم الشياطين. والواحد منهم شيطان. ولذلك يقال: كل شيطان جني، وليس كل جني شيطانا.

وكما في الجن شياطين كذلك في بني آدم شياطين وهم العصاة المتمردون على حدود الله.

ودليل ذلك قوله -تعالى- في سورة الأنعام:﴿ **...وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم لبعض زخرف القول غرورا**﴾112

وفي سورة البقرة أيضا:﴿ ...وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون ...﴾ 14.

وهل للشيطان تأثير على الإنسان؟ نعم. ولكن من هو الإنسان الذي يؤثر عليه الشيطان بوساوسه، ويضله عن سبيل الله؟ إنه الإنسان الذي قال الله فيه: ﴿ومن يعْشُ عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين" وإنهم ليصدونهم عن السبيل، ويحسبون أنهم مهتدون﴾36 الزخرف

وقال في إخوان الشياطين ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس أنهم كانوا خاسرين﴾ فصلت25.

وقال ﷺ: "ما من أحد إلا وُكل به قرين، قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: ولا أنا إلا أن الله –تعالى- أعانني عليه فأسلم". وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بأن كل إنسان يلازمه ملك يأمره بالخير، كما يلازمه شيطان يأمره بالشر. وذلك هو قوله ﷺ "إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان "

وإذا كان القرآن الكريم قد صرح بذكر الذين هم عرضة لإضلال الشيطان إياهم، فإنه صرح أيضا بذكر الذين يستعصون عليه ولا يستطيع إضلالهم.

قال الله -تعالى- في سورة الحجر﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين، إن جهنم لموعدهم أجمعين**﴾ 42-43. و في سورة الإسراء: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا** ﴾65.

وقد يتساءل الإنسان عن السر في عداوة إبليس وذريته لآدم وذريته؟ والجواب أنه الحسد والكبر. إنهم حسدوا آدم وذريته على تكريم الله إياهم، وتكبروا عليهم بدعوى خلقهم من نار وخلق الآدميين من الطين. أما آدم فكان تكريمه بأن أمر الملائكة بالسجود له على سبيل التحية والتجلة. قال الله -تعالى- في سورة الإسراء: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، قال أأسجد لما خلقت طينا؟ قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا، قال اذهب، فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءا موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليه بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا**﴾ 61-64.

أما ذرية آدم فقد كرمهم بما ذكره أيضا في سورة الإسراء. حيث قال: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾70.

وفي تكبر إبليس يقول الله -تعالى- في سورة الأعراف: ﴿ **قال: يا إبليس ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه خلقتني من نار، وخلقته من طين...**﴾.

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(18)﴾

التفسير:

بعد أن ذكر الله ﷻ صفات اليهود والمنافقين وما آل إليه أمرهم شرع في مخاطبة المؤمنين، لينصحهم بما فيه سعادتهم ويحذرهم مما فيه شقاوتهم.

وهذه الآية تشتمل على نداء وأمرين، و خبر واحد.

أما النداء فهو قوله -تعالى- **"يا أيها الذين آمنوا"** وأما الأمران فهما أولا: **"اتقوا الله"** وثانيا :**" ولتنظر نفس ما قدمت لغد"**. وأما الخبر فهو قوله -تعالى- **"إن الله خبير بما تعملون"**

ونداء المؤمنين بوصف الإيمان فيه دفع قوي لهم ليفعلوا ما يأمرهم به، ويتركوا ما ينهاهم عنه كأنه يقول لهم: إن كنتم مؤمنين بي حقا فأطيعوني ولا

تعصوني ونظير ذلك قوله -تعالى- في سورة المائدة **﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾**88.

والتقوى لغة: مأخوذة من الاتقاء وهو أن يقي الإنسان نفسه أي يحفظها مما يؤذيها ويضرها.

والتقوى شرعا أن يفعل الإنسان ما يرضي الله، ويجتنب ما يسخطه. وبذلك يكون قد اتقى غضبه وعقابه.

والتقوى إنما تحصل للمتقي حين يمتلئ قلبه بالإحساس الدائم بأن الله دائما معه يراقبه ويحصي أعماله.

ولأهمية التقوى في حياة الفرد والمجتمع قرنها الله -تعالى- في كثير من الآيات القرآنية بالإيمان، مما يوحي بأن الإيمان إن لم يكن مصحوبا بالتقوى في كل مجالات الحياة الإنسانية من اعتقاد وتعبد وتعامل وسلوك لا ينفع صاحبه نفعا كاملا.

ومن الآيات الجامعة بين الأمر بالإيمان والتقوى قوله -تعالى- في سورة آل عمران: **﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾**172. وفي سورة يونس: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾** 62-63، وفي سورة النمل: **﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**53 الخ...

ومن التعريف الشرعي للتقوى يتضح أنها التطبيق السليم لما يقتضيه الإيمان من توجيهات وتشريعات ..

وعلى أساس هذا التطبيق ونوعيته يكون رقي المسلمين أو انحطاطهم. وهنا يبرز سؤال: كيف حالنا –معشر المسلمين– مع تقوى الله؟ والإجابة تكون –طبعا– سلبية، يفرضها واقع المسلمين المزري مع أنفسهم وأعدائهم .فهنالك المخالفات التي تبعدنا عن جوهر الإسلام، وما فيه من عزة وكرامة تلك العزة التي مَنَّ الله –تعالى– بها على أسلافنا نتيجة اتخاذهم الإسلام وقاء من الانحراف، وعصمة لهم من السقوط في مهاوي الذلة والانكسار. قال الله –تعالى– في سورة فاطر ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾8.

﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾:

الواو: عطفت الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها واللام هي اللام التي تدخل على الفعل المضارع فتصيره دالا على الأمر، ولذلك تعرب: لام الأمر.

والأصل في بنائها أن تكون مكسورة كما في قوله –تعالى– ﴿**لينفق ذو سعة من سعته**﴾ الطلاق7.

ولكن العرب استحسنوا تخفيفها بأن بنوها على السكون إذا كانت مسبوقة بأحد حرفي العطف: الواو أو الفاء كما في قوله –تعالى– : ﴿ .. **ومن قدر عليه رزقه**

فلينفق مما آتاه الله ﴾ الطلاق7، وكما في قوله –تعالى- ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منكم معك وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم..**﴾ النساء101.

أما إذا كانت مسبوقة بحرف العطف "ثم" فللمتكلم أو القارئ كسرها أو تسكينها كما في قوله –تعالى-:﴿.. **ثم ليقضوا تفثهم، وليوفوا نذورهم، وليطوفوا بالبيت العتيق**﴾ الحج29.

والشاهد في قوله –تعالى- ﴿ **ثم ليقضوا تفثهم** ﴾ رواها الإمام ورش عن شيخه نافع بكسر لام الأمر، ورواها الإمام قالون بسكون لام الأمر عن شيخه نافع أيضا.

ومثله الإمام حفص عن شيخه عاصم (أي بسكون اللام).

و"الغد" في قوله -تعالى- "**ما قدمت لغد**" أريد به يوم الحساب في الدار الآخرة. ومعلوم أن الغد –في عرفنا الدنيوي هو اليوم الذي يأتي بعد اليوم الحاضر.

والتعبير عن يوم الحساب بالغد، وإن كان لا يقع إلا بعد زمن لا يعلمه إلا الله. لأن كل آت قريب، ولأن مجيئه حق ثابت لا شك فيه. ولنا أن نتصور الدنيا كلها يوما واحدا، والآخرة يوما ثانيا.

ومعنى الجملة أن الله –تعالى– يأمر كل نفس إنسانية بأن تتأمل وتفكر فيما قدمت ليوم الحساب من أعمال لتجازى عليها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وبديهي أن أعظم الخير هو التمتع بنعيم الجنة، والفوز برضاء الله –تعالى– ورؤيته فيها.

وأعظم الشر آلام الاحتراق في نار جهنم وقانا الله منها. ونظير هذه الآية قوله –تعالى– في سورة النبأ ﴿**يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا**﴾40.

وقوله –تعالى– في سورة لقمان ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ..** ﴾33.

والحكمة التي أسداها إلينا المولى من النظر في العواقب هي أن يستعد الإنسان لتحسين عاقبة أمره بالإقبال على طاعة الله ﷻ فيما أمر به، ونهى عنه.

سئل رسول الله ﷺ:" **عن الساعة متى هي؟ فأجاب السائل بقوله: وماذا أعددت لها؟**"

وجاء في الأثر:" **حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم**".

وقد كرر الأمر بالتقوى لتأكيد الأمر بها، والالتزام بمقتضياتها. ويمكن أن يراد بها في الجملة الأولى أصل التقوى أما في الجملة الثانية فيراد الاستمرار عليها، وعدم الانقطاع عنها كما في قوله -تعالى-: ﴿**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله...**﴾ النساء136. وفي قوله -تعالى- لنبيه: ﴿**يا أيها النبي اتق الله...**﴾ الأحزاب1.

ولنا أن نتصور أن إعادة ذكرها لبناء مضمون الجملة التي بعدها. عليها: "**إن الله خبير بما تعملون**". والله أعلم.

﴿**إن الله خبير بما تعملون**﴾

الخبرة المفهومة من صيغة "خبير" معناها الاطلاع على خفايا الأمور، بَلْه ظواهرها.

أي أن الله -تعالى- مطلع على أعمال عباده سواءٌ أكانت خفية أم ظاهرة.

وفي هذا الإعلام ترغيب وترهيب.

ترغيب للذين يعملون الصالحات في السر والعلن، لأنهم حين يعلمون أن ربهم مطلع على أعمالهم الحسنة يرغبون في المحافظة عليها، وفي المزيد منها، ويداومون عليها ليتضاعف أجرهم..

وترهيب للذين يعملون السيئات، لأنهم حين يعلمون أن الله ﷻ مطلع على أعمالهم السيئة في السر والعلن يمكن أن ينـزجروا، ويكفوا عن تلك الأعمال...

وبمناسبة الحديث عن تقوى الله يحسن التنبيه إلى أن هذه التقوى ليس معناها الانطواء على النفس والتقشف واللباس الرث والامتناع عن الطيبات من الرزق، كما يتوهم بعض الناس.

وهاهو الإمام مالك بن أنس إمام المذهب، وهو من هو في عداد المتقين يرفض هذا الوهم، ويرد على من عاتبه في ذلك.

فقد روي أن يحيى بن يزيد بن عبد الملك كتب إلى مالك بن أنس يقول بعد البسملة والتصلية- "أما بعد فقد بلغني أنك تلبس الدقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجبا، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطي وارتحل إليك الناس، واتخذوك إماما، ورضوا بقولك، فاتق الله -تعالى- يا مالك .. وعليك بالتواضع، كتبت إليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام.

فرد عليه الإمام مالك يقول: -بعد البسملة والتصلية- أما بعد: فقد وصل إلي كتابك، فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب. أمتعك الله بالتقوى، وجزاك بالنصيحة خيرا، وأسأل الله -تعالى- التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأما ما ذكرت لي أني آكل الرقاق، وألبس الدقاق، وأحتجب، وأجلس على الوطيء، فنحن نفعل ذلك، ونستغفر الله فقد قال: " قل من حرم

زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق" وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه، ولا تدعنا من كتابك، فلسنا ندعك من كتابنا، والسلام.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)﴾

بعد أن أمر الله –تعالى- المؤمنين بالتقوى، والاستعداد للدار الآخرة بأن تفكر كل نفس فيما قدمته من أعمال سوف تجازى عليها في يوم الحساب، نهاهم عن التشبه بالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

ومعنى نسيان الله: ترك العمل بما دعاهم إليه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ومواعظ، والإقدام على ما نهاهم عنه من معتقدات باطلة، وأقوال وأفعال جاهلية

ومعنى إنساء الله إياهم أنفسهم أنه لم يخلق فيهم الإدراك والتفطن لأخطائهم ليتوبوا إليه، ويستبدلوا سيئاتهم حسنات ...

والفاء التفريعية في "فأنساهم" تفيد أن إنساء الله إياهم مسبب عن نسيانهم أنفسهم.

والآية الكريمة لم تعين أولئك الذين نسوا الله فعاقبهم بإنسائهم أنفسهم؟

ونحن حينما نستعرض القرآن الكريم نرى أربع طوائف نسوا الله فأنساهم أنفسهم:

أ- اليهود الذين قال الله -تعالى- عنهم: **﴿...فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظا مما ذكروا به...﴾** المائدة 13.

ب- النصارى الذين قال الله -تعالى- عنهم: **﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم، فنسوا حظا مما ذكروا به...﴾**

ج- المشركون الذين قال الله عنهم: **﴿الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وغرتهم الحياة الدنيا، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا...﴾** الأعراف 51.

د- المنافقون الذين قال الله عنهم: **﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم...﴾** التوبة 67.

تنبيــــه:

النسيان له معنيان:

أحدهما ترك الشيء أو فعله سهوا، وهو ضد التذكر ولا يوصف به إلا العباد، وأما الله ﷻ فلا تجوز نسبته إليه لأنه من صفات النقص التي لا تليق

بجلاله قال الله -تعالى- حكاية لقول موسى عليه السلام في جوابه لفرعون ﴿**قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى**" طه51-52، وقال أيضا" **وما كان ربك نسيا**﴾ مريم64.

ومن رحمته -تعالى- بعباده أنه لا يعاقبهم عليه. قال رسول الله ﷺ:" **رفع لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**"

ثاني المعنيين للنسيان ترك الشيء أو فعله عمدا وهذا النوع يجوز وصف الله به كما يوصف به العباد وهو المراد في الآيات المذكورة آنفا.

قال الله تعالى في سورة السجدة: ﴿**فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم...**﴾ من الآية 14

وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿**وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ...**﴾ من الآية 33.

قوله تعالى:

﴿**لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ(20)**﴾

التفسير:

أصحاب النار هم الذين نسوا الله، فأساءوا لأنفسهم بترك العمل وفق شريعته فكان جزاؤهم الخلود في النار، والعياذ بالله، وهم المذكورون في سورة

البقرة عند قوله -تعالى-:﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾36.

وأصحاب الجنة هم المتقون الذين أحسنوا إلى أنفسهم بطاعة ربهم فجزاهم بالخلود في جنة النعيم.

فالفريقان لا يستويان في ميزان الله تعالى. ومن ثم لا يستويان في المصير الذي صار إليه كل فريق ونظير هذه الآية قوله -تعالى- في سورة السجدة ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا؟ لا يستوون، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى، نزلا بما كانوا يعملون، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ 18-20. وقوله -تعالى- في سورة ص ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار؟﴾28.وقوله -تعالى- في سورة الجاثية ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون﴾21.

والفوز المفهوم من صيغة "الفائزون" هو الظفر بالمطلوب أي بلوغ المقصود. وأي مقصود أعز من نعيم الجنة، ورضوان الله فيها؟

وفي جملة "أولئك هم الفائزون" حصر يدل عليه ضمير الفصل المتوسط بين المبتدأ والخبر أي ذلك الفوز مقصور على أصحاب الجنة لا يتعدى إلى غيرهم...

والملاحظ أن الله –تعالى– ذكر مصير أصحاب الجنة، وهو الفوز بالنعيم المقيم في الجنة، ولكنه لم يذكر مصير أصحاب النار هنا لأن ذكرهم ثابت في عدة آيات أخرى.

ومن ذلك قوله –تعالى– في سورة الزمر **﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل...﴾** 15.

قوله تعالى:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(21)﴾

التفسير:

لو –هنا– حرف شرط. يفيد امتناع حصول جوابه لامتناع حصول شرطه.

فإذا قيل " لو زرع الناس لحصدوا " فمعناه أن الحصاد لم يحصل لأن الزرع لم يقع.

وإذا قيل: "لو اجتهد طالب العلم لنجح" فمعناه أن النجاح لم يقع لأن الاجتهاد لم يحصل.

وجملة الشرط في هذه الآية الكريمة هي: " أنزلنا هذا القرآن على جبل" وجملة جواب الشرط هي "لرأيته خاشعا ..." أي على فرض أن الله –تعالى– خلق

التمييز في جبل من الجبال كما خلقه في ابن آدم، وخاطبه بهذا القرآن لرآه الناس خاشعا متصدعا متشققا من خوف الله سبحانه ..

وهذا يدل على عظمة القرآن الكريم، وعظمة منزله، وقوة تأثيره في النفوس لكن نفوس هؤلاء العرب المشركين الذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم لم يؤثر فيهم القرآن لقساوة قلوبهم فهم كاليهود الذين خاطبهم الله ﷻ بقوله: **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة...﴾** وهم المعنيون بقوله – تعالى- **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أو ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون؟ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء،صم، بكم، عمي، فهم لا يعقلون﴾** البقرة 170-171.

ولنتصور المثل الذي ضربه الله ﷻ لنبيه موسى حين طلب رؤيته، وهو ثابت في القرآن الكريم، حيث يقول الله –تعالى- في سورة الأعراف **﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا، وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك، تبت إليك، وأنا أول المؤمنين﴾**143.

ونظير هذه الآية قوله –تعالى- في سورة الرعد: **﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، بل لله الأمر جميعا﴾**31.

ويلاحظ أن جواب الشرط فيها محذوف، تقديره "... **لكان هذا القرآن**" وهي رد على كفار قريش الذين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبيا -كما تزعم- فباعد بين جبلي مكة أي سيرهما بقرآنك مسيرة أربعة أيام أو خمسة فإنها ضيقة، وشُق لنا أنهاراً، وفجر لنا فيها ينابيع حتى نزرع فيها ونرعى مواشينا، أو سخر لنا الريح لتنقلنا إلى الشام وتعود بنا إلى مكة في يوم كما سخرها الله لسليمان، أو أحيى لنا آباءنا الموتى ليخبرونا أنك نبي كما كان عيسى يحيي الموتى، وبديهي أن الله -تبارك وتعالى- لم ينزل الكتب السماوية- ومنها القرآن- من أجل إظهار العجائب والغرائب للناس بواسطته وإنما أنزلها لهداية البشر إلى الصلة المتينة التي تربطهم بخالقهم، وتحقق لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ومن خوارق العادات التي كان كفار قريش يطلبون تحقيقها من نبي الله محمد عليه الصلاة والسلام ما قصه الله -تعالى- في سورة الإسراء :﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه**﴾. ويأتي الرد على سخافتهم من قبل المولى جل وعلا: ﴿**قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشرا رسولا**﴾90-93 .

والسؤال الذي يثور في ذهن كل من يطلع على تعنت هؤلاء المعارضين للدعوة الإسلامية: **هل كانوا مقتنعين بباطلهم، ومؤمنين بصواب رأيهم؟**

والجواب أن أولئك الرافضين كانوا فريقين: فريق العوام المطيعين لما يقوله لهم سادتهم وكبراؤهم (وهم الذين حدثنا الله عنهم في سورة الأحزاب، وحكى لنا مقالتهم، وهم في نار جهنم: **﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب، والعنهم لعنا كثيرا﴾**67-68.

والفريق الثاني هم أكابر القوم وسادتهم الذين يتأثرون بسماع القرآن الكريم، ويصدقون في قرارة نفوسهم أنه من عند الله، وما كان لمحمد أن يأتي به من عند نفسه .. ولكنهم كانوا يعلنون الكفر به تمسكا بامتيازاتهم الاجتماعية كالرئاسة والاعتزاز بالمال والأولاد، والاستكبار والحسد الذي يزين لهم كراهية الحق وأهله القائمين به.

فهم كما قال الله –تعالى–في فرعون وآله حين أرسل إليهم نبيه موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات فأنكروها ظاهريا مع إيمانهم بها باطنيا :**﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا: هذا سحر مبين، وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، فأنظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾**.

ومما يروى عن تأثر زعماء قريش بالقرآن العظيم حين يسمعونه من النبي ﷺ ويكشف عن سبب من أسباب رفضهم للدعوة الإسلامية أن كلا من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق حدثته نفسه يوما أن يتوجه خفية نحو دار النبي ﷺ ذات ليلة ليستمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، ولا يدري أيٌّ منهم أن

صاحبيه قد عزم على ما عزما عليه. ومن غرائب الصدف أن كل واحد منهم اتخذ مكانا خفيا حول دار النبي ﷺ وبات يستمتع بترتيل النبي ﷺ للقرآن دون أن يشعر أحدهم بالآخر ولما طلع الفجر وانصرف كل واحد من مكانه إلى منزله جمعهم الطريق وفوجئ بعضهم ببعض فتلاوموا ثم اتفقوا على ألا يعودوا مرة أخرى لسماع القرآن، ولكن كل واحد منهم عاد للاستماع ظانا أنه هو وحده الذي خرج عن الاتفاق، وباتوا يستمعون إلى أن طلع الفجر فجمعتهم الطريق مرة ثانية فتلاوموا، وقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد على عدم العودة للاستماع لأن قومنا لو علموا بصنيعنا لصنعوا مثل ما صنعنا وحينئذ يصبأون كما صبأ محمد ويتبعونه ونحن الذين كنا ننهاهم عن الاستماع إليه (وقد ورد نهيهم هذا في القرآن الكريم حيث يقول الله –تعالى– في سورة فصلت: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن، والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾26، ولما ارتفع الضحى خرج الأخنس من داره متوجها إلى أبي سفيان ليسأله عن رأيه فيما سمع من محمد فقال: لقد سمعت كلاما فهمته وفهمت ما يراد به. وسمعت كلاما لم أفهمه ولم أفهم ما يراد به. ثم توجه إلى أبي جهل فسأله عن رأيه فيما سمع فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، فإذا قالوا منا نبي ينزل عليه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه.

ومن الأوهام التي كان زعماء قريش يستندون إليه في رفض نبوة محمد ﷺ أن النبوة منصب عظيم، ومن ثم لا بد أن ينزل كلام الله على رجل عظيم كالوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة مثلاً في مكة أو كعروة بن مسعود الثقفي، أو حبيب بن عمرو في الطائف. وقد ذكر الله ﷻ مقالتهم هذه في سورة الزخرف حيث يقول: ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾، وقد رد الله مقالتهم هذه بأسلوب الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾31-32.

ويراد بالرحمة الأولى في الآية النبوة، ويراد بالرحمة الثانية الجنة وفحوى الآية أن الله – تعالى– إذا كان لم يخول الناس أن يقسموا الأرزاق بينهم فكيف يخولهم تقسيم النبوة على من شاءوا من عباده، وهي أعلى قيمة من المعائش المادية. ومما يروى من هذا القبيل أن الوليد ابن المغيرة التقى بالنبي ﷺ فقال له: لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أولى بها لأني أكبر سناً، وأكثر منك مالاً!

ولنترك معاندي قريش الذين يصدق عليهم قوله – تعالى– ﴿ **لقد جئناكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون**﴾ وقوله –تعالى– ﴿ **أفلم يدبروا القول، أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون، أم يقولون به جنة؟ بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون**﴾ 68- 70.

ولنتوجه إلى أولئك البلغاء من العرب الذين لم يغلف الران قلوبهم فهم لا يكاد أحدهم يسمع القرآن العظيم حتى ترتعد فرائصه ويستجيب لنداء الحق.

ومن الأمثلة الكثيرة لذلك ما ذكره علماؤنا عن جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسرى بدر فوافيته يقرأ في صلاة المغرب:" والطور إلى قوله –تعالى-: ﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾7-8، فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفا من نزول العذاب.

أما المؤمنون الذين تمكن الإيمان من قلوبهم فهم – حين يقرءون القرآن أو يسمعونه– كما وصفهم الله –تعالى– في سورة الزمر﴿ **الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانيَ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾23.

وأحسن الحديث هو القرآن الكريم، يشبه بعضه بعضا في حسن نظمه، وبلاغة أسلوبه، وتكرير معانيه، ترتعد منه جلود الذين يخافون الله، وتكاد قلوبهم تنخلع حين يسمعون الآيات الدالة على التهديد والإنذار ثم تطمئن جلودهم وقلوبهم حين يسمعون الآيات الدالة على لطف الله بعباده، ورحمته بهم.

وقد يتساءل البعض هنا عن غياب التأثير القرآني في النفوس في القرون المتأخرة، ذلك التأثير الذي كان يحركْ سلفنا الصالح للسير نحو الاتجاه السليم الذي جعل منهم خير أمة أخرجت للناس، وأقوى قوة عرفها العالم آنذاك؟

والإجابة البديهية الصريحة عن ذلك هي الضعف الذي طرأ على العرب في لغتهم التي نزل بها القرآن العظيم، ألا وهي اللغة العربية الفصحى التي تعرضت لضربات قاصمة من أعدائها الذين احتلوا بلادها فمنعوا تعلمها والتعليم بها، وأحلوا لغاتهم الأجنبية محلها.

ويا ليت تلك الضربات الموجعة انتهت بانتهاء الاحتلال الأجنبي البغيض، ولكنها استمرت على أيدي أولئك الذين احتل الفكر الأجنبي أدمغتهم واستولى على عقولهم وعواطفهم وأذواقهم، فهم دائبون على إضعافها وتهميشها والحيلولة بينها وبين تكوين النشء القوي الذي يغار على مقومات الأمة، ويحرص على شرف انتمائها.

ومعلوم أن أعداء الفصحى لا يحاربونها بصفتها لغة تخاطب وإنما يحاربونها لأنها تحمل معاني القرآن التي تجعل من الأمة قوة متماسكة مستعصية على من أرادها بسوء، متميزة بخصائصها التي أنشأها الله عليها، فمحاربة اللغة العربية هي إذن محاربة للقرآن الذي هو معين للإسلام، وكل إضعاف فيه هو إضعاف للإسلام.

ومن أسباب غياب التأثير القرآني في النفوس عدم المبالاة به لدى الكثيرين من السامعين، فترى أحدهم يتابع القرآن بأذنيه ليستمتع بنغمات القارئ الحلوة، ولكن لا يتابعه بقلبه ليحاول فهم مدلول الآيات الكريمة ويتدبر معانيها الجليلة

كما قال الله – تعالى– في سورة ص ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته، وليتذكر أولو الألباب**﴾ 29.

وكما قال الله –تعالى– في سورة الأعراف ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾204. و يجدر بنا – هنا – أن نفرق بين الاستماع الذي أمرنا به والسماع والإنصات.

فالاستماع يراد به الإصغاء إلى القراءة بقصد واهتمام. والسماع هو إدراك الأصوات فقط دون قصد إليها...، أما الإنصات فهو السكوت والكف عن الكلام أثناء القراءة إلا لضرورة.

وفي الآية زجر لأولئك الذين يفتحون جهاز التلفزة أو جهاز الراديو، أو أي جهاز تسجيل تنبعث منه القراءة وهم لاهون بأحاديثهم وأشغالهم.

ومن الظواهر التي يحسن التنبيه إليها أن بعض المساجد تطلق مكبرات الصوت بقراءة القرآن فيكون السامع محرجا بين الاستماع للقرآن كما أمره الله، والكف عن العمل، وبين الاستمرار في أحاديثه وأشغاله وترك الاستماع المأمور به؟ لذلك ينبغي أن تكون القراءة مقصورة على من هم في المسجد، وفي غير أوقات النوافل.

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾

الأمثال المشار إليها باسم الإشارة " تلك " هي الموجودة في ثنايا القرآن العظيم، ومنه هذه السورة " سورة الحشر " حيث نقرأ قول الله -تعالى- فيها ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله** ﴾، ﴿**كمثل الذين من قبلهم قريبا...**﴾- ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين...**﴾ ونقرأ في سورة العنكبوت: ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، لو كانوا يعلمون**﴾41.

وفي سورة البقرة :﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كالذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل، فتركه صلدا، لا يقدرون على شيء مما كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير**﴾164-165.

وضرب الأمثال: جعلها للناس، ووضعها لهم ليتفكروا فيها أي ليجيلوا فيها أفكارهم، ويعملوا عقولهم، عساهم يتعظون بها، وينتفعون بمغزاها في حياتهم الدنيوية والأخروية.

وفي الآية حث على التفكر والتدبر في الأمور المهمة وتقليب وجهات النظر في مقدماتها ونتائجها.

قوله تعالى:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(22)﴾

هذه الآية، والآيات بعدها تشتمل على خمسة عشرة من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا ختم الله بها هذه السورة.

وقد افتتحت كل آية منها بالضمير المنفصل "هو" الذي يعود إلي اسم الجلالة المذكور قبله في جملة **﴿يأيها الذين امنوا ا اتقوا الله ...﴾** ويحتمل أن يكون "هو" ضمير الشأن أي الشأن هو الله الذي لا إله إلا هو، كمثله في قوله –تعالى– **﴿قل هو الله أحد﴾**.

و" الله " علم على المعبود بحق، وهو رب العالمين.

أما "الإله" فهو المعبود سواءٌ أكانت عبادته حقا أم باطلا، فهناك من الناس من عبدوا أشخاصا من بني آدم، ومنهم من عبدوا بعض الحيوانات، ومنهم من عبدوا بعض مظاهر الطبيعة ومنهم من عبدوا الملائكة ومنهم من عبدوا الشياطين إلى آخره.

وكل هذه عبادات باطلة لا قيمة لها كما يفيده الحصر في جملة "لا إله إلا هو" أي العبادة المقبولة محصورة في توجيهها إلي الله دون غيره.

وقد تكررت عقيدة التوحيد هذه في غير ما آية من كتاب الله من ذلك قوله -تعالى- في سورة البقرة: ﴿الله لا اله إلا هو الحي القيوم ... ﴾ 255، وقوله -تعالى- في سورة محمد ﴿فاعلم انه لا إله إلا الله﴾ 19.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾

"الغيب" : ما غاب عن حس الإنسان، والشهادة: ما كان مشاهدا عنده أي محسوسا فالله عز وجل يستوي عنده ما كان غائبا وما كان حاضرا.

بخلاف الإنسان الذي لا يدرك من الأشياء إلا ما تسمح به طاقته الحسية والفكرية المحدودة، قال الله -تعالى- في سورة البقرة :﴿ **يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** "255، وقال في سور غافر: ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ 19.

﴿ هو الرحمن الرحيم﴾

الرحمن، الرحيم: صيغتان من صيغ المبالغة الدالة على الكثرة أي إن الله تعالى متصف بالرحمة الواسعة التي تشمل كل المخلوقات كما قال -تعالى- في سورة الأعراف: ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء**﴾

قال رسول الله ﷺ: **"جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"**.

وتصدير الجملة بالضمير المنفصل "هو" يفيد القصر أي هو وحده الموصوف بالرحمة المبذولة لكل مخلوق فتراحم العباد في ما بينهم لا يعتد به في جنب رحمة الله إياهم ضرورة أن تراحمهم مستمد من رحمته ﷻ وقد يتساءل الحريص على الفهم الدقيق عن الفرق بين الصيغتين الرحمن الرحيم والجواب الأقرب للصواب من الإجابات الأخرى أن صيغة الرحمن على وزن " فعلان" تدل على أن إحسان الله لعباده عظيم (وهو مفهوم الرحمة بالنسبة إليه تعالى) وصيغة الرحيم (على وزن فعيل) تدل على أن إحسان الله لعباده وإفاضة النعم عليهم دائم لا ينقطع.

ومن الآيات الدالة على ثبوت الرحمة لله تعالى قوله في سورة الأنعام: **﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم﴾** 54.

قوله تعالى:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(23)﴾

تكرير الجملة الأولى من الآية وهي "**هو الله الذي لا إله إلا هو**" من أجل الاهتمام بصفة الوحدانية لله ﷻ.

و"الملك" هو الحاكم في الناس، الذي له التصرف المطلق فيهم، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

و وصف غير الله –تعالى– بـ "**الملك** "إنما هو بالنسبة لطوائف محدودة من الناس، وفي أوقات معينة من أيام الدنيا.

وقد وصف الله –تعالى– نفسه" بالمليك" في سورة القمر حيث يقول:﴿ **إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ 54-55.

والقدوس بضم القاف " وقد تفتح على قلة" هو: المنزه عن النقائص التي يتصف بها بنو آدم، ومنهم ملوكهم كالظلم والاسترسال في الشهوات.

والسلام مصدر الفعل: سلم وصف الله –تعالى– به ذاته من أجل المبالغة في هذا الوصف على طريقة العرب في وصف الشيء بالمصدر إذا أرادوا المبالغة على حد قولهم" زيد عدل "

ومعنى السلام أن الله -تبارك وتعالى- يعامل عباده بالعدل التام فهم سالمون من ظلمه وجوره ﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ الكهف49. ﴿**إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون**﴾ يونس 44.

و"المؤمن" اسم فاعل من الفعل آمن يعنى أن الله -تعالى- يوفر الأمن لعباده ويهديهم إلي الإيمان.

و"المهيمن" الرقيب الحافظ القائم على كل نفس بما كسبت لا يفوته شيء.

و"العزيز" القوى الذي لا يُغلبُ، ولا يعجزه شيء.

و"الجبار" من أمثلة المبالغة إذا كان مشتقا من الفعل الثلاثي جبر، فهو من "جبر الكسر" إذا أقامه وسوا ه. فالجبار: المصلح للأمور.

وإذا كان مأخوذا من الفعل الرباعي أجبر (وأمثلة المبالغة لا تأتي من غير الثلاثي إلا على قلة) فمعناه أن الله تعالى يجبر أي يلزم كل مخلوق أن يسير في حياته وفق ما قدره له.

و"المتكبر" -المتعالي- الذي يصغر كل شيء أمام كبريائه وإذا كان التكبر صفة مدح للخالق فإنه صفة ذم بالنسبة للمخلوقين ﴿**قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبيس مثوى المتكبرين**﴾ الزمر 72، وقد ذيلت هذه الصفات العليا بقوله -تعالى- ﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ أي تنزيهاً لله تعالى عما اتخذه المشركون من آلهة يعبدونها مع الله أو من دونه.

قوله تعالى:

﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(24)﴾

يقال في ضمير الفصل ما قيل في نظيره قبله، والجملة أيضا تفيد الحصر بسبب تعريف جزئي الجملة أي المبتدأ والخبر أي هو وحده الخالق لا شركاؤهم التي عبدوها. قال الله –تعالى- في سور ة النحل **﴿والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون، أيان يبعثون﴾** 20-21.

و"الخالق": اسم فاعل مشتق من الخلق، وهو إيجاد الأشياء على صور مخصوصة.

وفحوى هذه الصفة أن الذي لا يقدر على الخلق لا يستحق العبادة.

و"البارئ": المبرز للأشياء التي قدر إيجادها.

و" المصور": مكون الصور لجميع المخلوقات **﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾** آل عمران6 **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك ﴾** الانفطار6-7، وقد ذيلت هذه الصفات التي تسمى أيضا أسماء بقوله –تعالى- **﴿ له الأسماء الحسني﴾**

ووصفت هذه الأسماء بالحسنى لأنها تدل على معان حسنة ولأن الأسماء إنما تشرف بشرف المسمى. وقد ورد ذكرها أيضا في سورة الأعراف مع زيادة ﴿ ولله **الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ وفي أواخر سورة الإسراء ﴿**أيا مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾110. وفي أوائل سورة طه ﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**﴾. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"**إن لله تسعة وتسعين اسما مئة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر** " أخرجه الشيخان وغيرهما.

ويقول العلماء إن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام احمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ انه قال "**ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحا. قيل يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: بل ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها** ".

وإتماما للفائدة أثبت هنا الأسماء الحسنى الواردة في الحديث الشريف: هو **الله الذي لا اله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن ، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ،المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير،**

الحَكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المغيث، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيـل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحي، المميت، الحي القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الأخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور.

﴿ يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾

وقد ختمت هذه السورة بمثل ما افتتحت به وهو هذه الجملة المتضمنة لتسبيح الله ﷻ. "وهو ما يعبر عنه في علم البلاغة برد العجز على الصدر" وقد توسعت في شرحها هناك بما لا داعي لإعادته هنا.

وأخيرا أطلب من الله ﷻ حسن الجزاء، ومن المنتفعين خالص الدعاء.

وكان الفراغ بحمد الله من تفسير هذه السورة في متليلي (الجزائر)

يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر شعبان 1430 هـ.

المُحتَوَيَاتُ

محتويات الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
مقدمـــة التفسير	01
سورة الفاتحة	13
منزلة الفاتحة	13
البسملة	13
من يستحق الحمد المطلق؟	21
كيف نحمد الله ؟	25
معنى كلمة (رب)	26
أين تظهر رحمة الله؟	28
أركان العبادة	34
بعض مظاهر الشرك	34
حصر الاستعانة بالله لا تنافي التعاون بين البشر	36
المراد بالطريق المستقيم	40
أنواع الهداية	41
من هم الذين أنعم الله عليهم؟	44
من هم المغضوب عليهم ؟ ومن هم الضالون؟	47
التأمين في الصلاة	51
سورة يس	55
المقدمـــة	57
فضل سورة يس، وحكمة قراءتها على المحتضرين	59

حكم قراءة القرآن أو جزء منه بأجرة 60

ما السر في افتتاح بعض السور بحروف مقطعة؟ 61

ما دلالة القسم بالقرآن على رسالة خاتم النبيئين والمرسلين 62

هل كان الرسول ﷺ يشك في رسالته الإلهية للناس؟ 63

ما المقصود من بعثة الرسول ﷺ ؟ 67

هل كانت رسالتهﷺ خاصة بالقوم الذين عاصروه فقط؟ 68

ما المراد بالقول الذي حق على الكافرين؟ 69

الشبه بين المستكبرين عن قبول الحق والذين وضعت الأغلال في أعناقهم 71

نموذج من القوم الذين جحدوا الحق بألسنتهم واستيقنوه في قلوبهم 74

من هم المنتفعون بالإنذار الإلهي للبشر؟ 77

محاسبة الناس على ما قدموه من أعمال في الدنيا 79

ما هي المعاني التي يحتملها لفظ "إمام" وما المراد به في هذه السورة؟ 83

ضرب مثل لكفار قريش بأصحاب القرية الذين عصوا رسل الله إليهم 85

ماذا صنع أصحاب القرية بالرجل الصالح الناصح لهم باتباع الرسل؟ 101

كيف كان مقامه عند الله؟ 101

كيف كان مصير قومه؟ 103

استهزاء العباد برسلهم يستدعي الحسرة عليهم 107

الذين استأصلهم الله ﷻ من الدنيا لا يعودون إليها 111

جميع البشر يرجعون إلى ربهم في الدار الآخرة 112

آيات الله في الأرض الدالة على قدرته وحكمته ورأفته بعباده 114

نظام الزوجية البديع في الإنسان والحيوان والكون	118
آية سلخ النهار من الليل	120
آية مسير الشمس والقمر في فلكيهما	122
آية حمل الناس في الفلك بحراً، وحملهم على مثلها بحرا وبراً	129
إعراض المشركين عن آيات الله ﷻ	132
تحجج المشركين في رفضهم الإنفاق على المحاويج بعدم مشيئة الله ذلك	135
استعجال المشركين لتحقيق وعيد الله بقيام الساعة	139
النفخ في الصور وما يعقبه ...	143
الله لا يظلم أحداً من خلقه، والجزاء على حسب العمل	149
تمتع المتقين في جنة النعيم	150
دعوة المجرمين إلى الخروج من صفوف المؤمنين يوم العرض	153
تذكير بني آدم في الدار الآخرة بعهد الله إليهم حينما كانوا في دنياهم.	154
ما يقال لمنكري العذاب الإلهي حينما يشاهدون جهنم	157
الختم على الأفواه، وإنطاق الجوارح الأخرى لتشهد على أصحابها.	158
تهديد الكفرة بطمس عيونهم، ومسخ أجسادهم.	160
تنكيس خلقة المعمرين الذين يردون إلى أرذل العمر ودلالته	163
الرد الإلهي على اتهام المشركين لنبيه ﷺ بأن ما يقرؤه عليهم من قبيل الشعر	165
فضل الله ﷻ على عباده بتسخير الأنعام لهم	176
النعي على الوثنيين الذين اتخذوا من دون الله آلهة لتنصرهم	181
تذكير الإنسان بقدرة الله على إحيائه مرة أخرى والأدلة الحسية على ذلك	185
تنزيه الله ﷻ عن أي نقص في قدرته وتأكيد رجعة البشر إليه	190

سورة الحجرات 197

المقدمة	199
التأدب مع الله ﷻ ومع رسوله ﷺ	201
نماذج من عمل الصحابة بالآية	203
تنبيه	204
حالنا مع الآية	206
أدب الخطاب مع النبي ﷺ	210
تعليق	215
فضل خفض الصوت في مخاطبته ﷺ	216
فائدة	218
أدب الزيارة	218
نصيحة	222
التثبت في نقل الخبر	225
الترغيب في الصدق والتحذير من الكذب	229
الإيمان يقتضي طاعة الرسول ﷺ	231
وجوب الإصلاح بين المتقاتلين	236
الأخوة بين المؤمنين ومقتضياتها	244
عوامل هدم الأخوة	249
السخرية من المؤمنين والمؤمنات	250
اللمز	256

حكم المزاح في الإسلام	259
التنابز بالألقاب	262
تنبيه	264
قاعدة نحوية مهمة	266
الظن السيئ	267
التجسس	273
الغيبة	276
أهم أسباب الغيبة	279
واجب من يسمع الغيبة	280
متى تباح الغيبة؟	281
أصل البشرية واحد والتفاضل بالتقوى	283
تنبيه أول	289
تنبيه ثان	289
حقيقة الإسلام والإيمان والفرق بينهما	292
الثورات التحريرية جهاد	300
لماذا يقتل المرتد؟	302
وهل يدعو الإسلام إلى الإرهاب؟	303
من أسباب هزائم المسلمين	304
أصناف الكفار	307
حكم موالاة غير المسلمين	307
تخاذل المسلمين إزاء إخوانهم	308

الله ﷻ أعلم بالسرائر	312
النهي عن المنّ على الرسول ﷺ بالإسلام	314
سورة الحشر	319
مقــدمة	321
التركيبة السكانية للمدينة في عهد النبوة	327
معنى التسبيح لله ﷻ	328
كل شيء في الكون يسبح لله تعالى	329
إخراج اليهود من المدينة المـنورة	332
سبب إخراج بني النضير من المدينة	335
تآمر بني النضير على قتل الرسول ﷺ	336
قصة استيطان اليهود بــلاد العرب	338
إتيان الله اليهود من حيث لم يحتسبوا	339
تنبيه	340
تخريب اليهود بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين	344
سبب إجلاء اليهود	345
جواز تخريب ممتلكات العدو المحارب	351
حكم الإسلام في الاعتداء على غير المعتدي	351
فيء بني النضير	353
عدم حصر المال في طبقة من الأمة	356
السنة الشريفة الصحيحة مصدر من مصادر التشريع	358

لمن يكون الفيء؟	367
التنويه بالمهاجرين في سبيل الله	368
الإشادة بالأنصـــــار	371
أمثلة رائعة للإيـــــثار	375
المفلحون من وقاهم الله شح أنفسهم	378
وجوب حب المهاجرين والأنصار، والكف عن إيذائهم	383
تعاون المنافقين مع اليـــهود	388
سبب قسوة اليهود على غيرهم	391
خذلان المنافقين لليهود عندما جد الجد	395
خوف اليهود من المؤمنين أشد من خوفهم من الله	398
بأس اليهود بينهم شـــديد	400
بأس المسلمين بينهم اليوم أشد	403
ضرب مثل لبني النضير بمن سبقهم	405
ضرب المثل بالشيطان إذ قال للإنسان اكفر	408
الذين يغويهم الشيطان والذين لا يفلح معهم	410
قرن الإيمان بالتقوى والنظر في العواقب	412
حقيقة التـقـوى	413
من هم الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؟	419
لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة	421
قوة تأثير القرآن في النفوس المستعدة لتدبره	423
خوارق مقترحـــــة على النبي ﷺ	425

ضربة الأمثال من أجـل التفكر والاعتبار 432

من أسماء الله الحســنى 433

إن لله تسعة وتسعين اسماً 439

محتويات الجزء الأول 443

تم بحمد الله الجزء الأول من كتاب قطوف دانية

ويليه الجزء الثاني المتضمن لتفسير جميع قصار المفصل

(من سورة الضحى إلى سورة الناس)